

أُمُّ الْخَضَارَاتِ

مَلامِحُ عَامَّةٍ
لأولِ حَضَارَةٍ صَنَعَهَا الْإِنْسَانُ

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - بريقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٩٨ / ١٣٣١٦

الترقيم الدولي : 8 - 466 - 270 - 977

جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : رمضان ١٤١٩ هـ - يناير ١٩٩٩ م .

مختار السويدي

أُمُّ الْحَضَارَاتِ

ملاحم عامة
لأول حضارة صنعها الإنسان

تقديم:
الدكتور جاب الله على جاب الله

النشأة
للإسلامية البنائية

To: www.al-mostafa.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

إهداء ...

إلى حبيبة الروح ...

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتي هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

تقديم

بقلم : ا. د جاب الله على جاب الله

الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار

أنعم الله سبحانه وتعالى على مصر بنعم لا سبيل إلى حصرها ، ولا يحفى على أحد إن إحدى هذه النعم هي شعبها ، فأينما وليت وجهك لن تجد شعبا امتدت جذور حضارته في أغوار التاريخ مثلما امتدت جذور حضارة الشعب المصرى ، زد على ذلك أنها حضارة لا تتسم بمجرد الأصالة والعراقة فحسب ، وإنما تتميز كذلك بامتدادها الزمنى وتواصلها الفكرى منذ الماضى البعيد حتى الوقت الراهن .

ولا يسعنا في مثل هذه العجالة أن نقدم للقارىء الكريم العوامل التى جعلت مصر تتميز عما دونها من بلاد العالم بمثل هذا التراث الحضارى العظيم ، وربما يكفى أن نشير إلى موقعها الفريد بين قارات العالم القديم التى أبدعت أولى حضارات الإنسان ، فهى بلد إفريقي يطل على البحر المتوسط (ومن ثم أوروبا) ولها باب مفتوح على آسيا ممثلا في شبه جزيرة سيناء ، والقارىء الكريم يدرك بلا ريب أن هذا الجزء من العالم هو الذى شهد بزوغ الحضارات وتطورها على مدار الحقب التاريخية المتعاقبة ، وكان لمصر قصب السبق فيه وأعطت له من إبداعات شعبها وعصارة عقلها الكثير والكثير .

ويكفى أن نشير كذلك إلى ما حباها الله به من نيل كريم يفيض بالخير كل عام ليملأها بقاء الحياة (وجعلنا من الماء كل شىء حى) يسقى إنسانها ويروى زرعها وحيوانها ويخصب أرضها ، وعلى صفحته تتنقل سفنها لتربط أرجاءها برباط وثيق من الألفة وتجمع أواصر شعبها على ثقافة واحدة حتى صاروا جميعا على قلب رجل واحد .

ويكفى أن نشير أيضا إلى مناخها المعتدل ، فلا هو شديد البرودة ولا هو شديد الحرارة ، وإنما هو بين هذا وذاك مما شجع الإنسان على العمل والإبداع دون معاناة من

الطبيعة ، بل وأثر على مزاجه وتفكيره فكان ، ولا يزال ، معتدلاً سمحاً ينأى عن التطرف ويبغض التعصب .

وفوق هذا وذاك ، وهب الله مصر شعباً صبوراً ، دعوباً ، لديه طاقة هائلة على العمل وقدرة غير محدودة على الابتكار وإمكانات كبيرة للخلق والإبداع ، وحتى في أشد الظروف وأصعب الحالات كان صبره ودأبه وإيمانه العميق بخالقه وبقدراته الذاتية خير معين له على تخطي المحن والخروج من الشدائد لمعاودة تأدية دوره في الإبداع الحضارى .

أبداع الشعب المصرى حضارة عريقة سبقت حضارات شعوب العالم القديم في ابتكاراتها وبزمتها في عمائرها وفنونها ، وأذهلت العلماء المعاصرين بفكرها وعلمها ، وهى حضارة يجلو للبعض أحياناً أن يسميها « الحضارة الفرعونية » ولو من باب التمجيد ، ولكننا نرى في ذلك تجنياً على الواقع وافتئاتاً على الحقيقة ، فالفراعنة (أى الملوك) لم يكونوا إلا من أبناء الشعب وخيطاً في نسيجه المتكامل ، خرجوا من طين الأرض ، ولم يهبطوا عليه من السماء ، وهم وإن كانوا قد قاموا بتوجيه الأمور سياسياً واقتصادياً وعمرائياً ، فإنهم لم يحققوا كل ذلك بعصا سحرية ، وإنما بأيدي كل أبناء الوطن ، وبذلك تكون الحضارة المصرية هى إبداع الشعب المصرى بكل فئاته وطوائفه ، بحكامه ومحكوميه ، بفلاحيه وعماله وموظفيه ومفكريه وفنانيه ، أى أنها باختصار حضارة شعب وليست حضارة حاكم .

وقد ألهبت الحضارة المصرية ، ولا تزال ، خيال الناس شرقاً وغرباً فأقبلوا عليها إما علماء وباحثين ، وإما زائرين عاشقين . أما العلماء فقد راجحوا ينقبون عنها في مظانها ويدرسون وينشرون ثم ينقلون ما تعلموه عنها وما علموه منها إلى أبناء بلدانهم ليصير جزءاً من ثقافتهم العامة ، هذا في حين أن هذه الحضارة نفسها تعاني بعضاً من الغربة في وطنها ، صحيح أن هناك إحساساً ضمئياً كامناً في ضمائر المصريين بمدى أهمية تراثهم وخطورته ، ولكن يظل في معظم الأحوال مجرد شعور كامن ، غامض ، لا تقابله معرفة علمية باهية هذا التراث ولا بحقائق مظاهره التاريخية والفكرية .

وقد يدهش الكثيرون إذا ما قيل لهم أن ما كتب عن تاريخ مصر الفرعونية وحضارة شعبها بأقلام مصرية ضئيل إلى حد مؤلم ، لا سيما إذا ما قورن بما تفيض به كل يوم تقريبا المطابع ودور النشر الأجنبية عن كل مظهر من مظاهر الحضارة المصرية ، حقا أنه يصدر بين الحين والآخر دراسة أو كتاب من أحد دور العلم ، ولكنها كتب ودراسات تخاطب في المقام الأول طلاب الجامعات والمعاهد ، ولذلك فإنها ترتبط ارتباطا وثيقا «بالمقرر» وبالقواعد التي تتحكم فيما يسمى الآن بالكتب الجامعية من حيث عدد الملازم والصفحات . . . الخ . أما والأمر كذلك فإن مثل هذه المؤلفات لا تعنى بالمتقف ، دع عنك القارئ العادى .

ومن هنا كان ترحيبنا بالكتاب الذى بين أيدينا كبيرا ، فهو الجزء الأول من أجزاء ستتلوه بمشيئة الله أجزاء أخرى وكلها موجهة إلى القراء على عمومهم . ونظرة خاطفة على موضوعاته تدل على أن الكاتب حاول أن يغطى نواح شتى من حياة المصريين القدماء في مجالاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبية والفكرية (الدينية منها والأدبية) .

وقد بذل المؤلف جهدا واضحا لكي تصل المعلومة إلى القارئ بلغة سهلة بعيدة عن التكلف وبأسلوب سلس بسيط حتى يجد فيه المتعة الذهنية والوجدانية في آن معا .

والكاتب ، مثل غيره من ملايين المصريين ، عاشق لتراب وطنه ، ولكنه يتميز على الكثيرين منهم بأنه ترجم عشقه هذا إلى قراءة تاريخه والغوص في أعماق ماضيه ، فوجد فيه متعة ملأت عليه كيانه ، ولأنه مدرك تماما لأهمية التاريخ في تنمية الوجدان ، فإنه لم يشأ أن يستأثر بما عرفه من قراءاته لنفسه ، وإنما آثر أن يشرك فيه أبناء الوطن من قراء ومثقفين ، فقدم لهم حصيلة قراءاته عساها أن تحفزهم على ورود مناهلها للاستزادة منها ، وهو يفعل ذلك بكل تواضع ودون ادعاء بالتخصص في علم المصريات ، ومن هنا تلمس في كلماته لا برودة العلماء ، وإنما حرارة العاشقين .

أ.د. جاب الله على جاب الله

الأمين العام

للمجلس الأعلى للآثار

مصر .. من مليون سنة !

في عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد بدأ تاريخ مصر المكتوب ، وتوحدت الدولة تحت قيادة ملك واحد يضع فوق رأسه تاجاً مزدوجاً ، يتألف من تاج الوجه القبلي الأبيض وتاج الوجه البحري الأحمر ، وقبل ذلك التاريخ كان الصعيد مستقلاً في مملكة ، وكانت الدلتا مستقلة في مملكة أخرى .

● ولكن هل يعنى ذلك أن مصر قبل الوحدة كانت بلا حضارة؟! . . وهل ظهرت « الدولة » المصرية هكذا فجأة واعتبرت أول دولة في تاريخ العالم وأول « حكومة مركزية » أنشئت للناس . .؟! .

● الاجابة على هذا السؤال لم تكن سهلة ولا ميسورة حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين قام بعض العلماء الأجانب باكتشافات أثرية سلطت الضوء على مراحل البدايات الأولى لحضارة مصر القديمة ، متمثلة في تلك الآثار المبهرة التي خلفها قدماء المصريين الذين عاشوا في مختلف المناطق المصرية في عصور ما قبل التاريخ .

● وعصور ما قبل التاريخ عصور زمنية طويلة جدا ، وقد تقاس بمئات الآلاف من السنين ، ولعل أوضح تعريف علمي لهذه العصور هو أنها العصور التي سبقت معرفة الانسان للكتابة . . فالكتابة كانت الوسيلة المثلى للإنسان لتدوين وتسجيل كل الأحداث وأمور الحياة . . وهي التي يبدأ بها تاريخ أى شعب من شعوب الأرض . ومن الحقائق التاريخية والأثرية الثابتة ، أن مصر كانت أول دولة في العالم القديم عرفت مبادئ الكتابة وابتدعت الحروف والعلامات الهيروغليفية ، وأن المصريين القدماء كانوا من أحرص شعوب العالم القديم على تسجيل وتدوين تاريخهم والأحداث التي

صنعوها أو تعرضت لهم في حياتهم التي عاشوها . وبهذه الخطوة الحضارية العظيمة ، انتقلت مصر من عصور ما قبل التاريخ ، وأصبحت أول دولة في العالم لها تاريخ مكتوب .

● ولكن . . ماذا كانت عليه صورة مصر وصورة المصريين في تلك الأزمان السحيقة منذ مئات الآلاف من السنين . . ؟!

في قرية مصرية صغيرة اسمها « السلسلة » تقع شمال كوم امبو بمحافظة أسوان ، عثرت إحدى بعثات التنقيب الأثرية على مجموعة متحجرة لانسان مصرى كان يعيش في تلك المنطقة في عصر موغل في القدم . . وعندما أجريت الدراسات والفحوص العلمية لتلك المجموعة باستخدام أحدث أجهزة التحليل الطيفى والاشعاعى ، تبين أن عمرها يزيد على « مليون » سنة ! .

● ومعنى ذلك أن منطقة جنوب مصر كانت عامرة ومأهولة منذ أكثر من مليون سنة .

وقبل ذلك بعدة ملايين أخرى من السنين ، كانت مصر ومناطق واسعة من شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية غارقة تحت مياه البحر . . ثم حدثت تطورات « جيولوجية » أدت إلى انحسار البحر وظهور الأرض . ثم تكوّن منخفض البحر الأحمر كامتداد للأخدود الأفريقى العظيم . . وتكونت جبال الصحراء الشرقية وجبال سيناء . . ثم بدأ النيل يتخذ مجراه ويحفر واديه الخصيب ويكوّن دلتاه .

● ومرت عصور طويلة كانت الأمطار تسقط فيها بغزارة شديدة جدا ، فظهرت النباتات البرية ذات الحبوب والثمار والجذور التى تصلح للغذاء ، وظهرت بالتالى أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور .

● وأثبتت البحوث والدراسات الجيولوجية أن منطقة كوم امبو كانت في الماضى عبارة عن بحيرة واسعة من الماء العذب ، يصب فيها نهران ينبعان من جبال البحر الأحمر ويخترقان الصحراء الشرقية ، ويتهيان إلى مصب في تلك البحيرة . كما كانت هناك أيضا عدة أنهار تنبع من تلك الجبال وتحفر وديانها في الصحراء الشرقية حتى تصل إلى وادى النيل .

● أما الصحراء الغربية فلم تكن مغطاة بالرمال كما تبدو الآن ، بل كانت مناطق مخضرة معشوشبة ، حافلة بالأشجار والنباتات وعيون المياه العذبة .

● أما دلتا النيل فقد كانت في البداية خليجًا من الماء المالح يمتد من البحر إلى داخل الأرض . . ثم أخذ النيل يغمرها بطميه المتراكم على مدى آلاف السنين حتى تكونت أرضها . . وجرى النيل فوق هذه الأرض في عدة فروع لم يعد باقياً منها الآن سوى فرع دمياط وفرع رشيد . ولذلك فقد كان النيل يغمر أغلب مناطق الدلتا ، فامتلأت بالأحراش والنباتات الكثيفة .

● اننا نحتاج كثيراً من الخيال حتى نتصور حياة الانسان المصرى الأول في تلك البيئة الطبيعية في أرض الصعيد وأحراش الدلتا !



مع الانسان المصرى الأول !

منذ عشرات الآلاف من السنين ، لم تكن مناطق الصحراء الشرقية والصحراء الغربية التى تحيط بوادى النيل المصرى بالشكل الذى هى عليه الآن . . كانت الظروف المناخية مختلفة تمامًا . . كانت السماء ممطرة بغزارة ، والأرض خضراء مليئة بالأشجار البرية ذات الحبوب والثمار والجذور التى تصلح للطعام . . وكانت هناك مجموعات كبيرة من مختلف أنواع الحيوانات آكلة اللحوم وآكلة الأعشاب . . بالإضافة إلى جماعات بشرية بدائية كانت تكيف حياتها طبقا لظروف تلك البيئة الطبيعية ، وتعيش معتمدة على عملية « جمع » الطعام بأقل مجهود .

● وعلى مدى آلاف السنين التى تعاقبت ، تغيرت الأحوال الجوية والظروف المناخية ، فقلّ سقوط الأمطار ، بل وانعدم سقوطها تمامًا فى كثير من المناطق التى تحولت إلى صحارى لا زرع فيها ولا ماء . . واضطرت الجماعات البشرية والفصائل الحيوانية إلى النزوح إلى مناطق أخرى تتوفر فيها المياه وتصلح للحياة . . واضطرت هذه الجماعات البشرية إلى التحول من عملية « جمع » الطعام إلى عملية « إنتاج » الطعام .

● ولم تكن تلك الجماعات البشرية تعيش حياة متحضرة بمعنى الكلمة . : بل كانت تعيش حياة بدائية تعتمد على « الأحجار » لصنع الأدوات اللازمة لتلك الحياة . ولذلك فقد سميت هذه العصور باسم « العصور الحجرية » حيث كان يتم اختيار الأنواع الصلبة من تلك الأحجار لصناعة ما يحتاجه الانسان من فؤوس وسكاكين وغير ذلك من الأدوات والوسائل التى يحتاجها الانسان للحصول على غذائه من النباتات والحيوانات التى يصطادها ، أو يستخدمها للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المتوحشة والمؤذية .

● ومنذ تلك الحقبة من الماضى السحيق ، ظهر الفضل العظيم لنهر النيل على مصر وعلى المصريين أنفسهم ، الذين وجدوا مساحات شاسعة من الأراضى الطمئية الخصيبة التى تنحسر عنها مياه الفيضان فى كل عام .

● وبمرور الزمن تعلم هؤلاء المصريون الأوائل ممارسة العمليات الزراعية من بذر ورى وحصاد . وأتاح لهم الاستقرار فى وادى النيل أن يقوموا باستئناس الحيوانات وتربيتها بأعداد كبيرة تضمن إمدادهم الدائم بكل احتياجاتهم من لحوم وألبان وجلود .

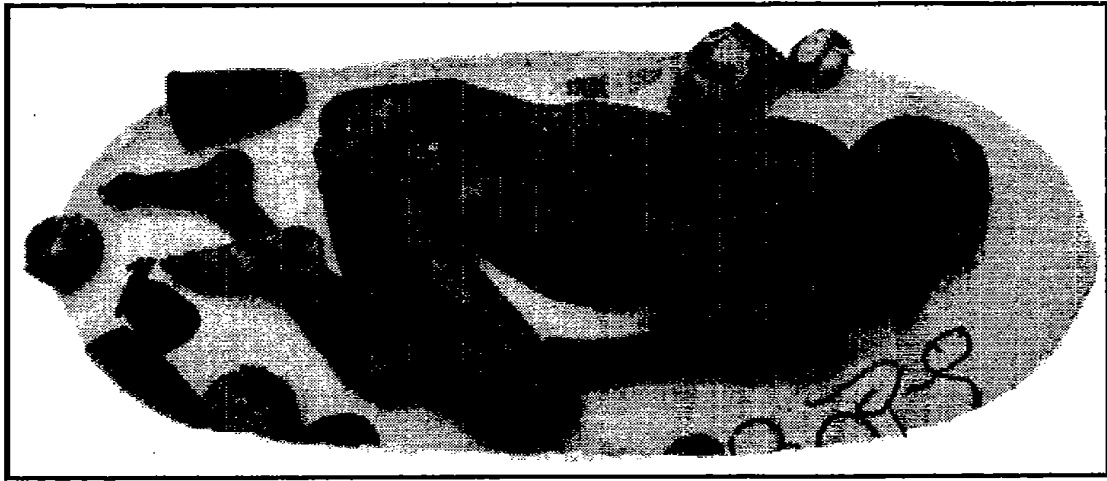
● وكان النيل فى ذلك الزمن السحيق نهراً عاصياً متمرداً لم يسيطر عليه أحد بعد . . ولكن عبقرية هؤلاء المصريين الأوائل تجلت فى معرفة موعد الفيضان السنوى المعتاد . وعرفوا بالتالى الوقت المناسب لاعداد الأرض للزراعة . وعندما انتشرت زراعة الحبوب على نطاق واسع ، عرفوا السبيل إلى تخزين هذه الحبوب وتشوينها فى صوامع بدائية لاستخدام الفائض فى بقية أوقات السنة .

● وهكذا قام المصريون الأوائل بأول انقلاب فى موازين الطبيعة ، وحرروا الانسان من عذاب البحث المستديم عن الطعام باعتباره أهم ضرورة من ضرورات حياته واستمرار وجوده ، الأمر الذى أدى بالتالى إلى إتاحة الفرصة أمام هذا الانسان المصرى الأول ليجد الفراغ أو الوقت الخالى ليستثمره فى تنمية مواهبه ومهاراته الذهنية ، والدخول إلى ميادين حياتية أخرى أدت إلى تغيير كامل شامل فى إيقاع الحياة الفردية والجماعية . .

● ومن هذا المنطلق الجديد استطاع المصريون الأوائل أن يتدعوا قواعد السلوكيات الأخلاقية السوية سواء بالنسبة للانسان الفرد أو بالنسبة للجماعة ككل . . وبدأ ظهور البوادر الأولى للحكمة والعقائد الدينية . ومن هذا المنطلق أيضا خطا الانسان المصرى الأول أولى خطواته فى « عالم الفن » .

● وأدت وفرة الطعام على ذلك النحو إلى التشجيع على زيادة أعداد كل من الانسان والحيوان . . وبالتالى فقد أصبح من اللازم إعداد المزيد من مساحات الأرض الصالحة للزراعة . واستطاع المصريون الأوائل ابتكار الطرق والأدوات والوسائل الزراعية [التى مازال أغلبها مستخدماً فى الريف المصرى حتى الآن !] .

- واكتشف هؤلاء المصريون الأوائل أن العمليات الزراعية تحتاج إلى نوع من التعاون والجهود الجماعية لتصبح أكثر فعالية في مواجهة خطر الفيضان ، وفي إعداد الأرض والبذر والحصاد . . واعتبروا أن هذا التضافر هو في حقيقة الأمر لصالح الجماعة ككل . . ولهذا فقد كان من المنطقي أن تتوحد الأسر والعائلات الصغيرة في شكل « قرية » . . وأن تتوحد هذه القرى المتنامية في شكل « مقاطعات » . . ثم تتوحد هذه المقاطعات أو الأقاليم في شكل « مملكة » تحكمها « حكومة » واحدة .
- وهكذا نشأت في السوجه القبلي مملكة تتكون من « ٢٢ » إقليميا . . ونشأت في السوجه البحري مملكة أخرى تتكون من « ٢٠ » إقليميا .



منذ عصور ما قبل التاريخ ، آمن المصريون القدماء الأوائل بأن هناك حياة بعد الموت ، ولذلك فقد كانوا يدفنون مع الميت بعض أواني الطعام والشراب وقطع الحلوى . وقد حفظت جثة هذا الرجل بفعل جفاف الصحراء وبدون تحنيط ، بالرغم من انه مات منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة .

المصريون الأوائل : من أين جاءوا وكيف عاشوا ..؟

من هم المصريون الأوائل ، ومن أين جاءوا . . وهل هم من أصل آسيوى أم من أصل أفريقى . . ؟ .

● شغلت هذه الاستئلة أذهان كثيرين من علماء الأنثروبولوجيا « علم الانسان » . . وفى سنة ١٩٧٤ عقدت ندوة علمية عالمية تحت إشراف اليونسكو ، كان موضوعها الوحيد هو دراسة أصل السكان الأوائل الذين استوطنوا مصر القديمة . . واختلفت نظريات بعض العلماء ، إلى أن استقروا على رأى راجح أملتة طبيعة الموقع الفريد للديار المصرية الممتدة من جنوب أسوان إلى شواطىء البحر المتوسط . . والتي يشقها النيل العظيم هابطاً من الجنوب إلى الشمال . . والتي تحف بها الصحارى من الشرق والغرب لتوفير الخصوصية التى تميزت بها عبقرية المكان ، من توفير الأمان للسكان وحثهم على البقاء والاستقرار والانتاج لتوفير الخير والرخاء .

● لقد تميز موقع مصر بأنه حلقة الوصل بين قارتى آسيا وأفريقيا ، ومفرق الطرق التى كانت تجوبها الهجرات الانسانية الوافدة من أوروبا وآسيا بحثا عن الأمان والاستقرار، كما تجوبها الهجرات الانسانية الوافدة من المناطق التى تعرضت للجفاف فى شمال وغرب أفريقيا . ولذلك فقد رجح العلماء القول بأن المصريين الأوائل هم من سلالة الجنس الحامى من أصول أفريقية [من شمال أفريقيا وأرض الصومال] ممتزجة ومختلطة بأصول آسيوية وأوربية ، خصوصاً بالنسبة للمصريين الأوائل الذين كانوا يعيشون فى مناطق الدلتا ومناطق مصر الوسطى .

● وكان - ومازال - يخلو لبعض العلماء اليهود ومن يتشيعون لهم أن مجردوا مصر من الأسبقيات الحضارية التى حققتها فى عصور ما قبل التاريخ ، ويحاولون الادعاء بأن

هذه الاسبقيات الحضارية - خصوصًا بالنسبة للزراعة - قد نشأت أولاً في البلاد القديمة التي كانت معروفة بإسم « ميزوبوتاميا » أى بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات ، وفي بعض المناطق الأخرى مثل إيران وسوريا وفلسطين . . ومن هذه البلاد والمناطق انتقلت حرفة الزراعة إلى مصر ! .

● غير أن علماء منصفين وكثيرين خالفوا هذا الرأى وأثبتوا فساده استنادًا إلى النظريات الثابتة والمعروفة في علم الإكولوجى « علم البيئة » والتي أثبتت بأدلة علمية قاطعة أن ضفاف النيل في أرض مصر كانت أصلح بيئة مناسبة أمام الانسان الأول لممارسة « الزراعة المنتظمة » لأول مرة في تاريخ الانسانية ، وذلك بحكم الظروف المناخية وبسطوع الشمس بصفة دائمة ، بالاضافة إلى دورة الفيضان السنوى لنهر النيل والذي كان يحدث بصفة منتظمة عامًا وراء عام .

● ويقرر علماء البيئة أيضًا أن تطور الزراعة بوادى النيل المصرى استغرق فترة طويلة بدأت منذ نحو عشرين ألف سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام . . وأن احتراف المصريين الأوائل للزراعة أجبرهم على الاستقرار بجوار الأرض المزروعة ، فتعلموا بناء البيوت من طين النيل في بداية الأمر .

● كما يقرر علماء الاجتماع أن استقرار وارتباط هؤلاء المزارعين المصريين الأوائل بالأرض أدى إلى تكاثرهم بأعداد كبيرة ، فتعلموا التكاتف الاجتماعى للدفاع عن أنفسهم ولتوفير الأمان والاطمئنان للجماعة ، كما تعلموا فكرة تقسيم العمل النظامى بين الرجال والنساء . . فظهر بينهم نظام انسانى اجتماعى واقتصادى بعد أن تعلموا اختزان المحاصيل الزراعية للوفاء باحتياجاتهم بصفة دائمة على مدار السنة ، وكانت هذه أول فكرة اقتصادية ابتدعها الانسان ليتغلب على الجوع نهائيًا .

● ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن ، قامت بعثات علمية لا حصر لها ، أوفدتها الجامعات والمعاهد المتخصصة ومتاحف الآثار والفنون الجميلة من كافة أنحاء العالم ، بعمل الحفائر الأثرية للبحث عن مخلفات وآثار هؤلاء المصريين الأوائل الذين استوطنوا مصر وعاشوا فيها خلال آلاف السنين في عصور ما قبل التاريخ . وقد

أجريت هذه الحفائر والبحوث العلمية في معظم مناطق ضفاف النيل ، وفي الصحارى المصرية .

● ونذكر هنا باختصار شديد أن هذه البعثات العلمية عثرت على آثار هؤلاء المصريين الأوائل في منطقة السلسلة بالقرب من كوم امبو . . وفي جبل القطران قرب بحيرة قارون بالفيوم . . وفي ممر إدفو / مرسى علم بالصحراء الشرقية . . وفي تلال ووديان النوبة القديمة . . وفي بعض الواحات بالصحراء الغربية . . وفي منطقة بيرطفاوى التى تقع على بعد نحو ٤٠٠ كم جنوب غرب الواحات الخارجة .

● وعثرت أيضا على آثار أكثر رقيًا لهؤلاء المصريين الأوائل في منطقة العباسية شمال شرق القاهرة . . وفي المعادى وطره وحلوان جنوب القاهرة . . وفي ميدوم والجزرة ببني سويف . . وفي البدارى ودير تاسا بأسيوط . . وفي أبيدوس [العرابة المدفونة] بسوهاج . . وفي العمرة ونقادة والجبلين بقنا . . وفي مرمدة بنى سلامة بجنوب غرب الدلتا . . وفي مناطق كثيرة أخرى .

● وتدل البحوث العلمية التى أجريت على تلك الآثار على فضل هؤلاء المصريين الأوائل في ابتداء الإرهاصات الأولى للحضارات الانسانية في عصور ما قبل التاريخ .



أدوات حجرية من عصور ما قبل التاريخ

القرى المصرية في عصور ما قبل التاريخ

مازال حديثنا عن حضارة مصر والمصريين في عصور ما قبل التاريخ ، وبالتحديد في الفترة ما بين عامى ٨٠٠٠ و ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وهى الفترة التى أصطلح على تسميتها باسم « العصر الحجري الحديث » .

● اكتشف علماء الآثار من المصريين والأجانب عدة قرى عاش فيها المصريون الأوائل خلال هذا الزمن السحيق . وقد يكون من الصعب أن نتعرف على مظاهر الحياة الاجتماعية فى تلك القرى كلها فى هذا المجال الضيق ، وسنكتفى الآن بالتعرف على آثار أقدم قرية مصرية اكتشفت فى الوجه البحرى .

● الاسم الحديث لهذه القرية هو « مرمدة بنى سلامة » . . وتقع جنوب غرب فرع رشيد ، على بعد حوالى ٥١ كم شمال غرب القاهرة ، فى المسافة ما بين قريتى وردان والخطاطبة الحديثتين . ويقرر علماء الآثار أن تلك القرية القديمة كانت مزدهرة اقتصاديا ، ومنظمة اجتماعيا ، ومزدهمة بالسكان [نحو ١٦٠ ألف نسمة !] .

● ومن أهم وأحدث التقارير الأثرية العلمية التى نشرت عن حضارة المصريين الأوائل الذى سكنوا تلك القرية ، تقريران علميان نشر أولهما سنة ١٩٧٨ ونشر الثانى سنة ١٩٧٩ . ومن هذين التقريرين نستطيع أن نعطى صورة ملخصة عن مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التى تؤكد لها الأدلة والشواهد الأثرية التى تم العثور عليها فى بقايا تلك القرية القديمة .

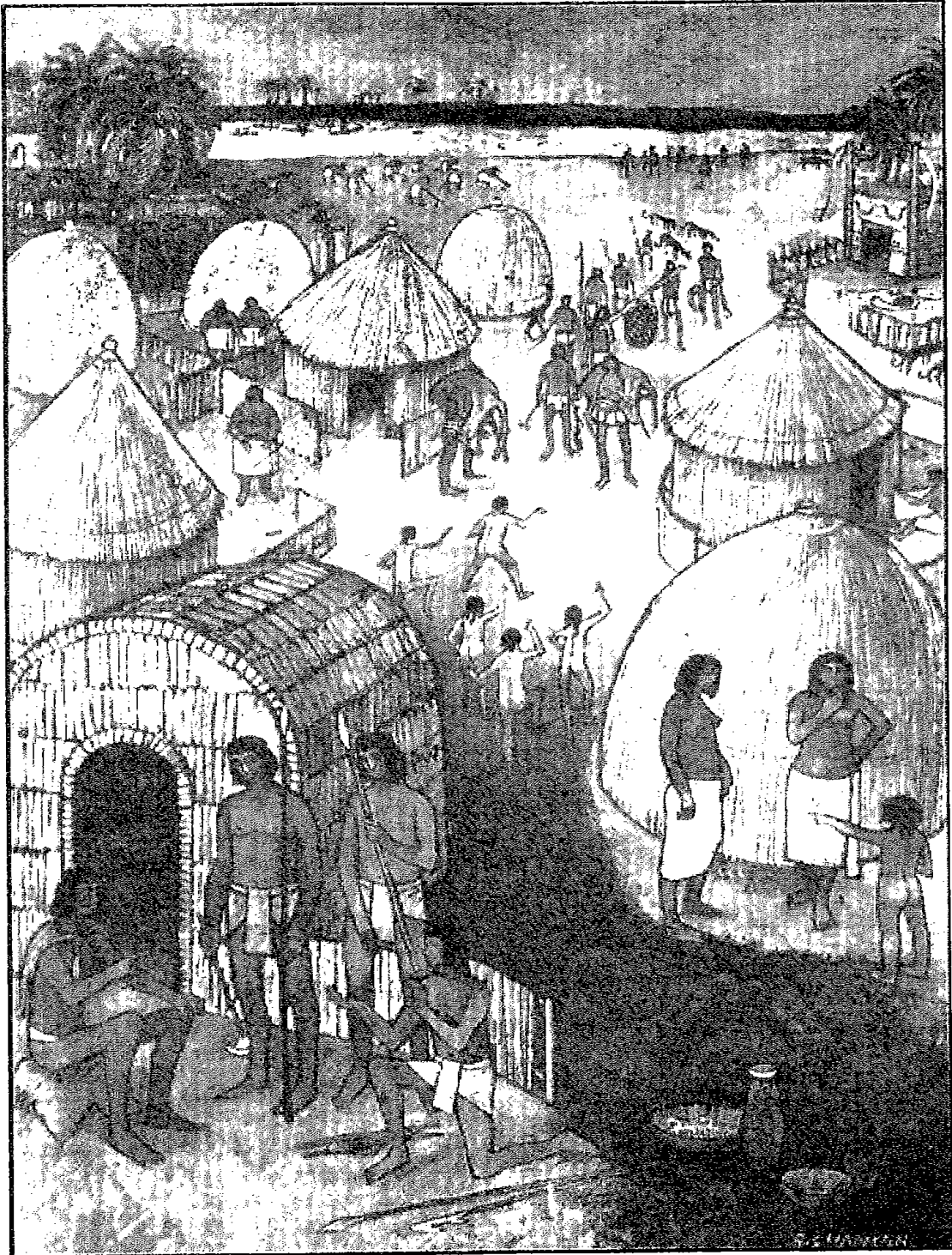
● كان سكانها يمارسون حرفة الزراعة إلى جانب حرفة الصيد [حيوانات وطيور وأسماك] . . وكانوا يعرفون الطريقة المثلى للزراعات النيلية ، أى التى تخضع لأحوال نهر النيل من فيضان وتجاريق . . ويعرفون الطريقة المثلى لحث الأرض التى انحسرت عنها مياه الفيضان باستخدام المحراث الذى اخترعوه لاستعماله فى شق الأرض وتقليب التربة

.. ويعرفون الطريقة المثلى لبذر البذور ودفنها في التربة باستخدام أنواع من العصى ذات الرؤوس الحجرية ، وهي مهمة كانت تقوم بها النساء مع مجموعات من الصبيان والبنات . . كما اخترعوا المناجل المصنوعة من الخشب وذات سنون حادة مصنوعة من حجر الصوان واستخدموها في عمليات جنى المحاصيل . . كما ابتدعوا فكرة «الرحاية» لاستخدامها في طحن الحبوب تمهيداً لصناعة الخبز .

● ويقول بعض علماء الآثار - ومنهم بريستيد - إن هذه الأدوات الزراعية البدائية التي صنعها المصريون الأوائل في العصر الحجري الحديث وعصور ما قبل التاريخ تعتبر أجمل صنعةً وأحسن صقلاً وأكثر اتقاناً من جميع الأدوات المماثلة التي عثر عليها في بقايا وآثار حضارات هذه العصور في جميع أنحاء العالم .

● ويقول بعض العلماء أيضاً أن هؤلاء الفلاحين المصريين الأوائل هم أول من استخلص القمح المعروف حالياً من « القمح البرى » الذي كان ينبت تلقائياً وذلك باستخدام التهجين . وبالنظر إلى وفرة المحاصيل الزراعية فقد كان سكان القرية يستهلكون ما فيه كفايتهم ، ويقومون بتخزين رصيد الحبوب الذي يكفيهم طوال العام حتى موعد حصاد المحاصيل الزراعية الجديدة في العام التالي . وكانت الصوامع التي تخزن فيها الغلال على شكل حفر في باطن الأرض الجافة مغلقة ومغطاة من الداخل بالحصير المجدول .

● أما المساكن التي كانوا يسكنون فيها فكانت عبارة عن بيوت وأكواخ بسيطة مبنية بطين النيل ومن بعض الأحجار الخشنة ، وذات أسقف مغطاة بسيقان البوص محمولة على الجدران . وبعض جدران تلك البيوت كانت مكسوة بالحصير الملصق بطبقة من الصلصال . وكانت البيوت تبنى في صفوف متقابلة تفصل بين كل صفين طرق مستقيمة ضيقة . ويدل هذا التخطيط على وجود نظام اجتماعي موحد ملزم للجميع ، بمعنى أن هناك سلطة حاكمة كانت تفرضه . . وبداخل كل بيت من تلك البيوت كانت توجد حفرة تستخدم كموقد لاعداد الطعام . وتدل الآثار التي عثر عليها في



رسم متخيل لإحدى قرى الوجه البحرى
فى عصور ما قبل التاريخ .

بقايا تلك البيوت على أن سكانها كانوا يتناولون طعامهم بداخلها وفي مكان مجاور تمامًا لموقد الطهي .

● وعرف سكان تلك القرية كيف يصنعون ملابسهم من جلود الحيوانات المدبوغة ومن نسيج الكتان . ومعنى هذا أنهم كانوا يزرعون الكتان إلى جوار الحبوب ، وانهم عرفوا وابتدعوا طريقة تعطين هذا الكتان وتنسيله في شكل خيوط يغزلونها ويعدونها للنسيج على أنوال بدائية ابتدعوها للقيام بتلك المهمة . . كما عرفوا طريقة صنع الإبر اللازمة للخياطة ولوصل قطع الجلود أو النسيج ببعضها لاعدادها كرداء . . كما صنعوا أشكالاً متقدمة من السكاكين والمكاشط والسهام والمطارق والفؤوس .

وصنعوا أيضا الأواني الفخارة المستخدمة في حفظ الحبوب أو في طهي الطعام ، كما تم العثور على بعض كؤوس منحوتة من حجر البازلت الصلب ، الأمر الذي يدل بصفة قاطعة على أنهم ابتدعوا المثاقب والمخارز اللازمة لتفريغ هذا الحجر الصلب ولتسوية حوافه وجوانبه الخارجية . .

● وعرفوا أدوات الزينة واستخدموا « التوتيا » في تكحيل العيون ولعلاج أمراض العيون .

● أما الجوانب الروحية فلا تعرف لهم ديانة محددة ، ولكن طريقة بناء مقابرهم ودفن موتاهم تدل على أنهم كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، لأنهم كانوا يدفنون مع الميت بعض الأواني وبعض الحبوب ، اعتقاداً في انها قد تنفعه بعد انتقاله من عالم الأحياء إلى العالم الآخر .



فضل المرأة المصرية القديمة

في اكتشاف معدن النحاس

في عصور ما قبل التاريخ ، عرف المصريون الأوائل كيفية استخدام « الششم » وهو مادة « الملائحيت » [مسحوق كربونات النحاس القاعدية] لتزيين العين بنفس الطريقة التي يستعمل بها « الكحل » .

● وتقول المعاجم والقواميس العربية أن « الششم » هو ما يوضع في العين للاستشفاء به . وأن اسم « ششم » معرب عن كلمة « جشم » الفارسية ومعناها العين . غير أنى لاحظت أن هذه المادة كانت تسمى في اللغة المصرية القديمة باسم « شسمت » . . ولهذا أرجح أن كلمة « ششم » ذات أصل مصري قديم ، انتقلت إلى الفرس ، ومنهم انتقلت إلى اللغة العربية .

● ويقول بعض علماء الآثار أن المرأة المصرية القديمة كانت للسبب في انتقال الحضارة المصرية من العصر الحجري إلى عصر المعادن الذي يسمى علميًا « العصر الخالكوليثي » أو عصر بداية استخدام النحاس في صناعة الأدوات التي كانت تصنع من قبل من حجر الطران أو الصوان .

● ويفسر العلماء هذا الدور العظيم الذي قامت به المرأة المصرية القديمة في اكتشاف النحاس على أساس افتراض محتمل إلى حد كبير . . فمن المعروف منذ القدم أن المرأة كانت تتولى وظيفة إعداد الطعام للأسرة ، ولذلك فهي التي كانت تتولى أمر إشعال النار وتشغيل المواقد لطهي الطعام .

● ومن المحتمل أن امرأة مصرية قديمة مجهولة ، كانت تقوم بعمل عجينة الكحل من مادة « الملاحيت » حين كانت بجانب الموقد المشتعل تنتظر نضج الطعام الموضوع فوق النار ، فسقطت هذه العجينة في النار بطريقة عفوية أو لأى سبب آخر ، ولم تستطع تلك المرأة بطبيعة الحال أن تمد يدها في النار لتتقذ عجيتها الغالية . وبعد أن نضج الطعام وخذت نار الموقد ، لاحظت المرأة أن العجينة قد تحولت إلى معدن براق هو معدن النحاس . . لقد أدت النار إلى صهر العجينة وتبخير بعض مكوناتها وبقي معدن النحاس في نهاية الأمر .

● ويقول علماء آخرون بنظرية أخرى عن دور المرأة المصرية القديمة في اكتشاف النحاس في شبه جزيرة سيناء وفي الصحراء الشرقية . . فمنذ عصور ما قبل التاريخ كان المصريون يرسلون بعثات أو حملات تعدينية للحصول على « التركواز » أو الفيروز من شبه جزيرة سيناء ، وللحصول على الذهب من الصحراء الشرقية . وغالبا ما كانت هذه البعثات تبقى في تلك الأماكن لمدد طويلة ، لذلك فقد كان هؤلاء المبعوثون من جنود وعمال يصطحبون معهم زوجاتهم ليتولين إعداد الطعام وغير ذلك من الواجبات الأسرية والأعمال المعاونة الأخرى .

● وكأنت المواقيد البدائية عبارة عن حفرة في الأرض الجافة توضع فيها قطع الأخشاب أو الأعشاب وفروع الأشجار التي كانت تستخدم كوقود قبل اكتشاف الفحم النباتى .

● ومن المعروف أن مكونات النحاس في سيناء كانت توجد على شكل رواسب في الطبقات السطحية من الأرض . ومن المؤكد أن بعض النساء المصريات حين كن يعددن المواقيد في أرض تختلط فيها مكونات النحاس بالحصى والتراب ، لاحظن ذلك البريق المعدنى الأصفر يلمع وسط رماد النار بعد خمودها . وبذلك بدأت عمليات اكتشاف المناطق التي توجد بها مكونات النحاس ، سواء في سيناء أو في الصحراء الشرقية .

● ومن معدن النحاس استطاع المصريون الأوائل في عصور ما قبل التاريخ أن

يصنعوا الأدوات الزراعية والأدوات الصناعية ، وأن يطوعوه لصناعة الخرز المثقوب ،
واستخدموه في صناعة قطع الحلى كالعقود والأساور والأقراط ، بل وصنعوا منه التماثيل
فيها بعد .

● وبالرغم من اختلاف وجهة النظر في كل من هاتين النظريتين اللتين قال بهما علماء
الآثار ، فإن كلاً منهما لا تغفل ذلك الدور الحضارى العظيم الذى قامت به المرأة
المصرية القديمة في اكتشاف النحاس ، وانتقال الحضارة المصرية من العصر الحجري
إلى عصر المعادن الأكثر تقدماً ورقياً ، وذلك قبل أن يبرز للتاريخ فجر ، بل وقبل أن
يوحد الملك مينا الوجهين البحرى والقبلى في مملكة واحدة هى أقدم دولة وأقدم حكومة
مركزية انشأها الانسان المتحضر على كوكب الأرض .



تمثال للملك بسى { الأسرة السادسة } مصنوع من النحاس

ومعرض بالمتحف المصرى .

في قرية صعيدية .. منذ ٦٥٠٠ سنة !

بعد زيارتنا لمرمدة بنى سلامة التي اعتبرت أقدم قرية مصرية بالوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ ، نزر الآن إحدى قرى الصعيد التى اشتركت فى صنع الإرهابات الأولى للحضارة المصرية فى تلك العصور الغارقة فى القدم . . وهى قرية «البدارى» التى تقع الآن بمركز البدارى بمحافظة أسيوط على الضفة الشرقية للنيل ، فى المسافة ما بين مدينتى أبو تيج وطما .

● لم تكن البدارى أقدم قرى الصعيد التى سكنها المصريون الأوائل ، فقد ظهرت قبلها - بمئات وآلاف السنين - قرى أخرى أكثر قدمًا ، يرجع تاريخ بعضها إلى العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث . . ولكن البدارى تتميز بأنها أقدم مكان فى مصر كلها عثر فيه على أدوات وأشياء مصنوعة من معدن النحاس . ومعنى هذا أنها أول قرية مصرية تبين لنا كيف دخلت مصر عصر النحاس ، المسمى علمياً باسم «العصر الخالكوليثى» .

● بدأت الحفائر الأثرية التى كشفت لنا عن آثار البدارى منذ أكثر من سبعين عامًا ، وبالتحديد فيما بين عامى ١٩٢٢ - ١٩٢٥ . وقد أجريت هذه الحفائر فى بعض القرى والنجوع التابعة لمركز البدارى وأهمها نزلة المستجدة والهمامية ونزلة الشيخ عيسى والشيخ علم الدين .

● وتدل الآثار التى عثر عليها فى كل تلك المناطق المتقاربة ، على أن تاريخها يرجع إلى نحو عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، وعلى أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فى تلك المناطق كانوا على درجة متقدمة فى الرقى الحضارى بالمقارنة لغيرهم من المصريين الأوائل الذين عاشوا فى الصعيد خلال العصور الحجرية السابقة .

● ويتحليل ودراسة هذه الآثار خلص المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إلى مجموعة

من الحقائق يمكن أن نستخلص منها صورة عامة لحياة المصريين القدماء في تلك المنطقة منذ ٦٥٠٠ سنة .

● كان السكان حينذاك يعتمدون على الزراعة بصفة أساسية لتوفير ما يحتاجونه من غذاء وملابس . . فقد زرعوا الحبوب والخضراوات والثمار كمحاصيل غذائية ، كما زرعوا الكتان واستخدموه على نطاق واسع في صنع ملابسهم بعد غزله ونسجه بطريقة أكثر رقة وتقدما من طريقة غزل ونسج الكتان في القرى المصرية الأكثر قدما سواء في الوجه القبلي أو الوجه البحري . كما استخدموا الملابس المصنوعة من جلود الحيوانات اتقاءً لبرد الشتاء ، وبرعوا في دباغة الجلود وجعلها ناعمة لينة . وكانوا يلبسون هذه الملابس الجلدية مع الاحتفاظ بصوفها إلى الداخل .

● ومعنى براعتهم في نسج الكتان في شكل أقمشة رقيقة وملونة يجعلنا نقطع بأنهم استطاعوا غزل الكتان في خيوط رفيعة وابتكروا أنواعاً للنسج أكثر كفاءة من الأنوال التي كان يستعملها المصريون الأوائل قبلهم .

● وفي ذلك الزمن استقرت تماماً حرفة رعى وتربية القطعان بعد استئناس الحيوانات المفيدة التي توفر للأهالي ما يحتاجونه من لحوم وألبان وجلود . . كما نجحت عمليات تدجين الطيور واستئناس وتربية الحيوانات المستخدمة في الحمل والركوب والقيام بأعمال الحراسة . كما قام الأهالي بتربية الحيوانات المنزلية المدللة كالقطط التي كانت تفيدهم في التخلص من الفئران والثعابين والحشرات المؤذية . لذلك فقد انحسرت حرفة صيد الحيوانات البرية اللازمة للغذاء ، وإن بقيت عمليات صيد الأسماك المتوفرة بكثرة في نهر النيل . ومع ذلك فقد كان الأهالي يخرجون لصيد الحيوانات والطيور كنزهات ترفيهية في الصحراء المجاورة أو في أحراش النيل .

● وقد اهتم المؤرخون وعلماء الآثار المصرية الذين درسوا الآثار التي تركها هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا في منطقة البدارى منذ ٦٥٠٠ سنة بدراسة وتحليل تلك الطفرة الصناعية الكبرى التي اعتبرت بحق خطوة تقدمية إلى الأمام في تاريخ الحضارة المصرية في عصور ما قبل التاريخ ، وأعنى بها عملية تعدين النحاس واستخدامه في صناعة ما كانوا يحتاجونه من أدوات .



رسم متخيل لإحدى قرى الوجه القبلى أثناء مباركة
المحصول الزراعى فى عصور ما قبل التاريخ .

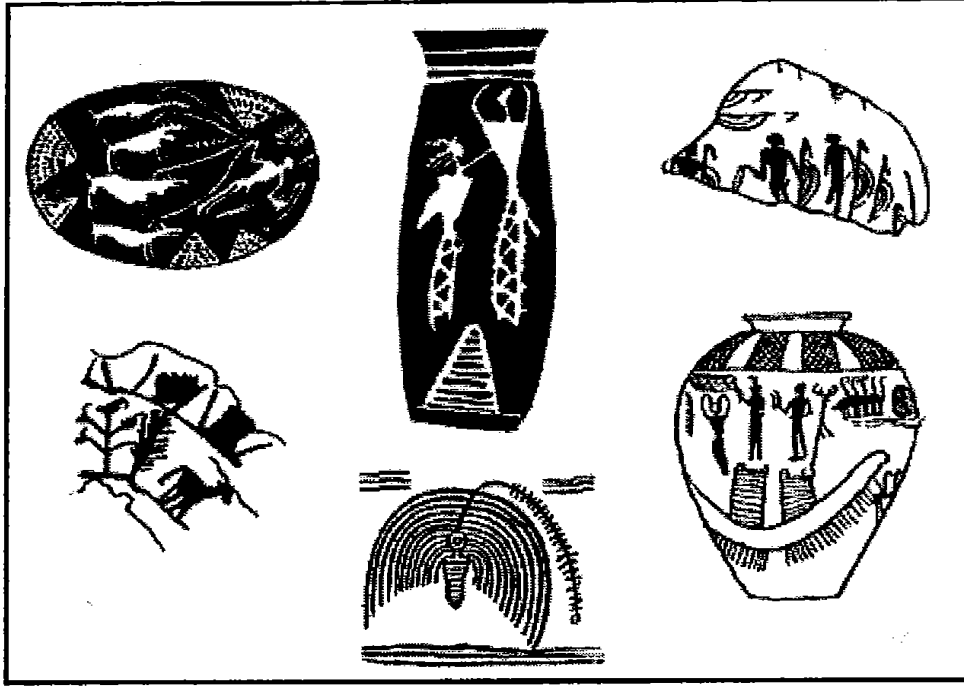
الصعايدة الأوائل .. أقدم المعدّنين في مصر !

مازلنا في زيارة مركز البدارى بمحافظة أسيوط لتتعرف على الآثار التي تركها لنا المصريون الأوائل الذين عاشوا هناك في القرن الخامس والأربعين قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

● تدل القطع الأثرية المصنوعة من النحاس التي تم العثور عليها في منطقة البدارى على أن هذه المنطقة تعتبر أقدم مكان في مصر تم فيه تعدين النحاس . . فقد عثر على كثير من الأدوات المصنوعة بطريقة بدائية من هذا المعدن ، مثل الحلى وحبّات الخرز والمثاقب ودبابيس الشعر ودبابيس شبك الملابس الجلدية والكتانية .

● وبالنظر إلى أن خام النحاس لا يوجد بتلك المنطقة ، فمن المتصور انهم قد استجلبوا أخلاط النحاس الخام من شبه جزيرة سيناء ومن الصحراء الشرقية . وليس في هذا الاستنتاج أى قدر من المبالغة ، حيث عثر على آثار مصرية كثيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد في مناطق غرب سيناء وفي وادى الحمامات القريب من تلك المنطقة والذي يصل ما بين وادى النيل وجبال البحر الأحمر مخترقاً الصحراء الشرقية .

● ومن الموضوعات التي حيرت علماء الآثار أن هؤلاء المصريين الأوائل الذين عاشوا في منطقة البدارى في ذلك الزمن القديم ، قد اهتموا إلى طريقة صنع ثقب في أحد طرفى الإبرة المصنوعة من النحاس والتي كانوا يستخدمونها في الخياطة . . فهذا الثقب الذى كان يلضم فيه الخيط كان يستلزم صنعه وجود مثقاب ذى سن رفيع جدا وحاد ، مصنوع من معدن آخر أشد صلابة من معدن النحاس . . في حين أن هؤلاء المصريين



رسم توضيحية منقوشة على بعض الأواني
المصرية .. من عصور ما قبل التاريخ ..

الأوائل كانوا لا يعرفون بعد طريقة صناعة وتعدين البرونز التي اهتموا إليها بعد ذلك بنحو ألف سنة . . فكيف تسنى لهم إذن أن يثقبوا أحد طرفي الإبرة المصنوعة من النحاس ؟! . . هذا السؤال لم يتم الوصول إلى معرفة الاجابة عليه إجابة صحيحة قاطعة حتى الآن .

● وبالرغم من أن المصريين الأوائل الذين عاشوا في الوجهين القبلي والبحري منذ ٦٥٠٠ سنة لم يكونوا قد توصلوا بعد إلى اختراع « عجلة الفخارنى » التي سهلت عملية صناعة وتشكيل الأوانى الفخارية . . إلا أن ما عثر عليه في البدارى من أوانى الفخار يدل على دقة الصناعة والذوق المبتكر . . ولم تعد الأوانى بدائية الشكل أو محروقة دون عناية مثل الأوانى الفخارية التي عثر عليها في القرى المصرية الأقدم زمنا ، وإنما كانت ذات أشكال مبتكرة غير مسبوقة ، وكانت بعض الأوانى ذات جدران وحواف رقيقة وسطح مصقول لامع ، الأمر الذى يدل على أنهم أول من ابتكر المراحل الأولى لصناعة الخزف .

● وكانوا أيضا أول من ابتكر أشكالاً غير مسبوقة لهذه الأوانى الفخارية التي تطورت وأصبحت ذات أشكال كروية واسطوانية وذات رقاب ضيقة من أعلى ، كما أن بعض هذه الأوانى كانت ذات لون أحمر لامع ومزخرفة بخطوط بيضاء متقاطعة ذات أشكال هندسية .

● كما تطورت بعض الأوانى وأصبحت ذات لونين ، فالجزء العلوى منها أصبح أسود اللون ، والجزء السفلى كان أحمر اللون ، وذلك دون استخدام أية ألوان إضافية إلى عجينة الفخار . ويرجع ذلك إلى انهم ابتكروا طريقة جديدة لحرق الأوانى بعد تشكيلها من الطين أو الصلصال ، وذلك بحرقها « مقلوبة » فى النار ، فيظل الجزء العلوى مغموساً فى عشب النار أو فى المواد المحروقة فيكتسب اللون الاسود بينما يظل الجزء الرئيسى الذى يمثل جسم الأنية معرضاً للهواء أثناء الحرق فيتأكسد ويكتسب اللون الأحمر .

● وتدل جميع الشواهد الأثرية التى تم العثور عليها على أن أهالى البدارى قد عاشوا حياة مرفهة فى ذلك الزمن البعيد فى عصر ما قبل التاريخ . .

الصعيدة الأوائل .. و حياة أكثر تقدماً وحضارة !

نواصل الحديث عن آثار المصريين الأوائل الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ في منطقة البدارى بمحافظة أسيوط حولى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هؤلاء المصريين الأوائل قد عاشوا حياة مرفهة وأكثر حضارة وتقدماً بعد أن عرفوا كيفية تعدين النحاس الذى كانوا يحصلون على خاماته من شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية .

● وبالرغم من كثرة عدد البعثات العلمية المصرية والأجنبية التى أجرت أبحاثها وحفائها الأثرية فى تلك المنطقة ، إلا أنه لم يتم العثور على أى أثر من البيوت التى كانوا يعيشون فيها حياتهم الأولى . . . وجميع الآثار التى تم العثور عليها كانت مدفونة فى آلاف المقابر التى دفنوا فيها موتاهم . ومن هذه الآثار نستطيع أن نستدل على مظاهر حياة الرفاهية والتقدم الحضارى التى عاشوها فى عصور ما قبل التاريخ .

● تم العثور على عدد كبير من القلائد التى كانت تعلق على الصدر ، والأساور التى كانت تزين الأيدي والأذرع ، والخواتم التى تزين الأصابع ، والأقراط والحلقان التى كانت تستعمل كحلى لزينة الأذان ، والأحزمة والمآذر المزينة بالخرز الملون . ومن الغريب أن استعمال جميع هذه الحلى وأدوات الزينة لم يكن قاصراً على النساء وحدهن ، بل كان استعمالها يشمل النساء والرجال والأطفال جميعاً .

● ولو حظ أن بعض قطع الحلى كانت مصنوعة من العاج وقشر بيض النعام ، الأمر الذى يدل على أن هؤلاء المصريين الأوائل كانت لهم صلات مع مناطق النوبة العليا أو بلاد وسط افريقيا حيث توجد الأفيال التى تصنع من أنيابها وسنونها قطع الحلى . كما أن بعض هذه القطع كانت مصنوعة من الأصدف أو مزينة بحبات الفيروز . وهذا دليل آخر على صلاتهم بسواحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء .

● وتم العثور على أمشاط للشعر بعضها مصنوع من العظام وبعضها مصنوع من العاج . ولوحظ أن هذه الأمشاط ذات سنون طويلة متقاربة وضيقة الفتحات ، الأمر الذى يدل على استعمالها لتنظيف الشعر وتسريحه ، كما أن معظم هذه الأمشاط كانت مزينة برؤوس أو أياد ذات أشكال فنية مثل الأشكال الآدمية والحيوانية وأشكال الطيور .

● ودلت بقايا الجماجم والهياكل العظمية لهؤلاء المصريين الأوائل على أن شعرهم كان أسود أو بنى اللون . . وأن الرجال كانوا يخلقون لحاهم وشواربهم كدليل على الرغبة فى الأناقة والحرص على النظافة العامة .

● وعثر أيضا على عديد من المصاحن المصنوعة من حجر الاردواز الناعم والتي كانت تستعمل لطحن المواد التى كانوا يستعملونها فى الزينة وتلوين وجوه النساء [المكياج] . . ومن هذه المواد التى عثر عليها كبريتيد الرصاص وأوكسيد الحديد والراتنج والملاخيت [كربونات النحاس القاعدية التى كانت تستعمل كعلاج وتلوين محاجر العيون] .

● كما عثر على ما يدل على أنهم ابتكروا طريقة استخراج الزيوت من النباتات العطرية واستخدموها فى تنظيف البشرة وتنعيمها واعطائها رائحة زكية .

● ومن القطع الأثرية التى عثر عليها ما يؤكد لنا درجة الرقى التى وصل إليها هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى فى عصور ما قبل التاريخ ، وذلك مثل الملاعق المصنوعة من العاج والتى كانوا يستعملونها فى تناول الطعام بطريقة متحضرة فى ذلك الزمن المبكر . وكانت هذه الملاعق ذات تجاويف مربعة أو مستطيلة أو بيضاوية ، وصنعوا لها مقابض مزينة بأشكال زخرفية أو أشكال على هيئة طيور أو حيوانات لطيفة .

● ومن الخطوات الحضارية التى خطاها سكان البدارى فى ذلك الزمن المبكر انهم ابتكروا فتحًا جديدًا لفن نحت التماثيل الصغيرة فى مصر . . فقد عثر فى مقابرهم على مجموعات من تماثيل النساء مصنوعة من الصلصال ومن الفخار ومن العاج . وبالرغم من الأشكال البدائية لتلك التماثيل إلا أنها تؤكد فكرة ظهور الإرهاصات الأولى لفن

النحت الذى تطور فى العصور اللاحقة حتى أصبحت مصر رائدة لفن النحت فى العالم القديم كله .

● ويقول بعض العلماء أن تلك التماثيل الصغيرة التى دفنوها مع الموتى كانت لتحقيق أغراض سحرية لخدمة الميت وحمايته فى العالم الآخر . .

● ولوحظ أن أكثر مقابرهم كانت جدرانها مبطنه بالحصير ، وانهم كانوا يضعون جسد الميت على لوحة من الخشب أو الحجر ، وهى طريقة لم تكن مستعملة من قبل حيث كان يوسد الجسد فوق التراب . وربما كانت هذه الطريقة المستحدثة هى التى تطورت فيما بعد إلى فكرة صناعة التابوت الخشبى أو الحجرى الذى كان يوضع بداخله الميت . كما كانوا يلفون أجساد موتاهم فى أكفان من الجلد أو قماش الكتان . ومن الغريب أيضا انهم كانوا يدفنون حيواناتهم النافقة فى مقابر خاصة وكانوا يلفون جثتها بالأكفان .

● أما حرصهم على تزويد المقبرة بعدد من الأوانى وأدوات الزينة والأدوات التى كانت مستعملة فى الحياة ، فهو يدل بشكل قاطع على إيمانهم بأن ثمة حياة فى العالم الآخر ، كما يدل على وجود مشاعر أسرية مستقرة تظهر فى طريقة التعبير عن الحنان والتعاطف مع الميت الراحل والحرص على راحته الأبدية . . ومن المشاعر السامية المعبرة عن تلك الأحاسيس الراقية حرصهم على وضع باقة من الورود والزهور العطرية بالقرب من صدر الميت .



في الوجه القبلى .. قبل مينا بألف سنة !

منذ أقدم عصور التاريخ ، بل وفي عصور ما قبل التاريخ ، كان المصريون يطلقون على بلادهم اسم « الأرضين » وهو اسم مازال المصريون المحدثون يستعملونه حتى الآن بمعنى « الوجهين » القبلى والبحرى .

● وقد أدرك المصريون الأوائل الذين كانوا يعيشون في عصور ما قبل التاريخ في الوجهين القبلى والبحرى معتمدين على الزراعة ، أن عمليات الري والصرف والبذر والحصاد وإعداد مساحات الأراضى التى ينوون زراعتها بالقرب من ضفاف النيل ورواييه ، تحتاج إلى التعاون والتآزر وبذل الجهود الجماعية .

● وأدى هذا التضافر الجماعى إلى مصير حتمى هو ضرورة « الوحدة » . . وهى وحدة بدأت أولاً بتوحيد العائلات الصغيرة فى شكل جماعة . . وتوحيد تلك الجماعات فى شكل قرية . . وتوحيد تلك القرى والمدن فى شكل مقاطعات أو أقاليم أوسع نطاقاً . . وتوحيد تلك المقاطعات أو الأقاليم فى شكل دولة ذات حكومة مركزية واحدة . وعلى هذا الأساس نشأت فى مصر مملكتان . . مملكة فى الوجهه البحرى ، والثانية فى الوجه القبلى .

● ومن الناحية العلمية فإن البحث فى معرفة أسماء الملوك الذين حكموا « الوجهين » فى عصور ما قبل التاريخ يعتبر من أصعب الأمور . . ولا يعرف المؤرخون من هذه الأسماء سوى أسماء بعض الملوك الذين حكموا الوجه البحرى ، واسم ملك واحد ممن حكموا الوجه القبلى فى تلك العصور ، وهو الملك « العقرب » .

● جعلت الطبيعة الجغرافية والبيئية من الوجه القبلى شريطاً ضيقاً ممتداً على ضفتى

النيل ، تحيط به الصحارى والتلال الصخرية وهذه البيئة الصعبة القاسية هي التى علمت الصعايدة الأوائل الذين كانوا يعيشون فى الوجه القبلى فى عصور ما قبل التاريخ فضيلتى الأصرار والمثابرة ، وأن يكدحوا ويكافحوا دائماً وباستمرار ضد الخطر الذى كان يهدد أراضيهم الزراعية ، وهو زحف الرمال الحمراء والصفراء القادمة من الصحراء ، ومنعها من ابتلاع الأرض الخصبة السوداء التى كانوا يسمونها « كيمى » . . كما كانوا يسمون أرض الصحارى الصفراء باسم « دشر » [وأرجو ملاحظة تقارب التسمية بين كلمة « دشر » المصرية القديمة وبين كلمة « ديزرت DESERT » المستعملة فى بعض اللغات الأجنبية] .

● وبالإضافة إلى هذا الخطر الدائم كان هناك خطر مواجهة مياه الفيضان السنوى حين كانت تفيض على الضفتين وتغمر قراهم وأراضيهم الزراعية ، الأمر الذى يتطلب بالضرورة إقامة الجسور على طول ضفتى النهر ، للتحكم فى مياه الفيضان لصالح الانتاج الزراعى ، مع درء خطر الاغراق والتدمير . كذلك فقد قام نهر النيل بدوره فى تسهيل تحقيق هذا التضافر الاجتماعى بين جميع سكان الوجه القبلى ، باعتباره ممراً مائياً يحقق لهم سبل الاتصال السريع مع جميع سكان القرى والمدن والأقاليم الواقعة على ضفتى النيل بالوجه القبلى حتى مفرق الدلتا .

● وقد أدت هذه الاتصالات المستمرة بين أقاليم الوجه القبلى إلى ظهور ضرورة التنسيق الإدارى وتنظيم الجهود الجماعية من أجل صالح السكان ككل ، ومن أجل حشد قوى هؤلاء السكان للوقوف ضد ما يدهمهم من أخطار . وكان هذا الاعتبار هو البذرة التى أنبتت فكرة الدولة التى يحكمها ملك واحد وحكومة مركزية واحدة تعمل لصالح الوجه القبلى بكل أقاليمه ، وكان عددها اثنين وعشرين إقليمياً . وهذا الدور الإدارى والسياسى هو الذى ميز الوجه القبلى بالقدرة الفائقة على قيادة السلطة الإدارية والسياسية طوال عصور التاريخ المصرى القديم فى معظم حقباته .

● واتخذت مملكة الوجه القبلى من نبات البردى شعاراً لها . . كما اتخذ ملوكها من التاج الأبيض المعروف - واسمه القديم « حدجت » - شعاراً ملكياً يلبسه كل من يرتقى عرش تلك المملكة .

● وكانت لمملكة الوجه القبلى عاصمتان فى مدينتين متقابلتين على ضفتى النيل فى المسافة ما بين جنوب الأقصر وشمال أسوان . المدينة الأولى التى تقع على الضفة الشرقية للنيل هى العاصمة السياسية والادارية ، وكان اسمها القديم « نخب » وتسمى « الكاب » حالياً . أما المدينة الثانية التى تقع على الضفة الغربية المقابلة ، فكانت العاصمة الدينية . وكان اسمها القديم « نخن » وأطلق عليها الإغريق القدماء اسم « هيراكونبوليس » أى مدينة الصقر . وكان ملك الوجه القبلى يتخذها مقراً لسكانه . . واسمها الآن « الكوم الأحمر » وتقع على بعد حوالى ١٥ كيلو مترا شمال مدينة إدفو .



تمثال صغير لامرأة ، ومشط له يد على شكل غزال ، مصنوعان من العاج ، من عصور ما قبل التاريخ .

في الوجه البحرى .. قبل مينا بألف سنة !

كان سكان الوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ أسعد حالا من معاصريهم سكان الوجه القبلى .

● فى ذلك الزمن كانت الدلتا تتكون من إثنى عشر فرعًا ، تتفرع منها مجموعة لا حصر لها من الروافد المائية الصغيرة ، لذلك فقد كانت معظم أراضيها مليئة بالأحراش والخلجان والمستنقعات والمناطق العشبية . . أما أراضيها الزراعية فقد كانت على درجة عالية من الخصوبة ، فزرعت إلى جانب الحبوب بمحاصيل إضافية مثل الكتان والكروم وحدائق الفواكه .

● وكان مناخها أكثر اعتدالاً وأقل قسوة من مناخ الوجه القبلى . . كما كانت تحف بها شرقًا وغربًا مناطق عشبية واسعة ترعى فيها قطعان الأغنام والماعز والمواشى الأخرى . . هذا إلى جانب ما كان يتوفر فيها من أسماك ودواجن وطيور ، بالإضافة إلى وجود عدد من الملاحات التى كان يستخرج منها الملح اللازم للطعام لحفظ اللحوم والأسماك .

● وبسبب هذه الوفرة الهائلة فى الطعام تعرضت مناطق الوجه البحرى لهجرات استيطانية متكررة من الليبيين القادمين من الغرب ، ومن الساميين القادمين من الشرق . . غير أن هذه الهجرات كانت سرعان ما تتمصر وتذوب فى مجتمعات المصريين من سكان الدلتا الأصليين . كما أدت وفرة الطعام أيضًا وسهولة الحصول عليه إلى توفير الوقت الكافى أمام المتميزين من السكان لكى يتفرغوا للتأمل وابتداع الحكمة ونسج الأساطير بالإضافة إلى الإبداعات الفنية والصناعية .

● وإذا كان الوجه القبلى فى عصور ما قبل التاريخ قد تميز بالقدرة على القيادة

الادارية والسياسية ، فقد تميز الوجه البحرى بالقدرة على القيادة الفنية والحرفية .
ويقول كثير من المؤرخين - استنادًا إلى أسباب جغرافية وبيئية وسكانية - إن الوجه
البحرى فى ذلك الزمن كان أكثر تقدمًا من الوجه القبلى من الناحية الحضارية .

● وإذا كان علماء الآثار قد عثروا على الكثير من الآثار التى تركها سكان الوجه
القبلى فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد كان من الصعب العثور على الآثار التى تركها
سكان الوجه البحرى فى تلك العصور ، فقد ضاعت تلك الآثار وتلاشت واختفت
تمامًا تحت الركامات الهائلة من طمى النيل التى تراكمت على مدى آلاف السنين .

● كان الوجه البحرى آنذاك مقسمًا إلى عشرين إقليمًا ، يتكون كل إقليم منها من
وحدة رئيسية تمثل قرية كبيرة أو مدينة وما يتبعها من قرى أخرى صغيرة . ومثل أقاليم
الوجه القبلى كان لكل إقليم حاكم أو رئيس ومعبد وسوق تجارى . ومثلما حدث أيضا
فى الوجه القبلى ، فقد توحدت أقاليم الوجه البحرى فى شكل مملكة يحكمها ملك واحد
وحكومة مركزية واحدة .

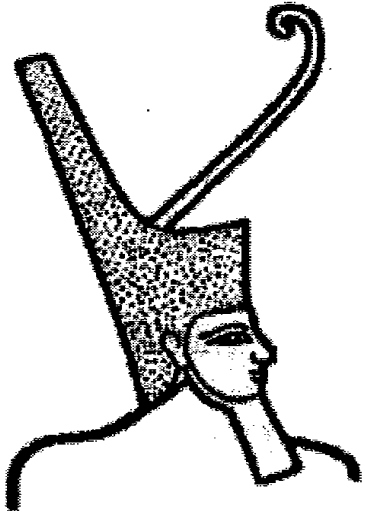
● وبسبب عدم العثور على آثار كافية للاستدلال منها على أحوال مملكة الوجه
البحرى فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد كان من الصعب تمامًا التعرف على أحوال تلك
المملكة والأعمال التى قام بها شعبها وملوكها . وبالرغم من هذا القصور فى العثور على
الدلائل الأثرية إلا أن علماء الآثار قد تمكنوا لحسن الحظ من إجراء العديد من الأبحاث
والحفائر الأثرية حتى تم العثور على بقايا وآثار قرية كاملة يرجع زمانها إلى عصور ما قبل
التاريخ ، وهى قرية « مرمدة بنى سلامة » التى تقع بجنوب غرب الدلتا .

● ولحسن الحظ أيضا فقد تم العثور على أثر بالغ الأهمية يتضمن أسماء تسعة من
ملوك الوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات منهم الملوك « سخا »
و« خايو » و« تيش » . وقد وردت هذه الاسماء فى ثبت دوتنه الكتاب المصريون فى عصر
الأسرة الخامسة التى حكمت مصر لفترة تقدر بنحو مائة وخمسين سنة فيما بين عامى
٢٤٩٤ ق م - ٢٣٤٥ ق م . . أى بعد مرور نحو ١٧٠٠ سنة على العصر الذى كانت
فيه مصر مقسمة سياسياً إلى مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى .

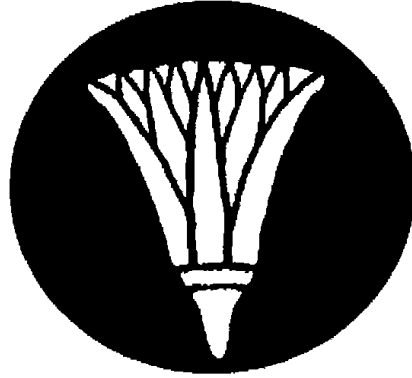
● وقد اتخذت مملكة الوجه البحرى من « زهرة اللوتس » شعارًا لها ، كما اتخذ ملوكها من التاج الأحمر بشكله المعروف - وكان اسمه القديم « دشرت » - شعارًا ملكيًا يلبسه كل من يرتقى عرشها .

● وكانت لمملكة الوجه البحرى عاصمتان متجاورتان هما مدينتا « بى » و « دب » وقد ادجتا معًا فى مدينة واحدة اطلق عليها اسم « بوتو » . . وتسمى حاليًا « تل الفراعين » وتقع بشمال غرب الدلتا بالقرب من مدينة « دسوق » جنوب بحيرة البرلس .

● وتقول اسطورة « إيزيس وأوزيريس » إن إيزيس قد لجأت هى وابنها الرضيع « حورس » إلى أحراش الدلتا فى منطقة « بوتو » . . وظلت هناك حتى اشتد عوده وخرج منها مطالبًا بعرشه فى مصر الموحدة .



التاج الأحمر
تاج مملكة الوجه البحرى



زهرة اللوتس
{ شعار مملكة الوجه البحرى }

وحدة مصر .. قبل مينا بألف سنة !

رأينا كيف أن حياة المصريين الأوائل على ضفاف النيل ، فرضت عليهم عوامل الوحدة وتأليف القلوب والسعى إلى الصالح العام الذى يعود بالخير عليهم جميعًا . ورأينا كيف اتحدت القرى فى شكل أقاليم ، وكيف اتحدت الأقاليم فى شكل مملكتين بالوجه القبلى والوجه البحرى . وذلك فى عصور ما قبل التاريخ وقبل ظهور الملك مينا بنحو ألف عام .

● وتشهد جميع الأدلة الأثرية التى عثر عليها أو تم اكتشافها فى مختلف مناطق كل من هاتين المملكتين على عدم وجود أية فوارق كبيرة بين المصريين الأوائل الذين كانوا يسكنون فى هاتين المملكتين . . فقد كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية للسكان فى كل من الوجهين القبلى والبحرى . وكانت الزراعة معتمدة أساسًا على نهر النيل الذى ينهل الجميع من خيراته ، كما يتعرض الجميع لأخطار فيضانه .

● وكان سكان الوجهين يتكلمون لغة واحدة مشتركة وإن اختلفت لهجاتها . . تمامًا مثلما يحدث الآن . . فالمصريون المحدثون جميعًا يتكلمون العربية ، ولكن اللهجات وطريقة نطق الحروف أو الكلمات قد تختلف بين أهالى الوجه القبلى وأهالى الوجه البحرى وسكان المناطق الصحراوية والمناطق الساحلية .

● وكان سكان مملكتى الوجه القبلى والوجه البحرى يدينون بديانة تستلهم مبادئها من الروح والعادات والتقاليد الزراعية . لذلك فقد كانت عقائدهم الدينية متقاربة فى المبنى والمعنى ، وإن اختلفت الآلهة وتعددت بتعدد الأقاليم فى كل من المملكتين . .

فقد كان لكل اقليم إله الخاص الذى يتعبد إليه السكان اعتقاداً منهم ان هذا الإله هو الذى يحمى إقليمهم ويوفر لهم الخيرات ويدفع عنهم شرور الحياة . . كما كان لكل من المملكتين إله رئيسى يؤمن به سكان كل مملكة . . وكان الإله « حورس » هو الإله الرئيسى فى مملكة الوجه البحرى ، والإله « ست » هو الإله الرئيسى فى مملكة الوجه القبلى .

● وبالرغم من العداء الاسطورى الشهير بين الإلهين « حورس » و « ست » — طبقاً لما ورد فى اسطورة إيزيس وأوزيريس — إلا أن الأساس الدينى فى كل من هاتين الديانتين يعتبر واحداً . كما كانت العقائد الدينية التى سادت بين سكان المملكتين فى عصور ما قبل التاريخ تنتمى إلى فكرة فلسفية واحدة هى « حلول القوة الإلهية فى شخص الملك » . وهذه الفكرة ظلت سائدة فى نظم الحكم فى معظم أنحاء العالم عبر آلاف السنين وحتى وقت قريب حيث كان يستند كثير من الملوك فى أوروبا وآسيا وأفريقيا إلى الفكرة القائلة بأنهم « ظل الله فى الأرض » .

● وقد أدت البيئة الزراعية التى كان يعيش فيها المصريون الأوائل من سكان الوجهين القبلى والبحرى أثناء عصور ما قبل التاريخ إلى خلق الفرص بين هؤلاء السكان لكى يتبادلوا المنافع ، ويتبادلوا المواد الأولية والمحاصيل الزراعية التى قد تتوفر فى منطقة دون أخرى على مدار السنة . . بالاضافة إلى تبادل المصنوعات المحلية التى قد تتميز بها كل مملكة عن المملكة الأخرى ، مع ما كان يصحب ذلك بطبيعة الحال من اختلاط اجتماعى نتيجة للمعاملات المستمرة ، ونتيجة لكثير من حالات الزواج والمصاهرة .

● وبسبب ما كانت تتعرض له مملكة الوجه البحرى من تهديد وغارات يشنها الآسيويون من الشرق والليبيون من الغرب ، فقد كان من اللازم أن تجهز المملكة قوة تحميها من تلك الغارات المتكررة . ولا شك فى أن تلك القوة هى التى دفعت بعض ملوك الوجه البحرى إلى ضرورة التفكير فى توحيد سكان الوجهين فى دولة واحدة ، وذلك بدمج قوة الوجه القبلى فى قوة الوجه البحرى ، ولوضع حد للانفصال الذى لا معنى له بين مصر العليا ومصر السفلى .

● وعلى هذا الأساس قام ملوك الوجه البحرى بفرض سيطرتهم على الوجه القبلى ،

ووحدها المملكتين في دولة واحدة ، جعلوا عاصمتها في مدينة « أون » التى تقع في منطقتى عين شمس والمطرية شمال القاهرة ، على أساس انها عاصمة تتوسط الوجهين ويسهل منها إدارة شئون الوجهين معًا .

● هذه الوحدة المصرية التى قامت قبل عصر الملك مينا بمئات السنين كانت محل جدل علمى بين المؤرخين وعلماء المصريات ، فبعضهم أكد وجود هذه المملكة المصرية الموحدة في عصور ما قبل التاريخ ، وبعضهم أصر على أن الملك مينا هو أول من وحد الوجهين وأسس الأسرة الملكية الأولى ، وبدأت في عهده العصور التاريخية التى مرت على مصر اعتبارًا من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد .



رسم توضيحي لجنود محاربين من عصور ما قبل التاريخ .

تجربة وحدة مصر .. في عصور ما قبل التاريخ

أشرنا إلى اختلاف بعض المؤرخين وعلماء المصريات حول حدوث أو عدم حدوث «وحدة» سياسية جمعت مملكتى الوجه البحرى والوجه القبلى فى مملكة واحدة ، خلال عصور ما قبل التاريخ ، وقبل «الوحدة الخالدة» التى حققها الملك مينا بعد ذلك بمئات السنين .

● وبالرغم من ندرة الشواهد الأثرية التى يمكن الاستناد إليها لتدعيم هذا الاستنتاج المؤيد لفكرة حدوث الوحدة الأولى ، إلا أن غالبية المؤرخين وعلماء المصريات يرجحون الآن الرأى القائل بحدوث هذه الوحدة الأولى فى عصور ما قبل التاريخ ، وذلك بعد دراسات مستفيضة لكثير من النقوش والصور التى تعود إلى ذلك العصر السحيق فى القدم . . . وبعد دراسة رموز وشعارات وآلهة الأقاليم المصرية فى كل من الوجهين البحرى والقبلى قبل أن يتحددا ، والتى ظل كثير منها قائماً بعد أن استقرت «الوحدة الخالدة» بين الوجهين فى العصور التاريخية .

● كما استند العلماء أيضا إلى ما تضمنته أسطورة «إيزيس وأوزيريس» - وهى أقدم أسطورة فى العالم - وقد ذكرت بها بعض تفاصيل الأحداث التى وقعت فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ . وتقول هذه الأسطورة أن «حورس» وهو الإله الرئيسى لمملكة الوجه البحرى خرج بجيشه وأنصاره لمحاربة عمه «ست» وهو الإله الرئيسى لمملكة الوجه القبلى ، وانتصر عليه فى النهاية ، وأصبح أول من تولى عرش مصر الموحدة من البشر المؤهلين .

● واستندوا كذلك إلى ما تضمنته «متون الأهرام» - وهى نصوص كتبت فى عصر الأسرة الخامسة أى بعد قيام هذه الوحدة الأولى بأكثر من ألف وخمسمائة سنة - حيث

ذكرت في تلك المتون إشارات إلى أحداث أسطورية ، ربما تكون قد حدثت واقعياً في مصر في عصورها وأزمانها الغارقة في القدم . ويفهم من بعض هذه الإشارات أن مصر، بوجهيها القبلي والبحرى ، كانت قد توحدت في مملكة واحدة يحكمها « رع » . . ثم تعرضت هذه الوحدة إلى أحداث واختلافات دينية أدت إلى انفصامها ، حتى أعيد توحيد الوجهين مرة أخرى في مملكة واحدة في بداية عصر الأسرات سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

● ويجمع هؤلاء المؤرخون على أن المملكة المصرية الموحدة في عصور ما قبل التاريخ اتخذت عاصمة جديدة ، بدلاً من « بوتو » عاصمة الوجه البحرى و « نخب » عاصمة الوجه القبلى . وتقع هذه العاصمة الجديدة بالقرب من مفرق دلتا النيل لكى يتم لها الاشراف على شئون الوجهين من مكان مناسب قريب لكل منهما . وكان هذا المكان هو مدينة « أون » التى تقع في منطقة عين شمس والمطرية حالياً .

● كانت مدينة « أون » منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ تمثل المركز الرئيسى لعبادة الإله « رع » الذى يرمز إلى الشمس . . ولعل هذا هو السبب في تسميتها « هليوبوليس » أى مدينة الشمس في العصر اليونانى الرومانى . . كما سميت « عين شمس » في العصر الاسلامى ، وهو الاسم الذى ظل مستخدماً حتى الآن .

● وبعد قيام الوحدة الأولى بين الوجهين البحرى والقبلى في عصر ما قبل التاريخ ، اتخذت المدينة شعاراً لها يتمثل في قرص الشمس يحيط به جناحان منشوران ، يمثل الجناح الأول الوجه البحرى ويمثل الجناح الثانى الوجه القبلى . وهذا الشعار بالذات أصبح رمزاً فرعونيا دائماً ظل مستخدماً على مدى أكثر من أربعة آلاف سنة استغرقتها العصور التاريخية القديمة في مصر .

● غير أن هذه الوحدة المصرية الأولى التى حدثت في عصر ما قبل التاريخ لم تصمد إلى الدوام طويلاً ، ولحقت بها عوامل التفكك والانحلال نتيجة للثورات العديدة التى قام بها أهالى وكهان وحكام أقاليم الوجه القبلى ، للتخلص من الهيمنة الدينية والسياسية التى فرضها الوجه البحرى على مقدراتهم وعقائدهم الدينية . . فقد كانت

هناك عدة مراكز دينية في كثير من مناطق الوجه القبلي ، أهمها ما كان في مدينة « نخن » [الكوم الأحمر حالياً] التي كانت العاصمة الدينية لمملكة الوجه القبلي . . ومركز ديني آخر في « نقادة » و « البلاص » بمحافظة قنا . . ومركز هام ثالث في مدينة « الأشمونين » بمحافظة المنيا .

● وكانت هذه المراكز الدينية تعتنق أفكاراً وعقائد ونظرات دينية تختلف مبادئها الأساسية عن مبادئ وأساسيات ديانة عبادة الإله « رع » الأمر الذي أدى في النهاية إلى ظهور تيارات التعصب الديني الذي أدى بدوره إلى تفكك الوحدة ، وعودة مملكتي الوجه القبلي والوجه البحري إلى الاستقلال مرة أخرى .



عين شمس .. عاصمة مصر الأولى !

كان اسمها في اللغة المصرية القديمة « أونو » كما ينطق أيضا « أيونو » . ثم ورد ذكرها في التوراة والانجيل باسم « أون » وهو الاسم الذي استقرت عليه اللغة القبطية . . وفي العصر اليوناني الروماني أطلقوا عليها اسم « هليوبوليس » أى مدينة الشمس . . وبعد الفتح العربى سميت باسم « عين شمس » [ويلاحظ التقارب بين نطق كلمتى عين وأون] .

● وقد ارتبط اسمها بالشمس لأنها كانت مركزاً لعبادة الإله « رع » إله الشمس . . وهى العبادة التى كان لها أكبر الأثر فى الفكر العقائدى والفكر السياسى فى جميع العصور التاريخية القديمة بمصر . وبالرغم من أن هذه العبادة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، إلا أنها أخذت تكتسب أهميتها بين العبادات المصرية القديمة منذ أن اتخذت « أون » عاصمة للوحدة المصرية الأولى بين الوجهين البحرى والقبلى ، ثم ازدادت أهميتها فى عصر الأسرة الرابعة [٢٥٧٠ - ٢٤٨٠ ق م] حين أصبح الملوك يسندون شرعية حكمهم إلى الادعاء بأنهم أبناء « رع » . . وظهر اسم « رع » مقروناً بأسمائهم مثل « خفرع » و « منكاورع » . وبلغت ديانة « رع » ذروتها فى عصر الأسرة الخامسة [٢٤٨٠ - ٢٣٤٠ ق م] .

● وتدل شواهد أثرية عديدة على أن ضفاف وروابى النيل عند حافة الصحراء الشرقية وبالقرب من مفرق الدلتا ، كانت من المناطق العامرة خلال عصر ما قبل التاريخ . وكان مفرق الدلتا فى تلك العصور يقع جنوب مفرقها الحالى بمنطقة القناطر الخيرية . وعثر على آثار كثيرة يرجع زمانها إلى تلك العصور فى الشريط العمرانى القديم الممتد من منطقة المطرية وتل الحصن وعرب الحصن وأرض النعام وعين شمس حتى منطقة صحراء العباسية والممتدة جنوباً حتى منطقة المعادى وطرة وحلوان . وتدل جميع

تلك الآثار الغارقة في القدم والتي عثر عليها في تلك المناطق على أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فيها خلال عصور ما قبل التاريخ كانوا ذوى حضارة متميزة ، بل ويقول بعض المؤرخين أنهم كانوا على علاقة بالشعوب الأجنبية في مناطق فلسطين وشمالها .

● وكانت منطقة « أون » - حتى من قبل أن تتخذ أول عاصمة لمصر الموحدة مركزاً لعبادة الإله « رع » إله الشمس ، كما كانت أيضاً مركزاً علمياً للحكمة والفلسفة والفلك وتنظير العقائد الدينية ، ومنها خرجت أول رؤية فلسفية لأقدم مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود وخلق السموات والأرض والانسان .

● وقد تأثر الفلاسفة اليونانيون الأوائل في القرن الخامس قبل الميلاد - أى بعد مرور أكثر من ٣٥٠٠ سنة - بتلك الرؤية الفلسفية المصرية لنشأة الوجود وخلق العالم ، وأخذوا بها أو ببعض جوانبها ومبادئها في وضع أقدم الأسس الأولى للفلسفة اليونانية .

● وتقول النظرية المصرية انه في البدء كان خضم المحيط الأزلى « نون » وانبتق منه الإله « أتوم » الذى خلق نفسه بنفسه ثم خلق كل شىء بدءاً بالسموات والأرض . ومن الغريب أن اسم « أتوم » هذا قد أطلق في اللغات الأجنبية على « الذرة » وهى أصل كل شىء . . . وكان اسمه في اللغة الأجنبية المصرية القديمة ينطق بكلمة « تم » [ومعناها التمام أو الكمال أو الاكتمال - كما أن معناها في اللغة العربية اكتمل] . أما كلمة « أتوم » فهى تصحيف للاسم المصرى القديم . وتقول النظرية أيضاً أن « أتوم » هو أصل الجنس البشرى ، ويشير بعض العلماء المفسرين إلى التقارب بين كلمتى « أتوم » و « آدم » .

● ولم تفقد مدينة « أون » [عين شمس] أهميتها العلمية بعد أن زالت أهميتها السياسية كأول عاصمة لمصر الموحدة في عصور ما قبل التاريخ ، وبعد أن تفككت هذه الوحدة وعادت مملكة الوجه البحرى إلى عاصمتها « بوتو » [تل الفراعين حالياً] وعادت مملكة الوجه القبلى إلى عاصمتها القديمة في المدينتين المتقابلتين على ضفتى النيل « نخب » و « نخن » [الكاب والكوم الأحمر حالياً] . . . وظلت المدينة محتفظة بدورها العلمى والحضارى طوال العصور التاريخية التى مرت على مصر على مدى آلاف السنين حتى العصر اليونانى الرومانى حين أطلق عليها اسم « هليوبوليس » .

أمجاد مصرية .. في عين شمس القديمة

ذكرنا أن مدينة أون [عين شمس حالياً] كانت أول عاصمة اتخذتها مصر الموحدة في عصور ما قبل التاريخ ، وأشرنا إلى أنها كانت تتبوأ مركزاً دينياً رفيعاً ، كما كانت مركزاً تعليمياً للحكمة والفلسفة والفلك وتنظيم العقائد الدينية .

● وظلت هذه المدينة محتفظة بتلك المكانة العالية بين المدن المصرية طوال حقبات التاريخ القديم بأكملها . وبالرغم من قلة الآثار التي عثر عليها أو تم اكتشافها في منطقة « عين شمس » إلا أن باستطاعتنا أن نستكمل المعلومات عن هذه المدينة العظيمة مما ورد في التسجيلات المكتوبة على الآثار التي تركها ملوك وفراعنة مصر في العصور التاريخية المختلفة ، أو بالمعلومات التي ذكرها عديد من المؤرخين القدماء من الأجانب والعرب .

● تدل المدونات الهيروجليفية القديمة على أن « كبير كهنة مدينة أون » كان لقباً يدل على مكانة رفيعة على أعلى مستوى دينى وديوى ، فقد لقب به الوزير « إيمحوتب » وزير الملك « زوسر » [حوالى عام ٢٩٨٠ ق م] ، وهو أول معمارى عبقرى فى تاريخ الحضارة الانسانية ، وهو الطبيب العظيم الذى اعتبره القدماء - من المصريين والأجانب - إلهاً للطب ، وهو المهندس الذى أشرف على تصميم وبناء الهرم المدرج بسقارة الذى يعتبر أول بناء حجرى بهذه الضخامة فى تاريخ الانسان على الأرض .

● كان المصريون القدماء يلقبون كبير كهنة أون بألقاب « كبير العرافين الفلكيين » و « الرائي الأعظم » و « الناظر إلى السماء » وذلك باعتباره على رأس الفلكيين الذين كانوا يرصدون مسارات النجوم فى السماء ويضبطون التقويم لقياس الزمن وحساب السنوات والشهور والأيام .

● ومن الثابت تاريخياً أن ملوك الأسرة الخامسة المعروفين باسم « ملوك الشمس » هم الذين جعلوا عبادة الشمس « رع » ديانة رسمية للدولة المصرية . وتدل الشواهد الأثرية على أن الملك « أوسر - كاف » أول ملوك هذه الأسرة كان كبير كهنة مدينة أون ، وتولى عرش مصر بعد الملكة « خنت كاوس » وكانت آخر من حكم مصر من ملوك الأسرة الرابعة .

● وتدل بعض المدونات الأثرية أيضاً على أن مدينة أون كانت مركز القضاء والقانون في مصر القديمة . وكان بها قصر عظيم يعيش فيه صاحب أكبر منصب قضائي في البلاد ، وكان اسمه « قصر القاضى » . كما كان بها قصر آخر يسمى « القصر الكبير » كان يعيش فيه حاكم الإقليم أو ينزل به الفرعون عندما يقوم بزيارة المنطقة ، بالإضافة إلى عدد كبير من قصور النبلاء وعلية القوم ، وإلى مجموعة كبيرة من المعابد الضخمة وبيوت الأهالي ، والجبانات والمدافن ، خصوصاً في منطقة تل الحصن بالقرب من المطرية . ويقول علماء الآثار أن هناك آثاراً كثيرة مازالت مدفونة تحت المباني والمنشآت الحديثة وبيوت الأهالي في منطقتي عين شمس والمطرية وما حولهما .

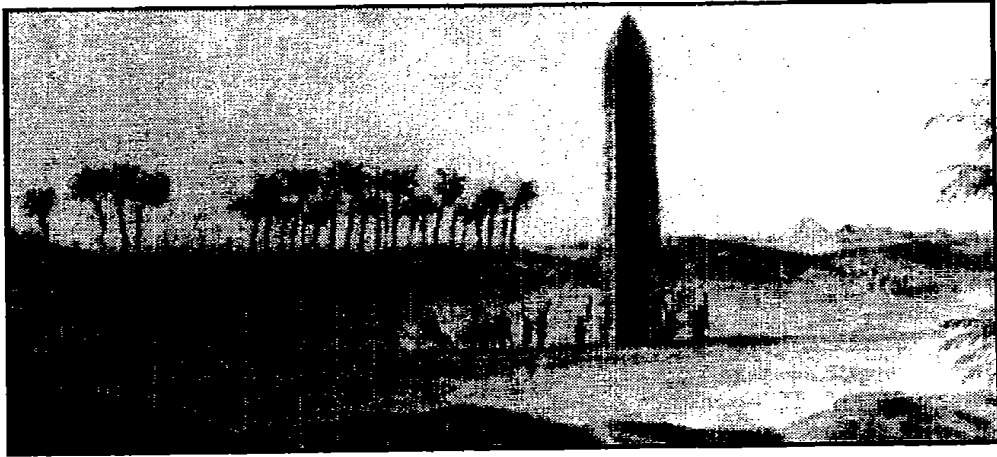
● كما أن آثاراً كثيرة قد نهبت في عصر قياصرة روما الذين حكموا مصر خلال العصر الروماني ، خصوصاً بالنسبة للمسلات التي كانت مقامة في ساحات المعابد وعند مداخلها . كما نهبت معظم المقابر بكل ما كانت تحتويه من كنوز وقطع أثرية . وتدل الشواهد على أن بقايا جدران المعابد والقصور القديمة في منطقتي عين شمس والمطرية قد استخدمها الأهالي كمحجر لتوريد القطع الحجرية التي استخدمت في مباني ومنشآت مدينة القاهرة الفاطمية عند بداية انشائها في القرن العاشر الميلادي .

● وللأسف الشديد فقد زالت جميع هذه الآثار العظيمة واندثرت - أو دفنت تحت الأرض كما يقول بعض علماء الآثار - ولم يعد باقياً منها سوى « مسلة عين شمس » وهي إحدى المسلات العديدة التي أقامها ملوك وفراعنة الدولتين الوسطى والحديثة في تاريخ مصر القديم . وهذه المسلة الباقية حتى الآن بناها الملك « سنوسرت الأول » وهو من ملوك الأسرة الثانية عشرة في القرن العشرين قبل الميلاد . وهي قطعة واحدة من

الجرانيت الوردى ترتفع نحو ٤, ٢٠ متراً ، ويبلغ وزنها نحو ١٢١ طناً .

● ومن الآثار ذات الطابع الدينى التى مازالت قائمة حتى الآن « شجرة مريم » وهى الشجرة التى يقال أن العذراء مريم قد استظلت بظلها حين وصلت إلى مصر ومعها السيد المسيح عليه السلام حين كان طفلاً ، بالإضافة إلى « البئر المبارك » الذى حفره المسيح عليه السلام بيديه المباركتين حين ذهبت أمه العذراء مريم للبحث عن ماء .

● ومن هذا النبع المبارك شرب المسيح والعذراء ، وقامت العذراء بغسل ثياب المسيح وألقت ماء الغسيل على الأرض فنبت فيها نبات البلسم المعروف باسم « شجر البلسان » وكان زيتة العطرى يستخدم فى تكريس ماء التعميد وتدشين الكنائس وعلاج كثير من الأمراض والحروق والبواسير . ويقول بعض المؤرخين العرب أن هذا النبات لا تصلح زراعته إلا فى هذه المنطقة من أرض مصر ولا ينبت فى أية جهة أخرى ، وأن سلاطين المماليك كانوا يهتمون بزراعته ويصدرون زيتة أو يهدونه لملوك الفرنج وبطريك الأقباط .



رسم بالألوان المائية يرجع تاريخه إلى عام ١٨٠٠ م من أعمال الفنان الألماني « لويجي ماير » للمسلة المصرية ، وهى إحدى بقايا آثار عين شمس { مدينة أون القديمة } .

عين شمس .. وأقدم تقويم شمسي في العالم !

حرصت المجتمعات الانسانية في عصور ما قبل التاريخ على معرفة كيفية حساب الزمن . واهتدت تلك المجتمعات بصفة عامة إلى اتخاذ القمر وسيلة لهذا الحساب ، فالقمر يمر بدورة منتظمة من الممكن تتبعها بسهولة ، فهو يبدأ هلالاً ويظل يكبر حتى يكتمل بدرأ ، ثم يأخذ في التناقص حتى يدخل المحاق ويختفى ، ثم يعود إلى الظهور في شكل هلال جديد .

● وهكذا بدأ المصريون الأوائل في عصور ما قبل التاريخ يعتمدون على القمر في تحديد بداية ونهاية الشهر القمري الذي جعلوه وحدة لحساب الزمن .

● وبالنظر إلى أن حياة المصريين الأوائل في عصور ما قبل التاريخ كانت مرتبطة تمامًا بالزراعة والدورة الزراعية ، فقد لاحظوا أن الشهور القمرية مختلفة الطول ما بين ٢٩ ؛ ٣٠ يومًا ، وبالتالي فهي ليست دقيقة ولا تصلح إطلاقاً في تحديد الدورة الزراعية ولا ضبط مواعيد مواسم الزراعة من فيضان وحرث وبذار وحصاد .

● وقد ذكرنا من قبل أن مدينة « أون » [عين شمس] كانت عاصمة مصر الأولى في عصور ما قبل التاريخ ، وكان كهنتها مشهورين برصد الشمس والنجوم مع تدوين نتائج الرصد بصفة منتظمة ، ولذلك فمن المقطوع به بصفة نهائية أن كهنة وعلماء عين شمس هم الذين وضعوا - في عصور ما قبل التاريخ - أول وأدق « تقويم شمسي » في العالم .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن المصريين الأوائل والمصريين القدماء كانوا على معرفة تامة برصد النجم « سوتيس » المعروف باسم « الشَّعْرَى اليانبة » . . واهتموا برصد ظاهرة اقتران شروق هذا النجم بشروق الشمس كل سنة . . وبدأوا حساب

السنين عندما حدث هذا الاقتران في أول شهر « توت » . . وهو اليوم الذى حددوه كأول يوم لبداية السنة المصرية .

● وهكذا ابتدع هؤلاء الفلكيون المصريون الأوائل فكرة حساب السنين ، على أساس ان السنة تتكون من ٣٦٥ يومًا ، مقسمة إلى ١٢ شهراً متساويًا ، ويتكون كل شهر من ٣٠ يومًا ، وجعلوا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد قومية وشعبية يبدأ بعدها عام جديد .

● وقسموا السنة الشمسية المصرية إلى ثلاثة فصول تتناسب مع الدورة الزراعية ، وهى فصول الفيضان والشتاء والصيف . . ويتكون كل فصل من أربعة شهور . . كما قسموا كل شهر إلى ثلاثة أقسام متساوية يتكون كل قسم منها من ١٠ أيام « أعشور » . . وتتميز هذه الأقسام بأنها مضبوطة ومتساوية ، ولا يتعدى القسم الأخير منها على الشهر التالى ، مثلما يحدث فى الأخذ بنظام الأسابيع حيث يتكون كل أسبوع من ٧ أيام ، وقد تتداخل هذه الأسابيع فى الشهور ، فتبدأ أيام الأسبوع الأخير فى شهر ، وتنتهى فى الشهر التالى كما يحدث حاليًا .

● وابتدع هؤلاء الفلكيون المصريون الأوائل أيضا فكرة تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة متساوية تبدأ من منتصف الليل إلى منتصف الليل الذى يليه . وقسموا هذه الساعات إلى قسمين : ١٢ ساعة ليل و ١٢ ساعة للنهار .

● ولكن بالنظر إلى أن فترة السنة بالقياس الزمنى الفلكى تساوى ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، فقد كان لابد من إضافة يوم سادس إلى أيام الأعياد الخمسة كل أربعة أعوام . وذلك حتى ينتظم رصد اقتران شروق الشعرى اليبانية بشروق الشمس . وقد لاحظ الفلكيون المصريون الأوائل أن هذا التقويم الشمسى الذى ابتدعوه يعدل نفسه بنفسه كل ١٤٦١ سنة .

● وبدراسة وتحليل المدونات الأثرية والإرصادات المكتوبة فى البرديات أو على جدران المعابد القديمة ، تمكن علماء الآثار والفلكيون المحدثون من تتبع حدوث ظاهرة اقتران شروق الشعرى اليبانية بشروق الشمس فى أول شهر توت مع ظهور أول تباشير

فيضان النيل بمنطقة أسوان ، وحددوا تاريخ حدوث هذه الظاهرة لأول مرة في التقويم الميلادي المعمول به حاليًا وذلك في سنة ١٣٩ ميلادية . وبذلك أصبح من السهل عليهم تحديد التاريخ الذي ابتكر فيه المصريون الأوائل فكرة التقويم الشمسي على أساس تكرار حدوث هذه الظاهرة في عام ١٣٢١ ق م ، وفي عام ٢٧٨١ ق م ، وفي عام ٤٢٤١ ق م . . وهو العام الذي حدده العلماء لبداية التقويم الشمسي المصري . . بينما يقول علماء آخرون أن هذا التقويم المصري بدأ عام « ٥٧٠١ قبل الميلاد » وهو أول تقويم شمسي عرفه الانسان .



أداة لقياس ومراقبة تتبع مسار النجوم والكواكب
مصنوعة من جريد النخيل .

مصر علمت العالم حساب الأيام والسنين !

في عصور ما قبل التاريخ ، وبعد أن ابتدع كهنة عين شمس التقويم الشمسى ، وقسموا السنة إلى ٣٦٥ يوماً ، بواقع ١٢ شهراً يتكون كل شهر من ٣٠ يوماً مع اضافة خمسة أيام أعياد بعد نهاية الشهر الثانى عشر وقبل بداية السنة الجديدة ، انتظمت مواعيد المواسم الزراعية ، ولكن إلى حين .

● ولأن السنة الشمسية طبقا للحساب الفلكى الدقيق تتكون من ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، فلم يعد اقتران شروق الشُّعْرَى اليمانية وشروق الشمس يحدث مع بداية تباشير الفيضان في أول شهر توت . وذلك بسبب حدوث فارق قدره يوم واحد كل ٤ سنوات ، وحدث فارق ١٠ أيام كل ٤٠ سنة ، و٣٠ يوماً كل ١٢٠ سنة وهكذا . . وبطبيعة الحال فإن هذه الفوارق تؤدى حتماً إلى اختلال حساب تواريخ الدورة الزراعية . ومع ذلك فقد كان هذا التقويم الشمسى المصرى يصحح نفسه بنفسه كلما مرت ١٤٦١ سنة فيعود اقتران شروق الشعرى اليمانية وشروق الشمس مع وصول تباشير الفيضان إلى اسوان في أول شهر توت .

● ويؤكد علماء الآثار المصرية والفلكيون المحدثون أن الكهنة المصريين ورجال الحكومة والدولة القدماء كانوا يعدلون التقويم الشمسى المصرى ويصححونه بطريقة تزيل هذا الاختلال في حساب التواريخ . ومعنى ذلك أنهم كانوا يدركون أن السنة الشمسية الدقيقة تساوى ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، فيعدلون حساب السنين على هذا الأساس .

● غير أن المصريين الأوائل الذين ابتدعوا هذا التقويم الشمسى في عصور ما قبل التاريخ لم يجعلوا للسنين أرقاماً متسلسلة - كما هو حادث الآن في التقويم الميلادى - بل

كانوا يجددون التواريخ بطريقة أخرى ، فيقولون مثلاً « حدث في السنة التاسعة في الشهر الثاني من فصل الفيضان فى اليوم الرابع والعشرين من حكم الملك / فلان . . . » .

● وبالرغم من هذه الصعوبة فى تحديد التواريخ وتسلسل السنين ، فقد تمكن علماء الآثار والفلكيون المحدثون من حساب سنوات التاريخ المصرى القديم بطريقة حسابية فى غاية السهولة ، وذلك اعتماداً على ما دونه المصريون القدماء من تسجيلات كثيرة جداً لارصاداتهم لظاهرة اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس . وعلى سبيل المثال إذا دون القدماء هذا التاريخ مقروناً برصدهم للشعرى اليمانية بأن يذكروا أن شروق هذا النجم اقترن بشروق الشمس فى اليوم السادس عشر من شهر برمودة [أى ليس فى أول شهر توت] فيمكن عندئذ إجراء الحسابات الفلكية بطريقة فى غاية اليسر تؤدى إلى تحديد تاريخ هذا الحدث فى إحدى السنوات الأربع الواقعة بين سنتى ١٨٨٢ - ١٨٧٩ قبل الميلاد .

● ويقول « برستيد » أن التقويم الشمسى الذى ابتدعه المصريون الأوائل فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، ظل مستخدماً لفترة تزيد عن ٦٠٠٠ سنة حتى الآن ، وهذا التقويم المصرى هو الأساس الذى يقوم عليه التقويم الميلادى المستعمل الآن فى جميع أنحاء العالم .

● وأدخلت على التقويم المصرى بعض التعديلات والتصحيحات الطفيفة جداً على مدى آلاف السنين منذ أن وضعت قواعده وحتى الآن . . . ففى سنة ٢٣٨ قبل الميلاد ، ومن مدينة الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الزمن ، أصدر « بطلميوس الثالث » أمراً ملكياً يسمى « الأمر الكانوبى » قرر فيه إضافة يوم كل أربع سنوات إلى أيام الأعياد الخمسة فى نهاية السنة المصرية . وفى ذلك العصر أيضاً توصل العلماء المصريون القدماء إلى فكرة تقسيم « الساعة » إلى ٦٠ دقيقة . ويلاحظ أن التعديل الذى قرره « بطلميوس الثالث » ليس جديداً ولم يكن تعديلاً بالمعنى المفهوم ، لأنه كان

مجرد تنفيذ لعرف قديم حين كان الكهنة المصريون يعدلون التقويم في الازمان القديمة ولكن بطرق مختلفة .

● وحين حضر « يوليوس قيصر » إلى مصر سنة ٤٧ قبل الميلاد ، أعجب بدقة التقويم الشمسى المصرى ، وحين عاد إلى روما - التي كانت تستعمل التقويم القمري - أمر بتغيير هذا التقويم ، واتباع التقويم المصرى بكافة قواعده ، مع فكرة إضافة يوم سادس إلى الأيام الـ ٣٦٠ كل أربع سنوات . وفي روما سميت السنوات الثلاث الأولى سنوات بسيطة وسميت السنة الرابعة سنة كبيسة . . وسمى هذا التقويم الرومانى باسم « التقويم اليوليانى » .

● وظل التقويم الشمسى المصرى معمولاً في كافة أنحاء أوربا خلال العصور الوسطى ، وأخذ به العالم الفلكى الشهير « كوبرنيكوس » .

● وبالنظر إلى أن الحسابات الفلكية الدقيقة تدل على أن الدوران السنوى لكوكب الأرض حول الشمس يستغرق بالضبط ٣٦٥ يوماً + ٥ ساعات + ٤٨ دقيقة + ٤٦ ثانية . . أى أن فارق الربع يوم لم يكن ست ساعات بالضبط ، وإنما تنقصه ١١ دقيقة و ١٤ ثانية . وقد تراكمت هذه الدقائق والثوانى حتى سنة ١٥٨٢ ميلادية ، وأدى ذلك إلى حدوث « الاعتدال الربيعى » في ١١ مارس بدلاً من ٢١ مارس . ولذلك فقد أصدر البابا « جريجورى الثالث عشر » بابا روما قراراً بتصحيح هذا الفارق ، وأعلن أن السنين التى تقبل القسمة على « ٤ » تعتبر كبيسة ، وجعل بداية كل عام في أول يناير . وهذا « التقويم الجريجورى » هو نفسه التقويم الميلادى المستعمل حالياً مستمداً قواعده من التقويم المصرى القديم الذى ابتدعه كهنة عين شمس منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة .



التقويم القبطى عمره الحقيقى ٦٣٠٠ سنة !

حين وضع كهنة وعلماء عين شمس أسس وقواعد التقويم الشمسى المصرى فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، وضعوا فى الاعتبار المواعمة بين تقسيم أيام وشهور هذا التقويم وتقسيم مراحل الدورة الزراعية بدءاً من غمر الأرض بمياه الفيضان ثم الحرث والبذار والحصاد . وهكذا ارتبط التقويم الشمسى المصرى فى ذهن المصريين بأحوال الزراعة ومراحلها .

● وذاق الشعب المصرى الأمرين حين وقعت مصر تحت حكم الرومان وتعرضت البلاد إلى غطرسة وولاتهم وجنود وضباط جيوشهم . وفى عهد الامبراطور الرومانى «دقلديانوس» [بين عامى ٢٨٤ – ٣٠٥ الميلاديين] تعرض المسيحيون المصريون إلى عمليات وحشية من الاضطهاد والتقتيل ، خصوصاً فى سنة ٣٠٣ ميلادية وما بعدها . ولذلك فقد أطلق المسيحيون المصريون اسم « عصر الشهداء » على فترة حكم هذا الامبراطور الظالم المستبد .

● واعتباراً من بداية عصر الشهداء فى عام ٢٨٤ م ، بدأت الكنيسة المصرية عصرها ، وبدأت فى تطويع التقويم الشمسى المصرى للدخول إلى مرحلة جديدة سميت « التقويم القبطى » .

● وتبدأ السنة القبطية فى ١١ سبتمبر أو ١٢ سبتمبر [فى كل عام يسبق السنة الكبيسة فى التقويم الميلادى الحالى] . والتقويم القبطى ملتزم حرفياً بقواعد التقويم الشمسى المصرى القديم الذى وضع المصريون الأوائل أسسه فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد . وهو التقويم الذى يتبع الدورة الزراعية فى مصر .

● ومن المعروف تاريخياً أن المصريين القدماء أطلقوا أسماء محددة على الشهور بدلاً من الأرقام ، وذلك فى عصر الأسرة السادسة والعشرين [٦٦٤ – ٥٢٥ قبل الميلاد] .

وقد احتفظ التقويم القبطى بأقرب منطوق لأسماء الشهور المصرية القديمة طبقاً لقواعد النطق فى اللغة القبطية . كما ابتكر الفلاحون المصريون فى العصور اللاحقة أمثالاً شعبية ترتبط بكل شهر من هذه الشهور . وقد سميت هذه الشهور كما يلى :

● الشهر الأول « توت » ويقع فى شهرى سبتمبر واکتوبر الميلاديين . وترجع تسميته إلى الإله « تحوت » إله الحكمة والمعرفة والعلوم ، ويرمز إليه بالطائر المقدس « أبو منجل » الذى تظهر أسرابه فى أول السنة الزراعية ويتخذ الفلاحون بشيراً ببدء الزراعة . ويرتبط به مثل شعبى يقول « توت . . الكتكوت يأكل ويموت » وذلك لحدوث « شوطة » أو « فرة » تصيب الدواجن فى هذا الشهر بشكل وبائى ، فكان من اللازم تحذير المصريين بضرورة العناية بالدواجن التى يربونها وتوفير العلاج اللازم إذا مرضت .

● الشهر الثانى « بابه » ويقع فى شهرى اکتوبر ونوفمبر . وترجع تسميته إلى شهر « آبه » أو شهر عيد « أوبت » الذى كان يجرى الاحتفال به فى طيبة / الأقصر تمجيداً للإله آمون . ويرتبط به مثل شعبى يقول « بابه . . خش واقفل البوابه » . . ففى هذا الشهر يكون الفلاحون قد انتهوا من الحصاد وتصبح المخازن مملوءة بالحبوب ، فكان من اللازم تحذيرهم بضرورة غلق أبواب المخزن أو « الشونة » خوفاً على الحبوب المخزونة من اللصوص أو المعتدين .

● الشهر الثالث « هاتور » ويقع فى شهرى نوفمبر وديسمبر . وترجع تسميته إلى الإلهة « حتحور » إلهة الحب والخصب والجمال والرقص والموسيقى . ويرتبط به مثل شعبى يقول « هاتور . . أبو الذهب المنشور » وفيه يكتمل نضج حبوب الذرة التى تبدو كالذهب المنشور .

● الشهر الرابع « كهيك / أو كياك » ويقع فى شهرى ديسمبر ويناير . وترجع تسميته إلى الاسم المصرى القديم « كاها كا » ومعناه اجتماع أو تألف الأرواح ، حيث أن كلمة « كا » معناها الروح أو القرين . ويرتبط به مثل شعبى يقول « كياك . . صباحك

مساك تقوم من نومك تحضر عشاك « وذلك للدلالة على قصر طول النهار بالنسبة لطول الليل خلال ذروة فصل الشتاء .

● الشهر الخامس « طوبه » ويقع في شهرى يناير وفبراير . وترجع تسميته إلى كلمة « طوبيا » فى اللغة المصرية القديمة ومعناها الأعلى أو الأسمى ، كما كانت تطلق على إله المطر . ومن هذه الكلمة أيضا اشتق اسم مدينة طيبة / الأقصر . ويرتبط به مثل شعبى يقول « طوبه . . تخلى الصبية كركوبه » ففى هذا الشهر يشتد البرد فتكتمش الأجسام التماساً للدفء وتبدو الصبية كالمرأة العجوز . وكان القدماء يحتفلون فيه بعيد القمح ونمو الزراعة الشتوية وبداية توريق الأشجار .

● الشهر السادس « أمشير » ويقع فى شهرى فبراير ومارس . وترجع تسميته إلى اسم الإله « مشير » وهو إله مصرى قديم للرياح والعواصف . وفيه يشتد هبوب الهواء وتكثر العواصف . ويرتبط به مثلان شعبيان يقول أولهما « أمشير . . يقول للزرع سير سير » دلالة على بداية نمو ونضج المزروعات الشتوية . ويقول الثانى « أمشير . . أبو الزعابيب الكثير » حيث تكثر فيه الرياح .

● الشهر السابع « برمهاث » ويقع فى شهرى مارس وإبريل . وكان قدماء المصريين ينسبونه إلى الفرعون « أمنحتب » . وفيه ينضج الزرع وتنمو المحاصيل والثمار، ويبدأ فيه الفلاحون عملية الحصاد المبكر . ولذلك يرتبط به مثل شعبى يقول « برمهاث . . روح الغيط وهات » .

● الشهر الثامن « برمودة » ويقع فى شهرى إبريل ومايو . وترجع تسميته إلى اسم الإلهة « رنوده » إلهة الحصاد عند قدماء المصريين والتي كانوا يرمزون إليها بالحية المقدسة . ويرتبط به مثل شعبى يقول « برمودة . . دقوا الشعير بالعموده . . ولا يبقى فى الغيط ولاعوده » وذلك لأن الفلاحين يكونون قد انتهوا من جمع وحصاد محصول الشعير وتهاؤا لدقه بالعامود الذى كان يستخدم قديماً فى عملية طحنه .

● الشهر التاسع « بشنس » ويقع فى شهرى مايو ويونيو . وترجع تسميته إلى الإسم المصرى القديم « بن خنسو » أى شهر الإله خنسو إله القمر . ويرتبط به مثل شعبى يقول « بشنس . . اكنس البيت كنس » وذلك لأن الفلاحين يكونون قد تخلصوا من

المحصول أو تصرفوا فيه ، فمن الواجب عندئذ كنس وتنظيف البيت أو الشونة من بقاياها استعداداً لاستقبال المحصول التالى .

● الشهر العاشر « بؤونه » ويقع فى شهرى يونيو ويوليو . وترجع تسميته إلى اسم « با أونى » أى وادى الحجارة بالقرب من مدينة طيبة / الأقصر . ويرتبط به مثل شعبى يقول « بؤونه الحجر » للدلالة على شدة حرارة الجو التى تؤثر فى الحجر . وكان اليوم الحادى عشر من شهر بؤونه يسمى يوم « نزول النقطة » وتميل فيه مياه النيل إلى الاخضرار مبشرة بأول فصل الفيضان . وهناك اسطورة مصرية قديمة تقول أن « النقطة » هى أول قطرة من الدموع تنزل فى النيل من عينى « إيزيس » حزناً على مصير زوجها الشهيد « أوزيريس » فتبدأ مياه النيل فى الزيادة والفيضان .

● الشهر الحادى عشر « أيبب » ويقع فى شهرى يوليو وأغسطس . وترجع تسميته إلى اسم الإلهة « أيببى » التى ترمز إلى الفرحة بانتصار الخير على الشر بانتقام « حورس » لأبيه « أوزيريس » من عدوه « ست » . ويرتبط به مثلاً شعبيان يقول أولهما « اللى ياكل ملوخية فى أيبب يجيب لبطنه طيبب » وذلك لأن أعواد الملوخية الخضراء المزروعة فى الغيط تكون قصيرة فى هذا الوقت من السنة ، ومن ثم تكون مختلطة ببعض الأنواع من الأعشاب الضارة فيتسبب أكلها فى وجع البطن . أما المثل الشعبى الثانى فيقول « أيبب . . طباخ العنب والتين » دلالة على نضج هذه الثمار خلال هذا الشهر .

● الشهر الثانى عشر « مسرى » ويقع فى شهرى أغسطس وسبتمبر . وترجع تسميته إلى « مس رع » بمعنى ابن أو وليد رع إله الشمس . وفيه تزداد حرارة الشمس وتزداد مياه النيل . ويرتبط به مثل شعبى يقول « فى مسرى . . تجرى كل ترعه عسره » وذلك تعبيراً عن الفرحة بامتلاء كل الترع من وفرة مياه الفيضان بعد أن كانت شرقانة أو قليلة المياه . ومن الطريف أن نذكر أن الاسم المصرى القديم للترعة هو « اتروعا » معناه القناة الكبيرة ، ومن المؤكد أن الاسم العربى قد اشتق من اللغة المصرية القديمة .

● ومن هذا يتضح لنا كيف ارتبط التقويم القبطى بالتقويم الشمسى المصرى القديم . . ولا غرابة إذن أن نقول أن التقويم القبطى وإن كان قد بدأ سنة ٢٨٤ ميلادية ، إلا أن عمره الحقيقى يقترب من ٦٣٠٠ سنة حين وضع كهنة وعلماء « عين شمس » أسس وقواعد أول تقويم شمسى فى تاريخ الانسان على الأرض .

البحرية المصرية في عصور ما قبل التاريخ

مازلنا نتحدث عن المصريين الأوائل الذين استوطنوا وادي النيل في الوجهين البحري والقبلي قبل أن تتوحد مصر في دولة واحدة ، وأثناء العصور الغارقة في القدم والتي يطلق عليها العلماء « عصور ما قبل التاريخ » .

● ومن الحقائق المؤكدة تاريخياً أن النيل من أسباب عمران مصر ومدنيتها وحضارتها . . وهو الذى أتاح للمصريين الأوائل سبل الحياة على ضفافه وقرب شاطئيه في تجمعات سكانية وقرى وأقاليم متجاورة متقاربة ، تبدو كلها كما لو كانت مدينة واحدة عجيبة الشكل . . مدينة مستطيلة باستطالة مجرى النيل في واديه الخصيب . . تتلوى مع انحناءات الوادى فى ربوع الصحارى المحيطة بشاطئيه من أقصى الجنوب عند الجندل الأول حتى أقصى الشمال عند سواحل البحر الأخضر العظيم . . وهو الاسم الذى كان يطلقه قدماء المصريين على البحر المتوسط .

● كان النيل هو الشريان الحى الذى يربط بين وجهى مصر من دانيها إلى قاصيها ، ولذلك فقد كان لزاماً على المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن يبتكروا وسيلة لعبور النيل من شاطئ إلى شاطئ ، أو ليرتحلوا على صفحته من الجنوب إلى الشمال أو العكس كلما رأوا لهذا الترحال سبباً .

● وكانت المادة الأولية التى صنع منها المصريون الأوائل تلك الوسيلة هى نبات البردى الذى كان ينبت بكثافة شديدة على شطآن النيل وجزره وأحراشه . هذا النبات العظيم المبارك الذى كانت له أعظم الأفضال على الحضارة المصرية القديمة بأسرها . . فمن أعواده اتخذ المصريون القدماء بيوتاً وسقوفاً ، ومن أليافه جدلوا حبلاً وصنعوا نعالاً . . ومن أوراقه وسيقانه صنعوا أوراقاً وصحائف رقاقاً ، كتبوا عليها كل ما كانوا

يعلمونه من علوم الدين والدنيا ، تاريخًا وحسابًا وهندسة وطبًا وفلكًا وأدبًا . . وفضلا عن ذلك كله صنعوا من سيقان هذا النبات وسيلتهم العملية لعبور النهر بين شاطئيه والرحيل بين ضفافه .

● في بداية الأمر صنعوا هذه الوسيلة على شكل رمث أو « طوف » أو على شكل قارب مفلطح ، يبنى من سيقان البردى المجدولة في بعضها ، أو المحزومة مع بعضها في شكل حزم قائمة بذاتها ، ثم « تربط » هذه الحزم ببعضها بطريقة تجعلها تأخذ الشكل الانسيابي للمركب المائي المناسب للغرض الذى بنى من أجله ، ويتميز في الوقت نفسه بخصائص الفن المصرى القديم ، وهو فن له طابع عملى من حيث التصميم الهندسى والشكل العام .

● وقد استخدمت هذه الرموش والأطواف والقوارب والمراكب البدائية المصنوعة من حزم البردى المربوطة ببعضها بالحبال بأعداد كبيرة جدا في عصور ما قبل التاريخ . . استخدمت كوسيلة عملية مثلى في الانتقال على صفحة النيل وفي أحراش مستنقعاته . . واستخدمت في عمليات صيد الأسماك والطيور ، واعتمد عليها الفلاحون والصيادون والرعاة كوسيلة للممارسة حرفهم ومهنتهم المختلفة ، كما استخدمت بكثرة كوسيلة لعلية القوم في ممارسة الرياضة وقضاء الوقت في نزعات صيد الأسماك والطيور المائية ، وسجلوا ذلك في آلاف المناظر والنقوش التى زينوا بها جدران مقابرهم .

● كذلك فقد أدرك المصريون الأوائل في عصور ما قبل التاريخ أن الخشب أكثر صلاحية من سيقان البردى في صناعة القوارب والمراكب والسفن ، فخطوا تلك الخطوة الحضارية الجبارة ، وبدأوا في استخدام الخشب كمادة أولية في تلك الصناعة .

● وبطبيعة الحال فقد كانت مصر من الأقطار الفقيرة في الأشجار الضخمة التى تصلح لاستخراج الألواح والقوائم والعوارض اللازمة لصناعة المراكب أو السفن الكبيرة ، ومع ذلك فقد اعتمد المصريون الأوائل في صناعة ما كانوا يحتاجونه من قوارب ومراكب وسفن خشبية صغيرة ومتوسطة على ما كان متاحًا في مصر من أخشاب الأشجار المحلية ، مثل أشجار الجميز والسنتط واللبخ والصفصاف والتين .

● وهذه الأشجار كلها محدودة النفع في نجارة السفن وبنائها ، فأخشابها إما خشنة أو جافة قصيرة القطع أو ملتوية ، وتحتاج إلى كثير من الجهد لتهديبها واختيار القطع المناسبة التى يمكن استخدامها ، ولهذا فقد كان لزاماً على المصريين الأوائل أن يستوردوا أنواع الأخشاب الجيدة من الخارج . . فكيف تم لهم ذلك . . ؟ ! .



استخدام القوارب الخفيفة المصنوعة من سيقان البردى فى رياضة صيد الأسماك والطيور فى أحراش النيل .

حين خرج المصريون الأوائل إلى البحر

صنع المصريون الأوائل في عصور ما قبل التاريخ قواربهم وسفنهم من نبات البردى الذى كان ينمو بكثافة شديدة على ضفاف النيل وفي أحراشه ، واستخدموها فى التنقل بين شاطئى النيل وعلى طول مجراه المصرى .

● وتدل العديد من الشواهد الأثرية على أن هؤلاء المصريين الأوائل قد استخدموا الأخشاب المحلية أيضا فى صناعة بناء السفن الكبيرة والمتوسطة . ولأن مصر تعتبر من البلاد الفقيرة فى الثروة الخشبية فقد كانوا يحتاجون إلى أنواع أخرى من الأخشاب أكثر جودة وملاءمة لصناعة السفن الأكبر حجماً ، حيث يحتاج الأمر إلى استخدام ألواح ضخمة يسهل تجهيزها بعد استخراجها من الأشجار ذات الجذوع الضخمة والسيقان الطويلة المستقيمة حتى يمكن استخدامها فى عمل القوائم والعوارض والصواري عند بناء وتشيد السفن القادرة على الملاحة فى البحرين الأحمر والمتوسط .

● وتدل هذه الشواهد الأثرية على أن المصريين الأوائل منذ أكثر من ستة آلاف سنة ، استوردوا الأخشاب اللازمة لصناعة تلك السفن من خارج الديار المصرية ، وعلى الأخص من مناطق غرب آسيا فى السواحل اللبنانية والسورية ومناطق آسيا الصغرى .

● وفى ذلك الزمن أيضا ابتدع المصريون الأوائل طريقة بسيطة للتحكم فى « إقامة الصارى » عندما كانوا يحتاجونه لنشر الشراع ، أو « إمالة الصارى » حين كانوا يتحولون من عملية الإبحار بالشراع إلى عملية الإبحار وتسيير السفن بالمجاديف .

● وابتدعوا أيضا جهازاً للتحكم فى توجيه المركب أو السفينة من الخلف . ويتكون هذا الجهاز من « عمود الدفة » الذى كان يقام بمؤخرة المركب ، ويتم تحريك « مجداف الدفة » بواسطة ذراع مربوطة بهذا المجداف ومربوطة أيضا بأعلى عمود الدفة . وهذه

الذراع يمكن تحريكها إلى الجانبين يمينًا أو يسارًا ، بحيث يتم تعديل طرف مجداف الدفة لتوجيه المركب أو السفينة حسب المسار المطلوب .

● وفي عصور ما قبل التاريخ أيضا تمكن المصريون الأوائل من بناء المراكب والسفن بكافة أنواعها ، النهرية منها والبحرية ، وما صنع منها من نبات البردى وما صنع من الأخشاب ، وما يتم تسييرها بالمجاديف المتعددة التي تصل في بعض الأحيان إلى أكثر من أربعين مجدافا ، وما يتم تسييرها باستخدام الشراع . ويؤكد المؤرخون على أن المراكب والسفن ذات الشراع ظهرت في الحضارة المصرية قبل ظهورها بمئات السنين في أية حضارة أخرى من حضارات العالم القديم المعاصرة لها أثناء عصور ما قبل التاريخ .

● وبالرغم من أن المصريين معروفون منذ أقدم الأزمنة بأنهم ليسوا من شعوب البحر، أى من الشعوب التي تضع البحر في أقصى اهتماماتها ، فقد أثبت كثيرون من المؤرخين وعلماء الآثار أن المصريين الأوائل قد خرجوا إلى البحرين الأحمر والمتوسط في عصور ما قبل التاريخ . وكان دليلهم في ذلك هو العثور على الكثير من القطع الأثرية التي يرجع تاريخها إلى تلك العصور ، والتي استخدمت في صناعتها مواد أو أحجار شبه كريمة لم يثبت وجودها بمصر ، مثل اللازورد وحجر الأوبسيديان والعاج .

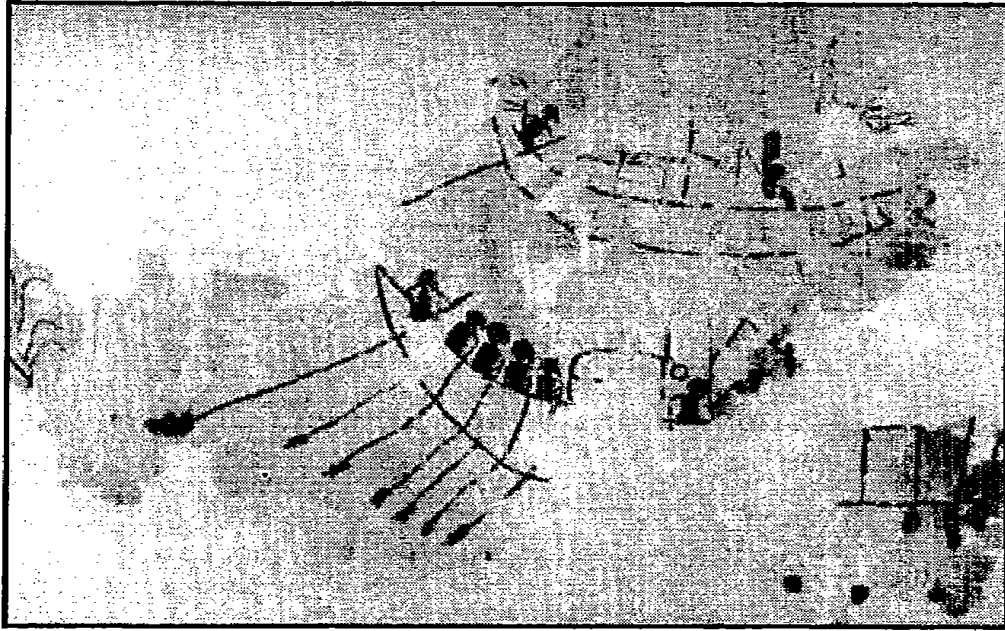
● وأثبتوا كذلك أن المصريين الأوائل في عصر ما قبل الأسرات [أى قبل عام ٣٢٠٠ ق م] قد اهتموا باستيراد الزجاج الطبيعي والأحجار الكريمة وشبه الكريمة من خارج الديار المصرية . . وكانت لهم أيضا علاقات تجارية واسعة مع جزيرة « كريت » وغيرها من جزر البحر المتوسط والأقطار المجاورة لمصر ، وهى علاقات كان لها تأثير بالغ في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بمصر ، كما كانت تؤثر أيضا في أحوال القبائل والشعوب المجاورة .

● ومن آثار عصور ما قبل التاريخ بمصر التي عثر عليها في كل من الدلتا والصعيد « نماذج » كثيرة لقوارب ومراكب وسفن مصنوعة من الفخار . كما تميزت آثار حضارة عصر ما قبل الأسرات بصفة عامة بالعديد من مناظر السفن الكبيرة والصغيرة المرسومة بالألوان على أسطح الأواني الفخارية التي يرجع تاريخها إلى تلك العصور ، أو مرسومة

على جدران بعض المقابر أو محفورة على صخور الجبال المحيطة بوادي النيل أو ببعض جبال البحر الأحمر .

● وقد عثر على أثر نادر يرجع تاريخه إلى هذا العصر الغارق في القدم وهو عبارة عن قطعة من قماش الكتان عثر عليها في منطقة الجبلين [بالضفة الغربية للنيل بين أرمنت وإسنا] . . وقد استغرق ترميم هذه القطعة الأثرية النادرة نحو أربع سنوات وهي محفوظة حالياً بمتحف تورين . . وعلى قطعة القماش هذه رسم مطرز يمثل سفيتين كبيرتين ، ونرى على كل واحدة منهما كابيتين وعدداً كبيراً من المجدفين الذين يجدفون بمجاديف طويلة .

● ويقول بعض المؤرخين وعلماء الأجناس ان المصريين القدماء قد استطاعوا الإبحار إلى أمريكا على متن سفن مصنوعة من سيقان البردى . . فهل هذا صحيح؟! .



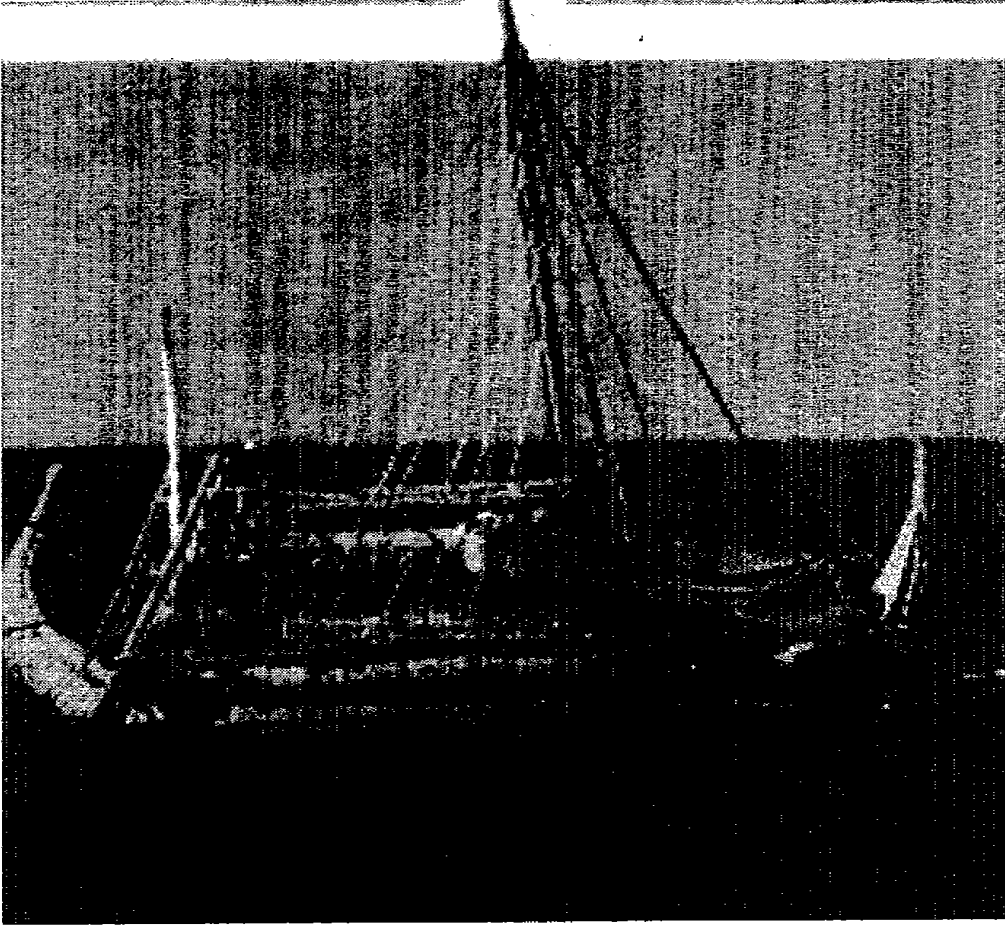
منظر مرسوم على قطعة من قماش الكتان ، يرجع تاريخه إلى عصور ما قبل التاريخ ،
يمثل سفيتين بحريتين من السفن ذات المجاديف المتعددة .

هل وصل قدماء المصريين إلى أمريكا .. !

لاحظ بعض علماء الأجناس الذين قاموا بدراسة آثار الحضارات الهندية القديمة في المكسيك ومناطق أخرى بأمريكا الجنوبية والتي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف سنة قبل الميلاد ، وجود بعض التشابه بين تلك الحضارات والحضارة المصرية القديمة ، خصوصاً من ناحية بناء المعابد الدينية في شكل معمارى يشبه الأهرام المصرية ، وبالذات في شكل الهرم المدرج ، بالإضافة إلى بعض التشابه في فن نحت الحجر والخشب وصناعة الحلى والمجوهرات .

● وبناء على الدراسات التي أجراها بعض هؤلاء العلماء ، ظهر افتراض - لم يثبت بشكل قاطع حتى الآن - بأن حضارات الهنود الحمر القدماء قد تأثرت بشكل أو بآخر بحضارة قدماء المصريين . ولكن هذا الافتراض العلمى كان يصطدم بمشكلة معرفة الكيفية التى وصل بها المصريون القدماء إلى أمريكا . . وكيف عبروا البحر المتوسط بطوله وعبروا المحيط الأطلنطى بعرضه حتى وصلوا إلى السواحل الأمريكية بالمكسيك ، وهل كانت لديهم سفن تصلح للقيام بتلك الرحلة الطويلة الصعبة . . ؟

● ومن أشهر آثار الهنود الحمر القدماء فى المكسيك معبد على شكل هرم يسمى «هرم الساحر» وهو مبنى على شكل مصاطب متدرجة فى الارتفاع ودرجة الميل ، وهو شكل يختلف عن شكل هرم زوسر المدرج بسقارة فضلاً عن الاختلاف فى الغرض من البناء والاختلاف فى الضخامة . . فالهرم المكسيكى الذى وجدت آثاره فى بقايا مدينة «أوكسال» القديمة قد بنى فى الأصل ليكون معبداً ، وكذا الحال بالنسبة لأهرام الهنود الحمر القدماء الأخرى التى بنيت لغرض دينى هو عبادة الشمس . . أما من ناحية الاختلاف فى مدى الضخامة ، فلا يزيد ارتفاع الهرم المكسيكى على ٢٥ متراً ، كما أن



المركب « رع » المصنوع من سيقان البردي والذي حاول به الترويجي « ثور هايردال »
عبور الاطلنطي ليثبت أن المصريين القدماء وصلوا إلى أمريكا يمثل هذا المركب .

قاعدته مختلفة عن شكل قواعد الأهرام المصرية ، فهي قاعدة مستطيلة وليست متساوية الأضلاع ، حيث يبلغ طولها ٧٣ متراً وعرضها ٥٥ متراً .

● وثمة نظرية لأحد علماء الأجناس المحدثين ، وهو العالم النرويجي « ثور هايردال » يقول فيها أن الحضارات القديمة اتصلت ببعضها نتيجة لرحلات بحرية قامت بها الشعوب القديمة عبر البحار والمحيطات ، وأن بحار العالم ومحيطاته كانت عاملاً في الانتشار الحضارى في الأزمنة القديمة ولم تكن عائفاً منيعاً أمام هذا الانتشار .

● وبناء على تلك النظرية ، حاول « ثور هايردال » إثبات امكانية وصول قدماء المصريين إلى شواطئ الأمريكتين قبل اكتشاف كل من « أميرجو » و « كريستوفر كولومبس » للأمريكتين بألاف السنين .

● وفي عام ١٩٦٩ ، قام هذا العالم النرويجي بالابحار على ظهر مركب أطلق عليه اسم « رع » مصنوع من سيقان نبات البردى - وهو النبات الذى كان المصريون الأوائل يصنعون منه مراكبهم وسفنهم منذ عصور ما قبل التاريخ .

● واشتركت معه في تلك المغامرة البحرية مجموعة صغيرة من البحارة ذوى الجنسيات المختلفة وبينهم مصرى . . وحاول هذا العالم عبور المحيط الأطلنطى من المغرب للوصول إلى أمريكا الوسطى على ظهر هذا المركب المصنوع من سيقان البردى .

● وكانت الرحلة شاقة جداً ، وأوشكت أن تتم لولا تعرض المركب « رع » إلى اعصار عنيف ، فتحطم في ظروف جوية في غاية السوء ، على بعد نحو ٦٠٠ ميل من السواحل الأمريكية .

● ومع ذلك فان هذا الفشل في الوصول إلى السواحل الأمريكية بعد أن قطع المركب « رع » هذه المسافة الطويلة عبر المحيط الأطلنطى لا ينفى من الناحية العلمية نظرية العالم النرويجي « ثور هايردال » في احتمال وصول قدماء المصريين إلى أمريكا خاصة في ضوء التشابه بين حضارة الهنود الحمر القدماء في المكسيك وبعض معالم الحضارة المصرية القديمة .

أول أسطول تجارى فى تاريخ العالم

اصطلح المؤرخون على اطلاق اسم « الدولة القديمة » على حقبة من التاريخ المصرى القديم تبدأ بعصر الأسرة الثالثة سنة ٢٧٨٠ ق م وتنتهى بنهاية عصر الأسرة السادسة سنة ٢٢٨٠ ق م .

● وهناك آلاف من الشواهد الأثرية تدل دلالة قاطعة على أن صناعة بناء السفن فى عصر الدولة القديمة قد بلغت مرحلة عالية من مراحل التطور . ويقول مؤرخون كثيرون أن المصريين القدماء الذين عاشوا فى ذلك العصر قد تفوقوا فى صناعة وبناء السفن النهرية والبحرية بدرجة لم يبلغها أى شعب من شعوب العالم القديم المعاصرين لهم ، بما فى ذلك الشعوب التى توصف بأنها شعوب بحرية تجعل البحر فى أعلى اهتماماتها الحيوية .

● وبما لا شك فيه أن هذا التطور الذى لحق بصناعة السفن الضخمة فى ذلك العصر المبكر من تاريخ مصر القديم ، كان نتيجة مباشرة للتطور الحضارى للشعب المصرى وتطور حاجياته الاجتماعية من دينية وديوية .

● فى ذلك العصر أصبح المصريون فى حاجة ماسة إلى بناء سفن كبيرة ضخمة قادرة على القيام برحلات طويلة وشاقة . . فبنوا اعداداً كبيرة من السفن النهرية القادرة على نقل أعداد كبيرة من المسافرين أو العمال ، أو نقل كميات ضخمة من الصخور الجرانيتية من محاجر أسوان إلى بقية الأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى ، أو نقل الأحجار الجيرية [المعروفة حالياً باسم الحجر السلطانى] من محاجر جبل المقطم بطرة وحلوان عبر النيل من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية .

● وفى ذلك العصر أيضاً قام المصريون القدماء ببناء سفن بحرية قادرة على مقاومة

هياج البحر وأمواجه وقادرة على حمل شحنة ضخمة من السلع ، لتمخر عباب البحر الأحمر ذهابًا إلى بلاد بونت لاستيراد ما يحتاجه المجتمع المصرى من العاج وخشب البنوس وجلود الفهود والنمور وسبائك الذهب والبخور والدهانات العطرية والقروود الحية والنسائيس وغير ذلك من محاصيل تلك البلاد الزراعية والحيوانية .

● ومن أقدم الأساطيل البحرية التجارية التى عرفها تاريخ العالم القديم ، ذلك الاسطول البحرى الضخم الذى أرسله الملك « سنفرو » إلى شواطئ لبنان لنقل اخشاب الصنوبر والأرز . وقبل أن نصف هذا الاسطول لابد أن نعرف شيئًا عن هذا الملك العظيم .

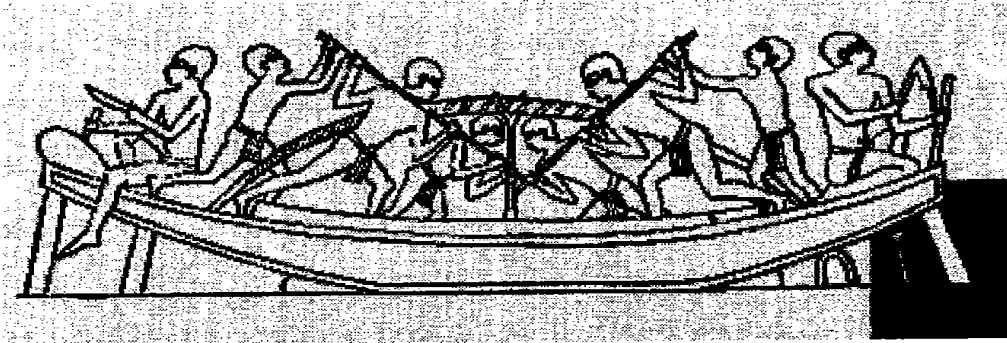
● هو أول ملوك الأسرة الرابعة ، ووالد الملك « خوفو » صاحب الهرم الأكبر . . . وحكم مصر لمدة تزيد على ٢٤ عامًا . ويربط علماء الآثار المصرية اسم سنفرو بأربعة أهرام من أهرام مصر هى : هرم ميدوم وهرما دهشور وهرم سيلا بالفيوم . وفى عصره أجرى أول إحصاء ثابت ومعروف لأعداد رؤوس الماشية فى الأقاليم المصرية ، كما نشطت الصناعات التعدينية خصوصًا فى مناطق سيناء للحصول على الفيروز وخام النحاس . وقد اقتضى هذا الرخاء الاقتصادى تجهيز القوات العسكرية اللازمة للمحافظة على أمن واستقرار البلاد . وقام بعدة حملات حربية تأديبية أرسلت إلى بلاد النوبة وبلاد الحدود الليبية .

● وعلى النصب التذكارى المعروف أثريا باسم « حجر باليرمو » دونت أسماء بعض ملوك مصر مرتبة تاريخيًا . وفى مقابل اسم الملك سنفرو باعتباره مؤسس الأسرة الرابعة كتب نص هيروجليفى يقول انه أرسل إلى الشواطئ اللبانية اسطولاً مكوناً من ٤٠ سفينة لتعود محملة إلى أقصى طاقاتها بخشب « عش » - وهو الاسم المصرى القديم لخشب الأرز - وبأنواع أخرى من الأخشاب مثل الصنوبر وخشب يسمى فى اللغة المصرية القديمة خشب « مر » وهو لا ينبت إلا فى مناطق السواحل الشرقية للبحر المتوسط .

● ويقول النص الهيروجليفى أيضًا أن طول كل سفينة من سفن هذا الأسطول كان

مائة ذراع مصرى قديم . وإذا عرفنا أن طول هذا الذراع المصرى كوحدة لقياس الأطوال يبلغ بالضبط ٥٢,٣ سم فمعنى ذلك أن طول السفينة كان ٥٢,٣ متراً .

● وتدل شواهد أثرية أخرى على بناء ٦٠ سفينة بحرية أخرى أقل حجماً وطولاً في عصر سنفرو . . وكانت هذه السفن جميعاً تطلقم بالبحارة والمجدفين وفي صحبتهم فصيلة من الجنود مهمتها حماية البعثة البحرية وحماية السفن من أية هجمات يقوم بها أهالى السواحل اللبانية أو لتكون من مظاهر السلطة المصرية .



رسم توضيحي منقول عن نقش أثري يبين كيفية بناء السفن والقوارب فى مصر القديمة .

أول سفن ناقلات للجنود في تاريخ العالم

من الآثار الكثيرة التى يرجع تاريخها إلى عصر « الدولة القديمة » [من ٢٧٨٠ ق م إلى ٢٢٨٠ ق م] نلاحظ كثرة تسجيل أوجه ومظاهر استخدامات المراكب والسفن بأنواعها وأحجامها المختلفة .

● ومن هذه التسجيلات المدونة بالهيروجليزية على جدران بعض المقابر والنصب التذكارية ، عرف المؤرخون أن صناعة بناء السفن وحرفة الملاحة النهرية والملاحة البحرية قد بلغت فى ذلك العصر شأواً عظيماً . . وأصبحت حرفة منظمة كغيرها من الحرف الراسخة التى اشتهرت بها مصر القديمة . . وظهر كثيرون من رجال الدولة الذين سجلوا أسماءهم وألقابهم التى تتعلق بحرفة وأعمال السفن النهرية والبحرية مثل : رئيس السفينة . . سيد السفينة . . قائد السفينة . . مفتش السفن . . حامل لواء تدريب المجدفين . . أمين صناعة السفن . . المشرف على بناء السفن . . إلى غير ذلك من الألقاب المماثلة الأخرى .

● كما ظهرت تخصصات للبحارة أطلقت عليها تسميات مثل : مجدفون عاديون . . مجدفون أول . . ملاحون . . عمال الشراع . . الخ . وكان لقب « وعو » فى اللغة المصرية القديمة يطلق على أولى مراتب العمل فى الجنديّة أو فى البحرية ، وهو يعادل لقب « نفر » فى اللغة العربية . . وكان لقب « نفو » يطلق على الرئيس . . ولقب « حرى » يطلق على الربان الذى يقود سفينة ضخمة . . ولقب « مر » يطلق على قائد الأسطول الذى يتكون من عدة سفن . . وبطبيعة الحال فقد كانت هذه الألقاب محل فخر لحاملها . وعلى سبيل المثال فقد تفاخر أحد أمراء البيت المالك فى عهد الملك خوفو ، وهو المدعو « مر - إيب » بأنه كان يتولى إمرة سفينتين ضخمتين هما : « روح الآلهة » و « نجمة مصر » .

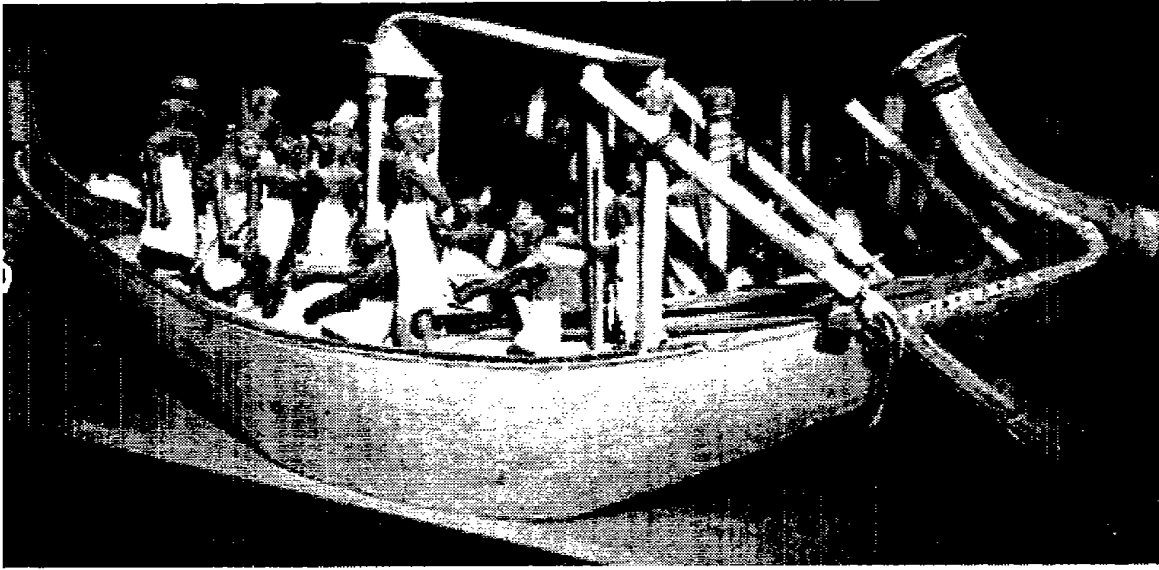
● ومن ضمن آثار عصر الدولة القديمة والتي يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة السادسة [من ٢٤٢٠ ق م إلى ٢٢٨٠ ق م] . . عثر على أثر بالغ الأهمية مدون على جدران مقبرة الوزير « ويني » يقول علماء الآثار عنه أنه أول إشارة في التاريخ الانساني للخروج إلى البحر في سفن من « ناقلات الجنود » ويحكى النص المكتوب بالهيريوجليفية قصة تكليف الوزير « ويني » بالقضاء على اعتداءات بعض فصائل جيش « الأكاديين » وقبائل البدو في شمال سيناء على القوافل والبعثات التعدينية المصرية التي كانت ترسل إلى هناك لاستخراج خام النحاس والفيروز والمعادن الأخرى . وكان جيش « الأكاديين » في ذلك العصر قد زحف إلى بعض المناطق السورية بقيادة زعيمهم « نرام سن » الذي بدأ الاستعداد للزحف جنوبا لغزو مصر ، مما دعا مصر إلى ارسال جيشها بقيادة الوزير « ويني » لوقف هذا الزحف .

● ويقول النص في ذلك أن الوزير « ويني » قام بقيادة جيشين : جيش برى عبر الصحراء المتاخمة للسواحل الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط . . وجيش آخر على شكل حملة بحرية محمولة على سفن ضخمة ناقلات للجنود . وعندما وصل الجيشان المصريين إلى جنوب فلسطين نظما صفوفهما وأطبقا على جيش الأعداء وأفنياه .

● وفي نص هيريوجليفي آخر دونه « ويني » على جدران مقبرته ، قال انه كان مكلفا بتجهيز وقيادة سفن كبيرة لنقل أحجار الجرانيت من محاجر أسوان على سفن عريضة مبنية من خشب السنط . ويفخر « ويني » بأنه أشرف على بناء سفينة جديدة من تلك السفن استغرق بناؤها ١٧ يومًا فقط . . ويبلغ طول هذه السفينة ٦١ ذراعًا مصريًا [نحو ٢٥ , ٣٢ مترا] ويبلغ عرضها ٣٠ ذراعًا مصريًا [نحو ٧٠ , ١٥ مترا] .

● ويفخر « ويني » أيضا بأنه تغلب على الصخور التي تعترض مجرى النيل في منطقة الجندل الأول بجنوب أسوان والتي تجعل الملاحة مستحيلة ، وذلك بأن أرسل عدة سفن إلى هناك مجهزة بالرجال والأدوات اللازمة لتعميق وتطهير المجرى النهري الذي حفره المصريون القدماء في عصور سابقة على عصر « ويني » حيث استطاعوا تحويل مجرى النيل ليلتف حول منطقة الجندل الأول متحاشيا صخورها . . وأصبح هذا

المجرى الجديد صالحاً للملاحة فيه بالمراكب والسفن النهرية . وبذلك يعترف التاريخ
الانسانى بأن المصريين القدماء هم أول شعب استطاع تحويل مجرى واحد من أعظم
أنهار الدنيا .



نموذج أثري لمركب يرجع تاريخه إلى عصر الدولة الوسطى ويبلغ طول المركب الاصلى
٥٠ متراً وكان يعمل عليه ١٢٠ بحاراً .

زيارة لأقدم مركب عثر عليه الانسان

في الجانب الجنوبي للهرم الأكبر أقيم هذا المتحف الفريد في نوعه والذي يعرض فيه أقدم أثر في العالم لمركب خشبي ضخّم تم بناؤه منذ ما يقرب من ٤٦٠٠ سنة . . وهو المركب المعروف علمياً باسم « مركب خوفو » والذي أطلق عليه خطأ اسم « مركب الشمس » .

● والملك « خوفو » هو ثاني ملوك الأسرة الرابعة [عام ٢٦٥٠ ق م] . وذاع اسمه في جميع أنحاء العالم القديم والحديث باعتباره صاحب الهرم الأكبر الذي اعتبر على رأس قائمة عجائب الدنيا السبع ، وهو العجيبة الوحيدة الباقية حتى الآن من تلك العجائب .

● وليس لهذا المركب مثيل بين كل آثار العالم . . ولذلك فهو يعتبر أقدم مركب أثري ضخّم تم العثور عليه في العالم الحديث . ويبلغ طوله ٤ , ٤٣ متراً وعرضه ٩ , ٥ متراً وارتفاع مقدمته ٦ أمتار وارتفاع مؤخرته ٥ , ٧ متراً وعمق غاطسه ٧٨ , ١ متراً .

● وعلى سطح المركب نرى « المقصورة الملكية » وهي عبارة عن حجرتين متداخلتين ، الحجر الأولى صغيرة ومفتوحة في اتجاه المقدمة ، والحجرة الثانية كبيرة وواسعة يفصلها عن الحجر الأولى باب يغلق بالترابيس . وسقف المقصورة الملكية مزدوج ومحمول من الداخل على ثلاثة من الأعمدة الخشبية المخروطة على شكل جذوع النخيل ، ويحمله من الخارج ٣٦ عموداً خشبياً . وقد عثر ضمن أجزاء المركب على مجموعة كبيرة من مختلف أنواع الحصير ، كان بعضها يستعمل لتغطية سقف المقصورة من الخارج لحجب حرارة الشمس ، أو ترش بالماء فتقوم مقام أجهزة الترطيب والتكييف .

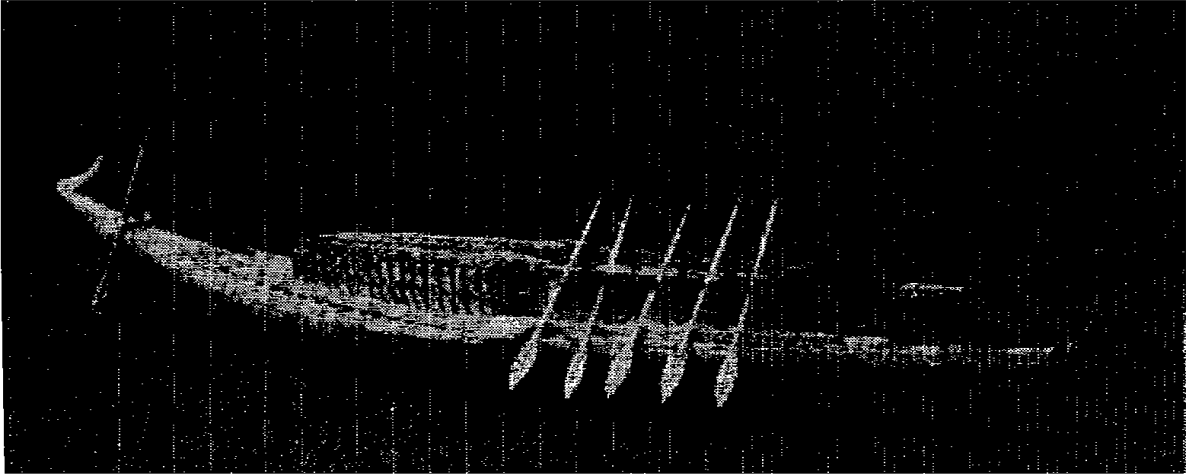
● ونرى على جانبي المركب عشرة مجاديف خمسة منها على كل جانب ، وهى مجاديف طويلة ضخمة تتراوح أطوالها ما بين ٦,٥ متراً و ٨,٥ متراً . . بالاضافة إلى مجدافين كبيرين فى مؤخرة المركب كانا يقومان مقام الدفة . . كما نرى « مدارة » خشبية طويلة كانت تستعمل لجس وقياس عمق المياه . . ووتدين خشبيين كانا يستعملان لربط المرساة ومطرقة خشبية ضخمة كانت تستخدم لدق الأوتاد فى أرض الشاطئ عند رسو المركب وتوقفه عن الابحار فى النيل .

● وعند العثور على الحفرة التى كان هذا المركب مدفوناً فيها ، وجد المركب مفككاً إلى ٦٥٠ جزءاً تتكون من ١٢٢٤ قطعة من الأخشاب . ويبلغ طول القطع الكبيرة نحو ٢٣ متراً ، كما يصل وزن القطعة الواحدة منها نحو طنين ونصف طن . كما كانت هناك قطع صغيرة أخرى من خشب شديد الصلابة ولا يتجاوز طولها أكثر من ١٠ سنتيمترات . . وكانت جميع هذه الأجزاء مرصوصة ومرتبطة بدقة وعناية شديدة بداخل الحفرة التى كانت مدفونة فيها منذ ٤٦ قرناً .

● وقد تم تحليل عينات من جميع أنواع الأخشاب التى تتكون منها أجزاء المركب تحليلاً علمياً فى المعامل المتخصصة فى كل من انجلترا وهولندا ، واستخدمت فيه أدق أجهزة التحليل الكيمياءى والميكروسكوبى والطيفى والكربون المشع . . وقام بهذه التحليلات علماء أجاناب على أعلى مستويات الخبرة تحت إشراف المرحوم الاستاذ الدكتور زكى اسكندر الذى أعد تقريراً بالتوثيق العلمى لكل المواد النباتية والكيميائية التى تتكون منها أجزاء المركب وأخشابه .

● وتبين بصفة قاطعة أن بعض هذه الأخشاب من أشجار مصرية محلية ، وأغلبها من أخشاب مستوردة من مناطق جنوب شرق أوروبا ، وآسيا الصغرى ، والسواحل اللبنانية . . وكانت المفاجأة العلمية المذهلة وجود بعض قطع من أخشاب صلبة اسمها العلمى باللغة اللاتينية « مانيفرا إندىكا » وهى أخشاب مستخرجة من نوع من الأشجار لا ينبت إلا فى « الهند » . . الأمر الذى دعا بعض المؤرخين إلى البحث عن وجود علاقات تجارية تمت بين مصر والهند فى عهد « خوفو » . وهو أمر لم يحسم حتى الآن بشكل قاطع .

● وبداخل المتحف يمكننا أن نرى أيضا الحفرة التي كان المركب مدفوناً بداخلها ، وهي محفورة في بطن صخر الهضبة ، ويبلغ طولها ٣١ متراً وعرضها ٦,٢ متراً وعمقها ٣,٥ متراً . وكانت مغطاة بكتل حجرية ضخمة مرصوفة رأسياً وعددها ٤١ كتلة ويبلغ طول كل كتلة ٥,٤ متراً وعرضها ٨,١ متراً وسمكها ٨٥,٠- متراً . كما يبلغ وزن كل كتلة منها حوالي ١٨ طناً .



نموذج حديث لمركب خوفو .. معروض حالياً بمتحف المركب بجنوب الهرم الأكبر .

أول « سيدة بحار » في تاريخ العالم

يطلق المؤرخون اسم « الدولة الوسطى » على عصر الأسترين الحادية عشرة والثانية عشرة في الفترة من سنة ٢١٣٤ ق م إلى سنة ١٧٧٨ ق م . . أى انه عصر يرجع تاريخه إلى نحو ٤٠٠٠ سنة .

● ومن ناحية التسلسل التاريخي ظهرت الدولة الوسطى بعد انتهاء عصر « الدولة القديمة » في نهاية عصر الأسرة السادسة سنة ٢٢٨٠ ق م . . ومن الأسرات السابعة حتى العاشرة ، ساد عصر من الفوضى يطلق عليه المؤرخون اسم « عصر الاضمحلال الأول » . ويتسم تاريخ هذا العصر بكثير من الغموض ، وسادت فيه حروب أهلية بين حكام الأقاليم المصرية في الوجهين البحرى والقبلى ، وكثر استخدام السفن النيلية في تلك الحروب كناقلات للجنود والجيوش المتحاربة .

● وعلى جدران مقبرة حاكم إقليم اسيوط وكان اسمه « تفيىى » نص مكتوب بالهيروغليفية يصف فيه إحدى المعارك الحربية التى قادها ضد عدوه ويقول : « اتجهت نحوهم . . واسرعت بقتالهم كالبرق . . ولم أتوقف عن الحرب مستغلا ریح الجنوب وریح الشمال . . وسقط العدو فى الماء . . وجنحت سفنه إلى البر » .

● ويبدو أن هذه الحروب الصغيرة التى نشبت بين حكام الأقاليم فى عصر الاضمحلال الأول والتى استخدمت فيها السفن النيلية فى القتال كانت بمثابة تمارين عملية للسفن البحرية الحربية التى استخدمت بكثرة فى عصر « الدولة الوسطى » حيث وصلت البحرية المصرية إلى ذراها وقمة نشاطها ، وأصبحت الأساطيل الحربية المصرية تجوب أرجاء البحرين الأحمر والمتوسط .

● وفي عهد الملك « متوحتب الرابع » [١٩٩١ ق م] وهو من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، أرسل الملك وزيره ومدير الخزانة الملكية وكان اسمه « حنو » على رأس حملة بحرية لمحاربة شعب « خاوبنو » ، وهم أهالى جزيرة « كريت » . ولم يتم العثور حتى الآن على نص يبرر لنا سبب إرسال تلك الحملة البحرية المصرية إلى جزيرة كريت فى ذلك العصر ، وإن كان بعض المؤرخين الأجانب يقولون أن السبب فى إرسال تلك الحملة قد يرجع إلى قرار اتخذته مصر بإيقاف الهجرات والتسللات التى كان يقوم لها بعض أهالى كريت وجزر بحر إيجه إلى مناطق الدلتا المصرية .

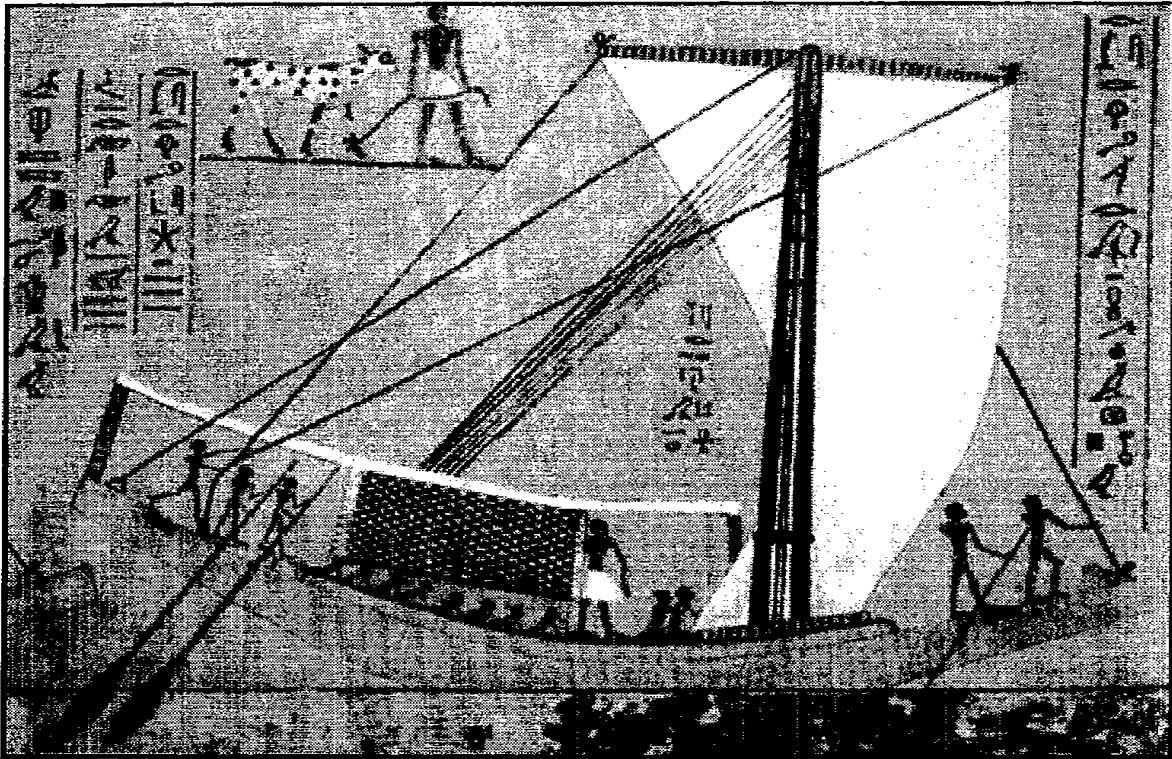
● ويبدو أن الوزير « حنو » هذا كان متمرسًا فى قيادة الأساطيل البحرية ، فقد كلفه نفس الملك بقيادة أسطول بحرى توجه به إلى بلاد بونت [جنوب اليمن والصومال] لاجتياز البخور والدهانات العطرية ومنتجات بلاد بونت الأخرى . وكان عدد الأفراد الذين اشتركوا فى تلك الحملة ٣٠٠٠ رجل ، خرجوا إلى البحر الأحمر براً عن طريق وادى الحمامات وبدأت رحلتهم البحرية من الساحل المصرى المطل على البحر الأحمر .

● وفى عصر الأسرة الثانية عشرة ظهر الكثيرون من قادة السفن والأساطيل البحرية المصرية الذين سجلوا أعمالهم وتفاصيل الرحلات التى قاموا بها تنفيذًا لأوامر الملوك . ومن هؤلاء قائد الاساطيل « خنت خت ور » الذى شيد نصباً تذكاريًا بناء على أوامر الملك « امنمحات الثانى » على ساحل البحر الأحمر فى نهاية وادى جاسوس - الذى كان يخترق الصحراء الشرقية - حيث كان يقع ميناء مصرى قديم اسمه « ساوو » ويشهد هذا النصب بسيادة مصر والسفن المصرية على البحر الأحمر .

● ومن قادة الأساطيل المصرية فى ذلك العصر قائد اسمه « خنم حوتب » كتب على جدران مقبرته نصا يقول فيه انه صحب الملك « أمنمحات الأول » فى حملة تتكون من ٢٠ سفينة مصنوعة من خشب الأرز لملاقاة العدو « حتى هزمناه وسحقناه ! » .

● وفى عصر الأسرة الثانية عشرة أيضا أمر الملك « سنوسرت الثالث » الذى حكم مصر فى الفترة من ١٨٨٧ ق م حتى ١٨٤٩ ق م ، بحفر القناة التى أطلق عليها قديماً

اسم « أجمل طرق الملك » والتي كانت تربط الفرع الشرقى للنيل ببخيرة التمساح التي كانت متصلة بالبحر الأحمر كامتداد طبيعي لخليج السويس .
وبذلك أصبحت الطرق الملاحية مفتوحة أمام السفن المصرية لتجوب البحرين ..
وأصبحت مصر أول دولة يمكن أن توصف بأنها « سيدة البحار » في تاريخ العالم ! .



إحدى السفن البحرية الشراعية الضخمة ، التي كان يتكون منها الاسطول البحرى المصرى .

دور السفن المصرية في طرد الهكسوس

تمامًا مثلما حدث بعد نهاية « الدولة القديمة » وظهور عصر اتسم بالفوضى أطلق عليه المؤرخون « عصر الاضمحلال الأول » ظهر عصر ثان من الفوضى في أعقاب نهاية « الدولة الوسطى » [١٩٩١ ق م — ١٧٧٨ ق م] أطلق عليه المؤرخون « عصر الاضمحلال الثانى » . وقد استمر هذا العصر من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة . وهى فترة استمرت قرابة مائتى عام وبالتحديد من عام ١٧٧٨ ق م إلى عام ١٥٧٠ ق م .

● وفى هذا العصر تمزقت أوصال مصر الدولة مرة أخرى بين حكام الأقاليم والغزاة الرعاة المعروفين تاريخيا باسم « الهكسوس » الذين تمركزوا فى الدلتا وسيطروا على حكام معظم الأقاليم المصرية .

● ودار التاريخ دورته ، وهب أبناء مصر يدافعون عن أرضها باصرار وطنى عظيم على إعادة توحيد البلاد وتحريرها من المستعمر الهمجى البغيض . وحدثت الإرهاصات الأولى لهذه الهبة الوطنية المصرية فى عهد آخر ملكين من ملوك الأسرة السابعة عشرة ، وهما الملك الوطنى الشهيد « سقنن رع » والملك « كامس » .

● وقد انتشر فى عهد هذين الملكين استخدام السفن النهرية الضخمة كناقلات للعتاد الحربى والجنود والجيوش التى كانت تتم تعبئتها ونقلها عبر النيل متوجهة إلى الدلتا للقيام بالعمليات الحربية والهجمات المتعاقبة على قواعد الهكسوس .

● وقد لقب الملك « سقنن رع » بلقب « الشجاع » - كما ورد فى النصوص القديمة التى دونت فى عصره - وهى النصوص التى تذكر أن هذا الملك الوطنى قد خرج على

رأس جيش في شكل « مسيرة حربية » انضم إليها الكثيرون من أبناء الشعب المصرى من فلاحين وعمال وحرفيين ومن هم في سن الشباب من كافة الأقاليم المصرية متطوعين للاشتراك معه في حرب التحرير المقدسة التى بدأها ضد معاقل الهكسوس ، وهى الحرب التى سقط فيها الملك شهيداً على أرض المعركة .

● وتولى ابنه الملك « كامس » مواصلة حرب التحرير المقدسة ، وواصل معاركه ضد معاقل الهكسوس حتى حاصروهم في عاصمتهم الحصينة التى اتخذوها في مدينة «أفارس» [تل الضبع حالياً بشرق الدلتا] وجعلهم لا يجسرون على مجرد الخروج من تلك المدينة .

● وهناك نصوص تاريخية تثبت أن الملك « كامس » كان يبحر بسفنه من ناقلات الجنود وناقلات العتاد الحربى بطول النيل من طيبة / الأقصر حتى الفرع الشرقى للدلتا ، وانه كان يستخدم « سفينته » كقاعدة لقيادة العمليات الحربية . . وعلى نصب تذكارى أقامه « كامس » بمعابد الكرنك نص يقول فيه : « . . أبحرت شمالاً لضرب الآسيويين . . وقضيت الليل في « سفينتى » وقلبى فرح . . وضربت العدو ودمرت أسواره . . وكان جنودى كالأسود . . » .

● ومع ذلك فلم يستطع الملك « كامس » أن يقضى على الهكسوس قضاءً مبرماً أو يطردهم خارج البلاد . . فقد اضطر إلى العودة بجيشه جنوباً ليقتضى على مؤامرة تم تدبيرها بين أمير النوبة و « أبو فيس - ملك الهكسوس » لكى يقوم النوبيون بغزو البلاد من جهة الجنوب لتشتيت الجيش المصرى بين حرب في الجنوب وحرب في الشمال .

● ولم يتم القضاء على حكم الهكسوس نهائياً إلا على يد الملك العظيم « أحس الأول » . . وهو الشقيق الأصغر للملك « كامس » . . وهو الذى استحق بجدارة أن يتصدر قائمة أبطال التحرير في جميع أنحاء الأرض وعلى طول التاريخ القديم والحديث على السواء . . وهو الذى أسس الأسرة الثامنة عشرة التى يعتبرها المؤرخون بالاجماع أعظم وأشهر أسرة ملكية في تاريخ العالم .

* * *

أول أبطال التحرير في تاريخ العالم

كان تعداد جيش التحرير المصري تحت قيادة «أحمس الأول» يبلغ نحو ٤٨٠ ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة . وكان هذا الجيش الكبير يشع حماساً ووطنية ، ومحارب بروح عالية ، وتسيطر عليه فكرة واحدة هي تحرير مصر من هؤلاء الرعاة الآسيويين وطردهم خارج البلاد .

● خرج الجيش من طيبة / الأقصر قاصداً شرق الدلتا حيث توجد العاصمة التي اتخذها الهكسوس في مدينة «أفاريس» . . وكان أغلبه محمولاً على ظهر أسطول ضخيم من السفن النهرية المتخصصة في نقل الجنود ونقل الخيول والعتاد الحربي والعجلات الحربية . وكان تسليحه يعتمد أساساً على أسلحة مصنوعة من البرونز ، وهو نفس المعدن المستخدم في صنع أسلحة الهكسوس التي استطاعوا بها فرض سيطرتهم على مصر . . كما كانت هناك فرق كاملة من الفرسان والرماة راكبي العجلات الحربية التي تجرها الخيول ، وهي السلاح الحربي الذي اعتمد عليه الهكسوس وأتاح لهم الغلبة على المصريين في المعارك القليلة التي دارت رحاها حين تسللوا إلى الديار المصرية .

● واتخذ الملك مقر قيادته على ظهر سفينة حربية تتقدم السفن الأخرى . . كما أن قادة الجيش من كبار الضباط كانوا يباشرون أعمالهم القيادية وهم على ظهر السفن المتجهة نحو الشمال . وكان أهم هؤلاء القادة اثنان من الضباط العظام هما : «أحمس بن أبانا» و «أحمس بن نخب» . ويروي الضابط الأول سيرة حياته التي سجلها على جدران مقبرته فيقول «إنه أظهر كفاءته وقدرته في فن الحرب فعينه الملك قائداً على سفينة ضخمة اسمها «المضيئة في منف» خاض بها أوار الحرب حين قامت المعركة على الماء عند مدينة أفاريس التي كان يتحصن فيها الرعاة الآسيويون» .

● ومن عدة نصوص أثرية أخرى نعرف تفاصيل معارك التحرير التي دارت براً ونهرًا بين جيش التحرير المصرى وجيش الهكسوس المتحصن فى أفارىس حتى دخل المصريون إلى المدينة فدمروها وأبادوا من طالته أيديهم من الأعداء . . أما معظم الهكسوس فقد فروا من المدينة عند رؤية جحافل الجيش المصرى . وقام « أحمس » بمطاردة هؤلاء الفارين إلى خارج الديار المصرية ، وظل يلاحقهم حتى الأراضى السورية . ويقول معظم المؤرخين أن الهكسوس تلاشوا بعد ذلك ولم يعرف لهم تاريخ .

● وبعد هذا النصر المؤزر فى الشمال ، اتجه « أحمس الأول » بجيشه وسفنه نحو الجنوب ، ليعيد بلاد النوبة إلى الأرض المصرية ، وذلك بعد أن أعلنت بعض المناطق النوبية انفصالها عن مصر أثناء انشغالها بحرب الهكسوس .

● كذلك فقد تمكن أحمس من القضاء نهائياً على حكام الأقاليم الانتهازيين الذين كانوا متعاونين مع الهكسوس وخاضعين لهم ، فتوحدت الديار المصرية مرة أخرى تحت حكم مركزى عاصمته طيبة . . واستحق بذلك أن يصبح مؤسساً لأسرة ملكية «امبراطورية» جديدة ، هى الأسرة الثامنة عشرة التى تعتبر أشهر الأسرات الملكية فى تاريخ العالم المعروف ، كما استطاع « أحمس » أن يكون على رأس فترة تاريخية جديدة ، أصبحت معروفة فى التاريخ المصرى القديم باسم « الدولة الحديثة » التى تضم هذه الأسرة والأسرتين التاسعة عشرة والعشرين المعروفتين « بعصر الرعامسة » .

● وتعتبر « الدولة الحديثة » قمة فريدة متميزة من قمم الحضارة المصرية ، وأجدد صفحة فى التاريخ المصرى القديم .



العصر الذهبي للبحرية المصرية القديمة

من حسن حظ المؤرخين وعلماء الآثار الذين درسوا التطورات التي لحقت بصناعة السفن عبر عصور التاريخ المصري القديم ، بل وعبر عصور ما قبل التاريخ ، انهم وجدوا معلومات ووثائق واضحة تمام الوضوح مسجلة بالرسوم والنقوش الجدارية على حوائط وجدران المعابد والمقابر ، وبالرسوم المسجلة على صحائف البرديات . . كما عثروا على أعداد كبيرة من النماذج والموديلات الصغيرة للمراكب والسفن التي يرجع تاريخها الى عصور تاريخية مختلفة . . كما عثروا ايضا على مراكب وسفن حقيقية مدفونة بجوار الاهرام وبعجوار بعض المقابر الاخرى بمناطق دهشور والجيزة وغيرها من المناطق الأثرية .

● وقد استطاع هؤلاء العلماء - من مصريين وأجانب - تفريع دراساتهم وبحوثهم عن السفن في مصر القديمة إلى عدة أفرع ، بحثوا فيها الأغراض التي من أجلها قام قدماء المصريين بتصميم وبناء تلك السفن ، سواء لتحقيق أغراض عقائدية كأداء الطقوس الجنائزية أو المراسم الدينية أو الاحتفالات الشعبية ، أو لتحقيق أغراض تجارية كأداء خدمات نقل الركاب أو نقل البضائع أو المواشى الحية ، أو لتحقيق أغراض عسكرية كأداء خدمات نقل الجنود والخيول والعجلات الحربية وغير ذلك من المؤن والعتاد الحربى .

● كما أفرد العلماء بحوثاً مستفيضة عن التصميمات الهندسية والملاحية للسفن التي تطورت عبر العصور التاريخية حتى وصلت حد الكمال في عصر « الدولة الحديثة » . كما درسوا تطور أشكال المجاديف والأشرعة والمنشآت العلوية على ظهر تلك السفن .

● ويعيننا هنا أن نلخص ما ورد في المراجع عن النهضة العظيمة التي بلغت

البحرية المصرية في عصر « الدولة الحديثة » وعلى وجه الخصوص في عصر الأسرة الثامنة عشرة الذى يعتبر عصرًا للقمة الذهبية للبحرية المصرية ولصناعة بناء السفن في مصر القديمة .

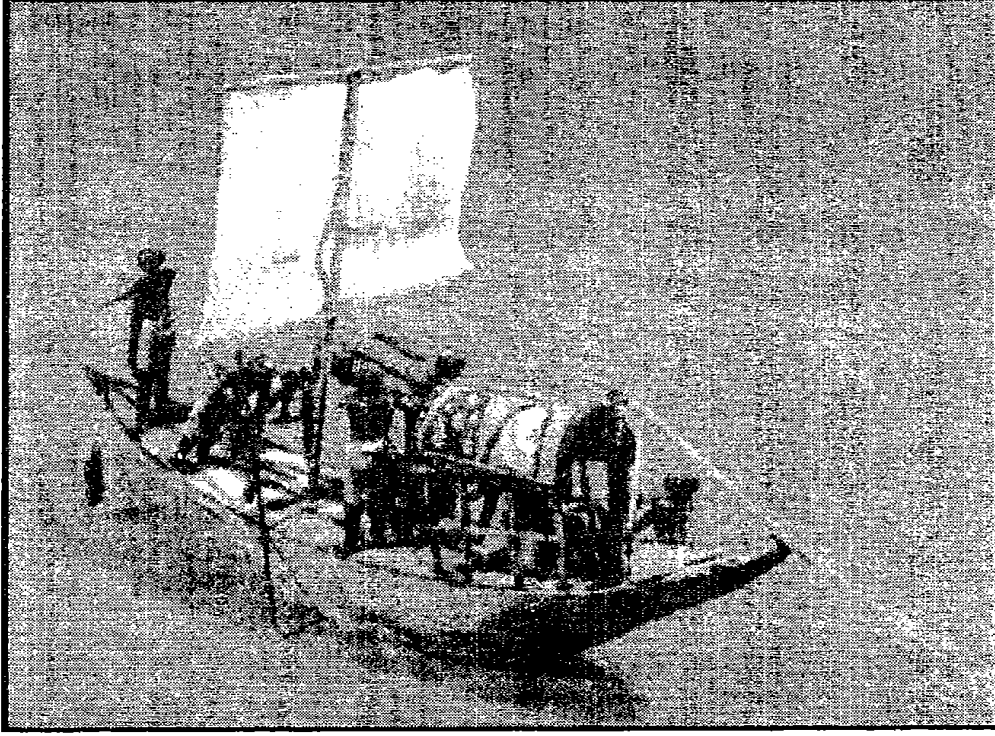
● ويتميز هذا العصر بصفة عامة بكثرة بناء واستخدام الأساطيل الضخمة لمختلف أنواع السفن من حربية و تجارية وناقلات للأحجار والمثقلات ، بل وبنيت في ذلك العصر سفن تجاوزت حمولتها أكثر من ألفى طن .

● وفي عصر الأسرة الثامنة عشرة وضعت دعائم الامبراطورية المصرية ، وامتد النفوذ المصرى إلى الشرق والشمال في كل الأقاليم التى تضم المناطق التى تشغلها الآن فلسطين وإسرائيل والأردن ولبنان وسوريا والعراق حتى جنوب شرق تركيا . ونتيجة لذلك ازداد استخدام السفن البحرية الضخمة بأعداد كبيرة لنقل الجيوش والعتاد والمؤن وكل متطلبات المجهود الحربى الذى كان يؤازر الجيوش الساعية لتحقيق النصر . وبذلك تم تحويل معظم الموانى الواقعة على السواحل الفلسطينية والسورية إلى قواعد حربية بحرية للسفن و الأساطيل المصرية .

● وحتى يمكن الوفاء بهذه الاحتياجات البحرية الضخمة وهذه الأعداد المتزايدة من السفن الكبيرة ، توسعت الدولة في إنشاء وتدعيم ترسانات بناء السفن التى كانت منتشرة في بعض مناطق مجرى النيل وسواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكانت أهم تلك الترسانات الملكية « برعو - نوفت » التى كانت تقع على مجرى النيل قرب مدينة منف التى كانت تعتبر العاصمة الثانية لمصر بعد العاصمة الرسمية في مدينة طيبة / الأقصر .

● وكانت تلك الترسانة تحت الاشراف المباشر لأولياء العهد وأكبر الأمراء من أبناء الملوك . وكانت أهم اختصاصات هذه الطبقة من الأمراء ، الاشراف المباشر على أعمال الترسانة الملكية وتوفير احتياجاتها من العمال الفنيين والمؤن والعدد والأدوات والمعدات والأخشاب اللازمة لبناء وإصلاح السفن ، بالإضافة إلى الاشراف المباشر على عمليات تجهيز الجيوش وتدريبها على العمليات الحربية .

● ومن ميناء منف [ميت رهينة بالجيزة حالياً] كانت تتجمع الأساطيل البحرية المصرية لتخرج من فروع النيل إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر .



أحد النماذج الأثرية العديدة للسفن النهرية والسفن البحرية



سفن مخصصة لتقل الحيوانات .

أشهر أسرة ملكية في تاريخ العالم

تعددت الأسباب التي دعت المؤرخين إلى وصف الأسرة الثامنة عشرة بأنها أشهر الأسرات الملكية في التاريخ القديم والتاريخ الحديث . . فقد حاز ملوكها وملكاتهما شهرة عالمية في ميادين السياسة والحرب والثقافة والحضارة والدين .

● وهي الأسرة التي أسست الامبراطورية المصرية ، وفرضت النفوذ الحضارى المصرى فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب . . واستقراءً لأسماء ملوكها الذين ذاع صيتهم فى التاريخ القديم وفى العالم المعاصر أيضاً ، ندرك إلى أى مدى استطاعت هذه الأسرة الملكية أن تفرض نفسها على صفحات التاريخ فرضاً . ونذكر فيما يلى أسماء هؤلاء الملوك على التوالى ، وكلهم معروفون لكل من له إلمام بتاريخ مصر والمصريين .

● أحسن بطل التحرير . . أمنحوتب الأول « العادل » الذى أصدر قانوناً بمنع السخرة وبوضع المعايير العادلة للأجور والحوافز . . وتحوتمس الأول « المحارب » الذى وسع الحدود المصرية شمالاً وجنوباً ونشر التعليم وتوسع فى فتح المناجم وصناعة التعدين . . وتحوتمس الثانى « المتأنق » الذى كان مهتماً بطلاء أظافر قدميه بالألوان . . وتحوتمس الثالث « الامبراطور » صاحب العبقرية العسكرية الفذة وأول فاتح عظيم فى تاريخ العالم . . وامنحوتب الثانى « الرياضى » الذى اهتم بنشر الرياضة بين أبناء الشعب . . وتحوتمس الرابع « الدبلوماسى » الذى كان أول من اهتم بتدوين وتسجيل المعاهدات الدولية . . وامنحوتب الثالث « أغنى ملك فى العالم القديم » والذى فتح المدارس « بيوت الحياة » لنشر التعليم والفنون التشكيلية والتطبيقية . . وأخناتون « أول الموحدين » وأول ملك فى تاريخ الانسان نادى بوحدانية الله خالق كل شىء . . وأخيراً

توت عنخ آمون الذى حاز شهرة فى العالم المعاصر لم يحزها ملك منذ ظهر النظام الملكى على الأرض .

● وإلى جانب أسماء هؤلاء الملوك العظام من أعضاء الأسرة الثامنة عشرة ، ذكر التاريخ أسماء ملكات عظيمات ينتمين إلى هذه الأسرة الملكية ، منهن على سبيل المثال الملكة « اياح حتب » زوجة الملك الشهيد الشجاع « سقن رع » وكانت تتمتع بروح وطنية عالية وقدرة فائقة على ادارة دفة الحكم أثناء تفرغ زوجها لمحاربة الهكسوس ، وهى التى بثت هذه الروح الوطنية فى ابنها الملك « كامس » الذى تولى العرش بعد استشهاد والده وواصل الكفاح الوطنى ضد الهكسوس ، ثم فى ابنها الأصغر « أحمس الأول » الذى نجح فى تحرير البلاد من المستعمرين الغزاة ووحّد البلاد ووسع حدودها . ومن الألقاب والأوصاف التى أطلقت على هذه الملكة فى حياتها أنها : « ذات الاسم الرفيع الشأن فى كل بلد أجنبى . . وذات القدرة على ادارة شئون البلاد بكل حزم » .

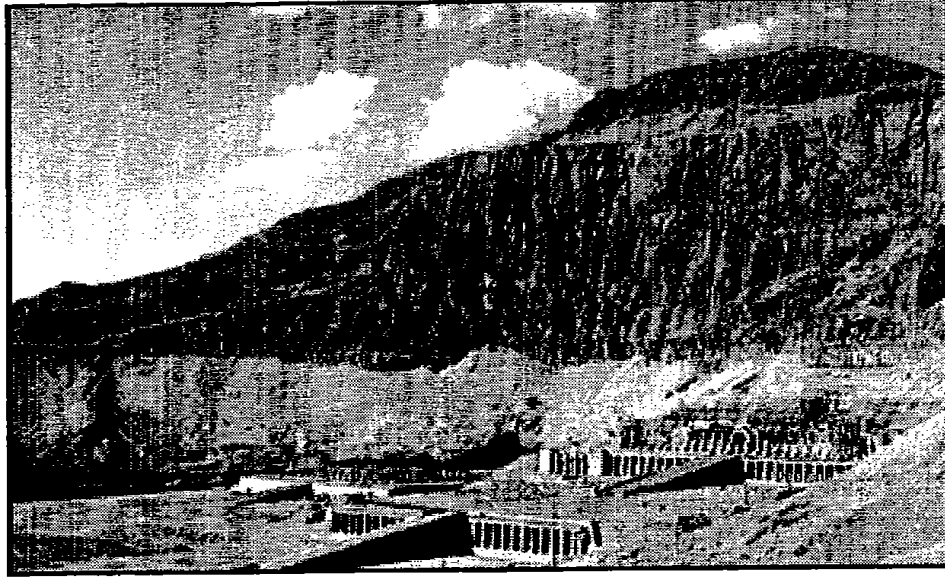
● ويذكر التاريخ أيضا اسم الملكة « أحمس نفرتارى » زوجة أحمس الأول والتى قدسها الشعب المصرى وأطلق عليها لقب « الملكة المقدسة والحاكمة العظيمة » .

● ويذكر التاريخ أيضا اسم الملكة « تى » - بنت الشعب - وزوجة امنحوتب الثالث وأم اخناتون . . وكانت سيدة عظيمة قديرة يعتبرها المؤرخون أعظم نساء التاريخ المصرى ذكاء وقوة شخصية وعزيمة . . وشاركت زوجها فى حكم الامبراطورية الواسعة الأرجاء ، فكانت تباشر شئون الحكم إداريا وسياسياً ودينياً ، كما كانت تقابل الوفود الدبلوماسية الأجنبية ، كما أشرفت على تطوير هائل لنظام التعليم فى مصر ، حيث قسمت الدراسة الى مرحلة ابتدائية ومرحلة ثانوية ومرحلة عليا يتعلم فيها النابهون مزيداً من العلوم والأسرار كما يتعلمون اللغات الأجنبية قراءة وكتابة .

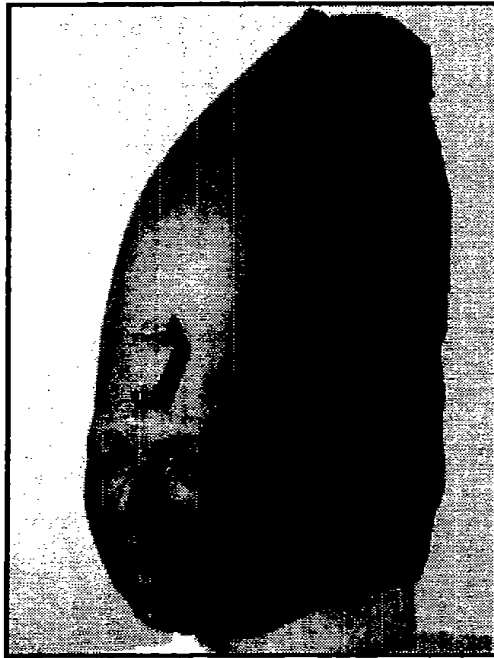
● ومن أشهر ملكات هذه الأسرة الملكة « نفرتيتى » الجميلة التى حكمت مصر - مع زوجها اخناتون وبعد وفاته - فى ظل ديانة التوحيد والدعوة إلى عبادة إله واحد خالق كل شىء .

● أما أهم ملكات تلك الأسرة وأعلاهن قدراً فهى « سيدة النساء الشريفات » الملكة

العظيمة « حتشبسوت » التي انفردت بحكم البلاد قرابة عشرين عاماً ، غيرت فيها أساليب الحكم ، وبلغت مصر في عهدها أعلى قمة في الحضارة والعمارة والتجارة الدولية ، حيث أرسلت البعثة البحرية التجارية والعلمية إلى بلاد بونت .



معبد حتشبسوت بالدير البحرى .



راس تمثال للملكة حتشبسوت

أول رحلة بحرية كشفية في تاريخ العالم

تعتبر «حتشبسوت» خامس ملوك الأسرة الثامنة عشرة . . تولت الحكم بعد موت زوجها «تخوتمس الثانى» كوصية على عرش يشغله صبي صغير هو «تخوتمس الثالث» الذى أصبح فيما بعد أعظم عبقرية عسكرية فى تاريخ العالم القديم وزوجته الصبية الصغيرة «نفرو- رع» وهى فى الوقت نفسه ابنة الملكة حتشبسوت .

● وقد انتصر فى عهدهما الذى استمر نحو عشرين عاماً التيار السياسى الذى يمثله حزب الكهنة والمثقفين المصريين ، فى المنافسة التى كانت بينه وبين حزب المؤسسة العسكرية المصرية . ولهذا فقد ساد السلام ربوع البلاد ، وخرجت القوافل والأساطيل البحرية التجارية المصرية تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية إلى البلاد الأجنبية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب لتبادلها بمنتجات تلك البلاد .

● وشيدت حتشبسوت واحداً من أعظم الآثار المعمارية وأكثرها روعة وفخامة ، وهو معبد «الدير البحرى» على الشاطئ الغربى للنيل فى مواجهة الأقصر . وهو معبد فريد فى تصميمه . وليس له مثل بين معابد العالم القديم كلها . وقد وضع تصميمه الهندسى وأشرف على الأعمال التنفيذية لبنائه المهندس الشاب «سنموت» الذى أصبح المستشار الأول للملكة فى كل الأمور .

● ولما كانت علاقات مصر ببلاد بونت قد انقطعت خلال فترة «الاضمحلال الثانى» السابقة على قيام الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تاق المصريون مرة أخرى إلى ذكرياتهم القديمة مع بلاد بونت [جنوب اليمن و الصومال] وتطلعوا إلى منتجاتها من أنواع البخور التى كانت تملأ المعابد بعبير العطر الزكى وتعمق إيمان العابدين بالدين

والعقيدة . . وتطلعوا إلى إعادة أمجاد الصناع المصريين وإبداعهم في التعامل مع أخشاب الأبنوس الفاخرة والتحف الرائعة التى كانوا ينحتونها من العاج والملابس الفخمة التى كانوا يصنعونها من جلود الفهود .

● ولذلك فقد أوعز الكاهن الأعظم « حبو سنب » للملكة بأن تأمر باعداد حملة بحرية إلى بلاد بونت تحت رعاية الإله آمون . . وتم إعداد الحملة التى تولى قيادتها مصرى محنك فى قيادة السفن البحرية كان يشغل منصب رئيس الخزانة الملكية واسمه «نحسى» [ومعنى إسمه : العبد أو عبده] . . وجهزت الحملة بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور الصحفيين ، فكتبوا أدق « ريبورتاج » علمى مصور وصفوا فيه بلاد بونت سواء من الناحية الطبيعية أو البدائية أو من ناحية جغرافيتها البشرية والأجناس المختلفة التى كانت تسكنها ، وتقاليد وعادات الأهالى الذين يعيشون هناك ، هذا بالاضافة إلى دراسة علمية ممتعة لمختلف أنواع وأشكال الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر.

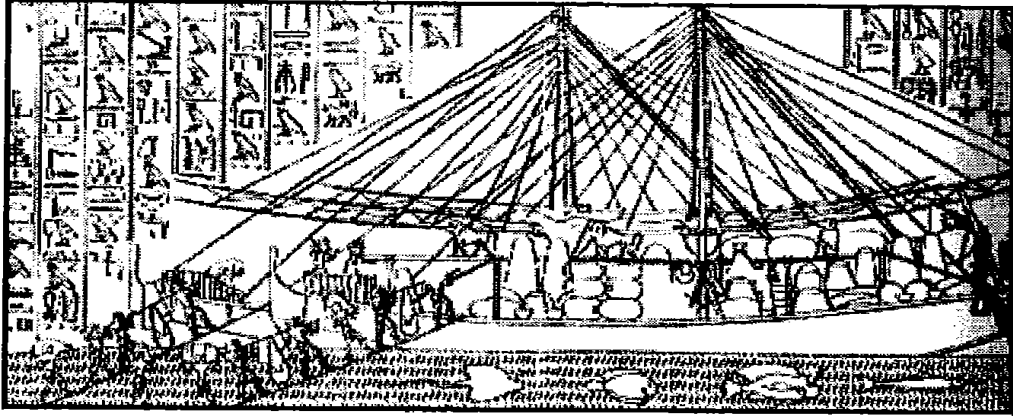
● وقد خرجت هذه الحملة من النيل إلى البحر الأحمر عن طريق القناة القديمة التى حفرت فى عصر الدولة الوسطى والتى كانت تخترق وادى طميلات إلى البحيرات المرة التى كانت متصلة بدورها بمياه خليج السويس .

● وعلى جدران معبد الدير البحرى ، سجلت حتشبسوت نصوص وصور ومناظر جميع مراحل الرحلة البحرية التى قامت بها سفن الأسطول المصرى منذ أن خرجت من النيل إلى أن عادت إليه محملة بكل ما استطاعت نقله من بلاد بونت من العاج والأبنوس وجلود الفهود وسبائك الذهب والفضة وأحمال من البخور و العطور والتوابل والقرفة والاعشاب الطبية وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها - وكان عددها ٣١ شجرة - وزرعت فى حديقة المعبد ومازالت بعض آثارها باقية ، بالاضافة إلى «التوتيا» المستعملة فى صناعة كحل العيون ومجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس .

● كذلك سجلت بوضوح مناظر الكيفية العملية التى نفذت بها عمليات شحن

وتفريغ السفن والهمة والنشاط في أداء العمال والبحارة . كما أن من أجمل اللوحات التي نقشت على جدران المعبد منظر المقابلة التي تمت بين « نحسى » باعتبارة قائد البعثة ومندوب الملكة حتشبسوت وبين ملك وملكة بونت في تلك الصورة الكاريكاتيرية التي تعد من أشهر الرسوم الكاريكاتيرية في العالم القديم .

● ومن المناظر الأخرى التي سجلت تمجيداً للدور العظيم الذي لعبته السفن المصرية في ذلك العهد ، مناظر عملية نقل مسلتين ضخمتين في رحلة نهريّة من محاجر الجرانيت بأسوان إلى الأقصر لإقامتهما بمعابد الكرنك . . حيث نرى المسلتين وقد وضعتا على سفينتين ضخمتين تقطر كلاً منهما ثلاثة صفوف من السفن المتوسطة الحجم والتي تسير بالمجاديف . وكل صف من هذه الصفوف الثلاثة يتكون من تسع سفن وعلى رأسها سفينة قيادة .



سفيتان شراعتان من السفن الضخمة

التي أرسلتها حتشبسوت إلى بلاد بونت .

تحوتمس الثالث .. واللورد النبي .. ومونتجومري

يعتبر « تحوتمس الثالث » من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، بل ومن أعظم ملوك التاريخ المصرى القديم بأكمله . . فهو أول فاتح عسكري عظيم فى تاريخ العالم . . وعبقريته العسكرية الفذة فاقت حدود كل تصور سواء فى تاريخ الحروب فى العالم القديم أو فى تاريخ الحروب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

● ويجمع المؤرخون العسكريون على أن تحوتمس الثالث هو أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقسيم الجيش إلى « قلب وجناحين » . . وهو أول من وضع فكرة تكوين « مجلس أركان حرب » من كبار الضباط للتشاور معه فى وضع الخطط الحربية الفذة للهجوم على جيش الأعداء .

● وتدل الشواهد التاريخية المسجلة على انه بعد ٧٥ يوماً فقط من توليه عرش مصر - بعد الملكة حتشبسوت - بدأ فى الزحف بسلسلة من الحملات العسكرية المجهزة أحسن تجهيز بالعتاد الحربى ، بلغت ١٦ حملة استمرت نحو عشرين سنة متواصلة ، كان من نتائجها تكوين أول امبراطورية واسعة الأرجاء فى تاريخ العالم القديم . . تمتد جنوباً حتى مناطق الجندل « الشلال » الرابع ببلاد النوبة ، وتمتد شمالاً وشرقاً حتى مناطق أشور وشمال سوريا ولبنان وبلاد النهرين « العراق » ومملكة بابل ومملكة خيتا ، كما استولى على جميع موانئ البحر المتوسط الواقعة فى مناطق سوريا ولبنان وفلسطين وجعلها قواعد حربية لجيوشه .

● ويحلو لكثير من المؤرخين أن يعقدوا بعض المقارنات التاريخية الطريفة لاثبات

مدى التماثل والتطابق الحرفى بين الخطة الحربية التى وضعها تھومتس الثالث والخطة الحربية التى طبقها بعض دھاة العسكريين فى الامبراطورية البريطانية . وتتم هذه المقارنات فى إطار دراسات التاريخ الحربى بكثير من الكليات والأكاديميات العسكرية الحديثة .

● يقولون مثلاً إن الخطة الحربية البارعة التى ابتدعها تھومتس الثالث فى عبور بحر «عرونا» بالمناطق السورية هى نفس الخطة التى اتبعها القائد الانجليزى « لورد اللنبى » فى عبور هذا المر الضيق وفاجأ بها جيش الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م ، أى بعد العهد الذى وضعت فيه هذه الخطة الأصلية بنحو ٣٤٠٠ سنة .

● ويقولون أيضاً أن الخطة الحربية التى وضعها تھومتس الثالث لنقل سفنه الحربية «نقلأ بریأ» وهى مجزأة كقطع مفككة وأجزاء قابلة للتركيب السريع والتجهيز الفورى ، وذلك حتى يتمكن من العبور بها فى نهر الفرات والوصول بجيشه إلى بلاد النهرين / العراق لضمها ضمن مناطق نفوذ الامبراطورية المصرية . وهى خطة تعتبر بكل المقاييس خطة حربية فذة وغير مسبوقه فى التاريخ العسكرى ، وهى التى « أوحى » إلى الفيلد مارشال مونتجومرى بخطة نقل سفن العبور الحربية برأ - من فرنسا إلى المانيا - حتى وصل بها إلى الأماكن المحددة لعبور قواته نهر « الراين » أثناء الحرب العالمية الثانية .

● ويقولون كذلك إن خطة تھومتس الثالث فى أخذ أبناء أمراء وحكام وملوك البلاد التى فتحتها كرهائن ، وإرسالهم معززين مكرمين إلى مصر لتنشئتهم وتعليمهم بالمدارس المصرية ، وتربيتهم طبقاً للتقاليد والعادات والثقافة والأخلاق المصرية ، ليصبحوا مجهزين سياسياً لحكم بلادهم حين يؤول إليهم الأمر ، وفى أعناقهم هذا الدين الحضارى تجاه مصر . . هذه الخطة طبقتها أيضاً الامبراطورية البريطانية فى الهند وفى معظم المستعمرات التى كانت خاضعة للتاج البريطانى حيث أجبرت أبناء الأمراء والحكام وعلية القوم على الالتحاق بالكليات الانجليزية التى كانت تعلمهم الثقافة البريطانية وتنشئهم على تمجيد بريطانيا العظمى .

● ويجمع المؤرخون على أن تھومتس الثالث كان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية

بشخصية قوية تتميز بالنبل الرفيع والرجولة والعدالة والتدين والصدق ، وكانت سياسته الداخلية في حكم البلاد تقوم أساساً على إقرار النظام العام ورفاهية الشعب .

● ومن آثار هذا الامبراطور لوحات ونصب تذكارية عديدة مازالت قائمة حتى الآن في معظم المناطق الآسيوية والأفريقية التي أدخلها تحت النفوذ المصرى بالاضافة إلى مجموعة كبيرة جداً من الآثار التي ترجع لعهد المنتشرة في معظم متاحف العالم الحديث .

●● وكان مولعاً بنصب وإقامة المسلات التذكارية الضخمة في المعابد والمدن المصرية . . ولكن شاء القدر أن تنقل بعض هذه المسلات ليعاد نصبها في عواصم ومدن أخرى بعيدة عن وادى النيل بآلاف الكيلومترات . ومن الغريب أن المسلة المصرية القائمة حالياً على شاطئ نهر التيمس بلندن هي إحدى المسلات التي أقامها تحوتمس الثالث ، ومع ذلك يسميها الانجليز « مسلة كليوباترا » . . وقد انتقل هذا الخطأ إلى الأمريكين ، فأطلقوا اسم مسلة كليوباترا أيضاً على إحدى مسلات تحوتمس الثالث التي تم نقلها ونصبها في نيويورك .



ملاحم النبل والشجاعة والعبقرية

العسكرية للملك تحوتمس الثالث .

حين أصبحت مصر قمة الحضارة في العالم القديم

أدت الفتوحات العسكرية في عصر الأسرة الثامنة عشرة إلى فرض النفوذ المصرى على معظم دول العالم القديم في المناطق السورية حتى جنوب شرق تركيا وعلى معظم مناطق العراق وعلى كل الأراضى التى تشغلها الآن سوريا ولبنان والأردن واسرائيل وفلسطين ، وعلى مناطق شرق ليبيا وشمال السودان .

● وطبقا للعرف الذى كان متبعاً في العالم القديم فقد فرضت الجزية على تلك البلاد وامتلات الخزائن المصرية بالذهب والفضة إلى جانب أعداد لاحصر لها من الخيول وأنواع المواشى والثيران والقروود وأنواع الأخشاب الفاخرة والجلود المدبوغة والفراء وريش النعام والعاج والبخور إلى غير ذلك من السلع المماثلة .

● كذلك فقد نشطت التجارة الخارجية بين مصر وتلك المناطق فازداد حجم صادرات المصنوعات والمنتجات المصرية كما استوردت مصر أفضل ما كانت تتميز به تلك المناطق من مصنوعات ومشغولات مثل الحلى والمجوهرات والأحجار الكريمة والأوانى والأباريق والأسلحة والمصنوعات الزجاجية والمعدنية والآلات الموسيقية .

● كما وفد إلى مصر آلاف من أمهر العمال والصناع الأجانب الذين أثروا في الأساليب التقليدية التى اشتهر بها عمال وصناع مصر القديمة . ويقول بعض المؤرخين ودارسى حضارة العصور القديمة إن هؤلاء العمال والصناع الأجانب قد تأثروا أيضا بالتكنولوجيا المصرية فمزجوها بأساليبهم المحلية ، ولذلك قد تميز إنتاجهم بأسلوب جديد ولكنه لا يخرج عن الطابع المصرى التقليدى المعروف . وهو ما يظهر في كثير من القطع الأثرية التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر .

● وقد وصلت مصر إلى قمة الثراء والغنى في عصر الملك « أمنحوتب الثالث » الذى

يعتبر واحداً من أهم ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهو والد « أخناتون » . وقد تزوج أمنحوتب الثالث من إحدى بنات الشعب المصرى وجعلها « الزوجة الملكية الرئيسية » وهى الملكة « تى » وكانت ذات شخصية فذة فى ميادين العلم والثقافة و السياسة . . بل و يعتبرها بعض المؤرخين أعظم نساء التاريخ المصرى القديم ذكاءً وقوة شخصية وعزيمة . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على انها جمعت كل زمام الأمور فى يدها بعد انصراف زوجها إلى التمتع بمناعم الحياة ولذائذها ، فأصبحت الحاكمة الفعلية للبلاد وصاحبة الكلمة العليا فى تسيير وإدارة الأمور فى الامبراطورية المصرية سواء فى داخل البلاد أو خارجها .

● وكان من نتائج هذا الثراء أن ساد الرخاء بين كافة طبقات الشعب المصرى من النبلاء والكتاب والضباط وأبناء الشعب العاديين من الفلاحين والعمال والصناع ، وانفتحت أبواب مراحل التعليم أمام هؤلاء على أوسع نطاق ، وأصبح تعليم اللغات الأجنبية ضرورياً ويأتى فى المرتبة التالية لتعليم اللغة المصرية ، بالاضافة إلى التوسع فى دراسة العلوم والآداب المصرية والأجنبية .

● وأدى هذا الازدهار أيضاً إلى ظهور اتجاهات جديدة فى فنون العمارة والفنون التشكيلية والتطبيقية ، وضحت جلية فى فن نحت التماثيل الضخمة والصغيرة وزخرفة أعمدة المعابد والنقوش الجدارية ذات الألوان المبهجة والأكثر تحرراً من القيود الصارمة التى كانت تحكم الفنون المصرية التقليدية .

● كما يظهر هذا الرقى الحضارى فى آلاف القطع الأثرية التى عثر عليها والتى يرجع تاريخها إلى هذا العصر من التماثيل الصغيرة المصنوعة من المرمر أو الخشب أو العاج ، والتحف المصنوعة من الزجاج و الخزف ، والمجوهرات المطعمة بالاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وطرز الأردية والملابس ذات الذوق الرفيع . . لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى تسمية هذا العصر « بعصر الرفاهية والثراء والبذخ » وشبهوه بعصر هارون الرشيد أيام الدولة العباسية ، وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا أثناء القرن الثامن عشر.

أخناتون .. وديانة التوحيد بالله

أنت واحد .. ولا إله غيرك .. ولا شريك لك في ملكك !

● من المؤكد تاريخيًا أن هذا الاعتراف كان أول صيغة انسانية رسمية شاملة تنادى بوحداية الله خالق كل شيء .. أطلقها واحد من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وهو « أخناتون » الفرعون الفيلسوف الشاعرالذى كان يرى الله فى « القوى المجردة الخفية » التى خلقت كل موجود فى هذا الوجود ، والتى ترزق الفرخ بداخل البيضة ، وترزق الجنين فى بطن أمه ، وتبعث الحياة فى قلب البذرة فيخرج النبات من جوف الأرض .

● وطبقا لطريقة الكتابة الهيروغليفية كان اسمه ينطق « آخ إن أتون » ويكتب الآن فى اللغات العربية والأجنبية « أخناتون » بفتح الألف أو « إخناتون » بكسر الألف . ومعنى هذا الاسم « المفيد للإله أتون » أو « الذى يخدم الإله أتون » . وقد أطلق أخناتون هذا الاسم على نفسه بعد أن تخلى عن اسمه الملكى « أمنحوتب الرابع » وهو الاسم الذى كان يتضمن الإشارة إلى الإله « آمون » الذى كان يعتبر أكبر الآلهة المتعددين الذين كانت تشملهم الديانات والعقائد المصرية قبل وبعد عصر التوحيد الذى أعلنه أخناتون .

● كان كهنة آمون وكهنة الآلهة المصرية الأخرى قد بلغوا من الثراء والسلطة حدًا لم يبلغه من قبلهم كهنة الديانات المصرية المتعددة . وكانت ممتلكات المعابد تمثل أكبر نسبة من الثروة القومية ، وبالتالي فقد تمكنوا من السيطرة على معظم اقتصاديات البلاد وسياساتها .

● وفور تولى أخناتون عرش مصر أمر بإلغاء جميع الديانات المتعددة وإزالة أسماء جميع الآلهة من جميع المعابد الدينية في طول البلاد وعرضها ، ففضى بذلك على السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها الكهنة ورجال الدين الذين كانوا يدعون بأنهم حلقة الوصل بين الانسان والإله . وأعلن أخناتون أن جميع المخلوقات يمكنها أن تعبد الإله الواحد دون أية وساطة من الكهنة أو رجال الدين .

● ولأن أخناتون كان فيلسوفاً وشاعراً موهوباً بالسليقة والفطرة فقد عكف على وضع وصياغة أجمل النصوص الأدبية للأناشيد والقصائد الشعرية الدينية لعبادة الإله « أتون » الواحد خالق كل شيء . وهو الإله الذى كان يرمز إليه بقرص الشمس تمتد منه أياد بشرية تمنح الحياة لكل ما في الوجود من كائنات . وقد عقد كثير من المؤرخين مقارنات تحليلية بين بعض نصوص الأناشيد الدينية التي أبدعها أخناتون شعراً وبين نص «المزمور» رقم ١٠٤ من مزامير داوود المذكورة في التوراة ، فوجدوا تشابهاً وتماثلاً وتطابقاً بين الكلمات والجمل والمعانى وترتيب الأبيات . ونظراً لأن من الثابت تاريخياً أن عصر أخناتون يسبق التوراة بنحو سبعمائة سنة ، فقد أعلن عالم المصريات الكبير « ج . هـ . برستيد » أن أخناتون هو أول من وحد الله في هذا العالم .

● ومن أجمل الصلوات التي صاغها أخناتون شعراً ذلك النشيد الدينى الذى يتعبد به ويقول فيه : « ياخالق المخرج في جسم المرأة . . ياخالق النطفة في ظهر الرجل . . يا واهب الحياة للجنين في رحم أمه . . يامن يهدئه ويهدده فلا يبكى . . يامن تغذيه وترعاه حتى يولد . . ياواهب أنفاس الحياة لكل مخلوقاتك منذ يوم يولدون . . يامن تفتح أفواههم لتعطيهم ما يقتاتون . . والفرخ الصغير حين يصبح في البيضة تمنحه القدرة على التنفس ليستطيع الحياة . . ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا . . أيها الإله الواحد الذى لا مثيل له أبداً . . يامن خلقت الأرض والسموات العلا . . وخلقت الانسان والحيوان والطير في كل الأراضى المصرية والأراضى الأجنبية . . أنت الذى تضع كل رجل في موضعه وتمد الجميع بأرزاقهم وتمنحهم أيام حياتهم المعدودة . . وتجعل أشكالهم مختلفة وتميز بين الأمم وبعضها . . وأنت الذى جعلت الفصول تختلف لينعم بها كل مخلوقاتك . . وبالرغم من بعدك في أعلى السماوات ، إلا أنك قريب إلى كل يد تُرفع إليك عبادة وابتهالاً » .

● وقد صاحبت هذه الثورة الدينية ثورة اجتماعية أخرى أعلن فيها أخناتون أن جميع الناس بطبقاتهم المختلفة على قدم المساواة أمام الإله الواحد ، لا فرق بينهم إلا بتقواهم وحسن سلوكياتهم الأخلاقية . . بالاضافة إلى ثورة في أساليب الفن كانت ذات طابع متميز في تاريخ الفنون المصرية القديمة بصفة عامة .



تمثال لآخناتون .. معروض بالمتحف المصرى .

نفرتيتى .. الجميلة التى حكمت مصر

أشرنا فيما سبق إلى بعض ملكات الأسرة الثامنة عشرة ممن كان لهن أثر كبير فى حكم مصر ونشر الحضارة المصرية . ولذلك فلا يمكن أن نغفل ذكر « نفرتيتى » الملكة الجميلة التى حكمت مصر بالاشتراك مع زوجها أخناتون فى ظل ديانة التوحيد .

● وقد ظهرت نظرية حديثة فى علم الآثار وتاريخ الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن نفرتيتى حكمت مصر بعد وفاة زوجها كوصية على العرش الذى كان يتولاه « توت. عنخ آمون » وهو ابن زوجها من زوجة أخرى اسمها « كيا » وكان لم يزل طفلاً ولكنه كان صاحب الحق الشرعى فى وراثة العرش .

● وهذه النظرية الحديثة تتعارض مع ما كان يقول به المؤرخون من أن العرش قد انتقل بعد وفاة أخناتون إلى أخ له يدعى « سمنخ كا - رع » . وقد ثبت الآن أن هذا الاسم كان لقباً تلقبت به نفرتيتى حين انفردت بحكم البلاد كوصية على توت عنخ آمون .

● وكان المؤرخون يستبعدون فكرة زواج أخناتون من امرأة أخرى نظراً للحب العائلى الجارف الذى كان يربط بينه وبين زوجته نفرتيتى وبناته الست اللواتى أنجبهن منها . وقد ظهرت أواخر هذا الحب العائلى فى مئآت النقوش الجدارية التى صورت أخناتون ونفرتيتى وبناتهما فى أجمل وأحلى صور الحب والترابط العائلى .

● وفى فترة السبعينيات توصلت عالمة الآثار المصرية « جوليا سامسون » إلى شواهد أثرية تؤكد النظرية التى قال بها من قبل عالم المصريات الكبير البروفيسور « ج . هاريس » من أن نفرتيتى هى التى خلفت زوجها فى حكم مصر بعد موته ، وليس هناك ملك اسمه « سمنخ كا - رع » .

● وبالتحليل التاريخي لتلك الشواهد الأثرية قالت العالمة البريطانية جوليا سامسون أن رجاحة عقل نفرتيتى ووعيها السياسى كانا وراء السماح لزوجها عن طيب خاطر بأن يتزوج بفتاة يمكن أن تنجب له وريثاً للعرش . ومن المرجح انها اختارت « كيا » وهى إحدى وصفاتها لتقوم بهذه المهمة . ومن المرجح أيضاً أن « كيا » هذه أنجبت طفلاً لأخناتون أطلق عليه اسم « توت عنخ آتون » وهو الاسم الذى تغير فيما بعد إلى « توت عنخ آمون » تحت ضغط كهنة آمون وانتصارهم على ديانة التوحيد التى نادى بها أخناتون قبل وفاته .

● ورجحت جوليا سامسون أيضاً كفة القول بأن نفرتيتى كانت « ملكة حاكمة » شاركت زوجها فى دعواه الدينية كما شاركته فى مباشرة شئون الحكم ، وذلك بعد دراسة الكثير من النقوش التى صورت الزوجين معاً وهما يستقبلان الوفود الرسمية الأجنبية ، أو يقدمان الأنواط والنياشين لكبار رجال الدولة ، أو يفتشان على سفن الأسطول . كما تم العثور على لوحة تصور نفرتيتى فى هيئة « الفرعون المحارب » وهى منظر رمزى من المناظر التقليدية فى تاريخ الفن المصرى القديم ، وكان هذا المنظر قاصراً على الفراعنة وحدهم ، ويصور فيه الفرعون فى وضع متحفز ويمسك بيده اليسرى شعر رأس أحد الأسرى من أعداء مصر ويرفع بيده اليمنى هراوة أو سيفاً يهيم بتوجيهه إلى رأس العدو بضربة قاضية . . إلى غير ذلك من النقوش التى تؤكد ان نفرتيتى كانت ملكة حاكمة تمارس الوظائف والاختصاصات القاصرة على الفراعنة وحدهم ، والنقوش الأخرى التى تؤكد أن الزوجين أخناتون ونفرتيتى كانا يشتركان معاً فى حكم البلاد .

● ومن الألقاب التى أطلقها أخناتون عليها انها : « الزوجة الملكية العظمى . سيدة مصر العليا والسفلى . بهيجة بتاجها . ذات الحسن . حلوة الحب . زائدة الجمال . الجديرة بالمرح . سيدة السعادة . وسيدة جميع النساء » . أما اسمها فينطق حسب الكتابة الهيروغليفية « نفرت إيتى » ومعناه « الجميلة آتية أو مقبلة » . أما اسمها الملكى الرسمى فهو « نفر نفرو آتون » ومعناه الجميلة كجمال آتون .

● أما تمثالها الرائع الشهير المعروض حالياً بمتحف برلين ، فقد عثرت عليه بعثة

ألمانية كانت تجرى حفائرها الأثرية في مدينة « آخت أتون » وهي تل العمارنة بمحافظة المنيا حالياً في أوائل هذا القرن ، وقامت البعثة بتهدية خارج البلاد بطريقة خادعة أقرب ما تكون إلى حيل لصوص الآثار .



أجمل تماثيل الملكة نفرتيتي ..
معروض حالياً بمتحف برلين .

أعظم كنز أثرى عشر عليه الانسان

في أعقاب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ - ١٩١٨] سادت العالم أحداث جسام ، فقد تفاقمت المشاكل المحلية والمشاكل الدولية ، ونشبت حروب صغيرة وثورات واضطرابات سياسية واقتصادية واجتماعية في معظم قارات العالم . . ثورة ١٩١٩ في مصر . . وثورة البولشفيك في روسيا . . وثورات الهند والصين ، وثورات دول أمريكا اللاتينية .

● وكانت أخبار تلك الأحداث تنتقل بين أركان الأرض بسرعة البرق بعد أن انتشرت أسلاك « التلجراف » فوق سطح الأرض وتحت مياه البحار والمحيطات لتصل بين دول العالم وقاراته . . ثم ظهر الراديو والاتصالات اللاسلكية ، وكثر ظهور الصحف ووسائل الإعلام الأخرى بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان .

● وفي أوائل نوفمبر ١٩٢٢ توقفت جميع هذه الوسائل والوسائل الإعلامية والاختبارية في حالة انتباه لتعلن خبر العثور على أعظم كنز أثرى عشر عليه الانسان في القرن العشرين . وانتشرت في جميع أنحاء العالم حكاية فرعون مصرى صغير اسمه «توت عنخ آمون» وأصبحت أخبار هذا الملك الصغير الذى مات منذ نحو أربعة وثلاثين قرناً تغطى على أسماء وأخبار الرؤساء والزعماء والملوك الأحياء في جميع أمم الأرض .

● وبالنظر إلى أن الحركة الوطنية المصرية كانت على أشدها في ذلك الحين ، فقد تفاخر المصريون جميعاً بهذا الكشف الأثرى العظيم دلالة وتأكيداً على تاريخ مصر المجيد والحضارة الراقية التى صنعها شعبها منذ أقدم العصور . ومن الطريف أن نذكر

أن اسم توت عنخ آمون قد أطلق على بعض الفنادق ومحلات بيع الملابس والحلوانية وبيعة العصور سواء في العاصمة أو في كافة المدن المصرية بالوجهين البحرى والقبلى . وكان محل توت عنخ آمون بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة من أشهر محلات الحلويات والمشروبات الغازية التى يقبل عليها الشعب المصرى من سكان القاهرة وزوارها من أهالى الأقاليم . وبذلك أصبح اسم توت عنخ آمون متداولاً ليس بين المتعلمين وقراء الصحف وحدهم ، بل وبين الناس العاديين ولو كانوا من الأميين .

● كانت مقبرة توت عنخ آمون التى اكتشفها هوارد كارتير بوادى الملوك أول وآخر مقبرة فرعونية يتم العثور عليها كاملة المحتويات . . وكان الكنز الذى دفن بداخلها يتضمن إلى جانب مومياء الملك وتوابيته الذهبية أكثر من خمسة آلاف قطعة أثرية من تماثيل مرمرية أو خشبية مكسوة بصفائح الذهب أو مصبوبة كلها من الذهب الخالص . . ونماذج لمراكب وجعارين وأوانى وأسرة وحوامل للرأس وكراسى عادية وكراسى للعرش ، وأضرحة ونواميس وحلى ومصوغات ومجوهرات على شكل عقود وأساور وحلقان وخلائيل وصنادل وخواتم وياقات وقلادات صدرية وكلها مصنوعة من الذهب أو الفضة ومرصعة بالعاج والصدف والزجاج الملون والفيانس والفيروز والعقيق واللازورد وغير ذلك من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة . . بالإضافة إلى عجلات حربية مذهبة وأقواس ورماح وسهام وآلات موسيقية ومراوح من ريش النعام ، بل وياقات من الزهور كانت آخر ما وضع فى المقبرة يوم الدفن .

● ويقول المؤرخون وعلماء الآثار المصرية الذين درسوا هذه المحتويات الأثرية وصنفوها وسجلوها تسجيلاً علمياً : إذا كانت كل هذه الكنوز قد دفنت مع توت عنخ آمون وهو ملك صغير ضئيل الشأن جداً إذا قورن بغيره من الفراعنة العظام . . فماذا كان حجم الكنوز والتحف الفنية الثمينة التى دفنت مع هؤلاء الفراعنة لتناسب عظمتهم وثراءهم ومكانتهم فى تاريخ البلاد .

● وتقول أحدث النظريات فى علم الآثار المصرية أن توت عنخ آمون يعتبر ابناً لأختاتون أنجبه من زوجة أخرى اسمها « كيا » وكانت وصيفة لزوجته المحبوبة نفرتيتى

التي زوجها له لينجب منها وريثاً ذكراً للعرش بعد أن أنجبت هي ست بنات . وأطلق
أخناتون على ابنه اسم « توت عنخ أتون » ومعناه « الصورة الحية للإله أتون » . ولكن
هذا الاسم تغير إلى « توت عنخ آمون » بعد هزيمة ديانة التوحيد أمام سلطات ونفوذ
كهنة آمون بطيبة .



القناع الذي كان يغطي مومياء توت عنخ آمون
وهو مصنوع من الذهب الخالص ومزخرف
بالأحجار شبه الكريمة ويزن حوالي ١١ كجم .



لورد كارنارفون



هوارد كارتر

نهاية الأسرة (١٨) .. وحكم ضباط الجيش

مالت إلى المغيب شمس عصر الأسرة الثامنة عشرة التى اعتبرها المؤرخون أشهر الأسرات الملكية فى تاريخ العالم القديم والحديث ، وذلك بانقطاع نسل آخر ملوكها «توت عنخ آمون» من الذكور الذين يجوز لهم ارتقاء عرش مصر .

● ولهذا السبب فقد أصبح العرش ميراثاً لبعض كبار ضباط الجيش المصرى الذين ذاعت شهرتهم العسكرية والادارية فى آخر عصر هذه الأسرة . . فتولى العرش الضابط « آى » وهو من رجال الدولة المخضرمين وكان يتولى منصب الوزير الأول فى عهد توت عنخ آمون وكان يتحكم من خلاله فى جميع الانشطة الاقتصادية وثروات البلاد . . كما كان يتولى منصب « قائد سلاح المركبات الحربية » الذى يعتبر أكبر القوى الضاربة وأهم فروع الجيش المصرى .

● ويقول بعض المؤرخين إن عهد الملك « آى » يعتبر بداية « النظام العسكرى فى حكم مصر » حيث تجمعت السلطات كلها فى أيدي ضباط الجيش . وقد استمر حكم الملك « آى » لفترة قصيرة بالنظر إلى كبر سنه . وتولى العرش بعده الضابط « حور محب » الذى كان يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى جانب مجموعة أخرى من أعلى المناصب السياسية والادارية بالدولة .

● وفى بداية عهد « حور محب » قام بحملة عسكرية لتأديب الحيثيين الذين كانوا يطمعون فى الاستيلاء على الأقاليم السورية التى كانت تابعة للنفوذ المصرى . وهزم جيشهم هزيمة منكرة ، بل وأنشأ لأسراهم معسكراً أقيم فى منطقة قرب منف ، حيث نرى على جدران مقبرته بمنف تسجيلاً لتتائج هذا الصراع الحربى الذى نشب بين مصر

ودولة الحِيثين . كما نرى نقوشاً تصور « حور محب » وهو يقوم باستعراض مجموعة كبيرة من أسرى الحرب الحِيثين .

● ولحسن حظ « حور محب » أن انتشر وباء الطاعون في دولة الحِيثين فتجمد نشاطهم العسكري وتقلصت أطعمتهم إلى حين . وبذلك استطاع أن ينصرف إلى تنفيذ اصلاحاته الدينية والاقتصادية والادارية والقانونية التي اشتهر بها في التاريخ المصرى القديم ، والتي حقق بها نوعاً من السلام الاجتماعى بداخل الديار المصرية بل وفي المناطق والأقاليم السورية التابعة للحكم المصرى .

● وبالنظر إلى أن حور محب كان على رأس الجيش المصرى ، فقد توسع في منح مناصب الدولة إلى مجموعة من كبار الضباط وعينهم في المناصب العليا ، بل وعين بعضهم في وظائف كبار كهنة المعابد المصرية حيث أصبحوا يسيطرون على ممتلكات تلك المعابد التي كانت تعتبر ركناً أساسياً في اقتصاديات الدولة .

● غير أن بعض هؤلاء الضباط قد اساءوا استخدام سلطاتهم في المناصب العليا التي تقلدوها ، لذلك فقد أصدر حور محب قانوناً جنائياً يتكون من عشر مواد يفرض فيه عقوبات شديدة ومغلظة على كل من يسىء استخدام سلطته من العسكريين أو من المدنيين . كما أصدر مجموعة أخرى من المراسيم والأوامر الملكية تتضمن وضع نظام صارم لعملية توزيع السلع والاحتياجات على جميع فئات الشعب .

● ومن أهم مواد هذا القانون المواد التي تقرر حماية الطبقة العاملة والفلاحين من أى اضطهاد أو سخرة أو سوء معاملة ، ومعنى ذلك أن هذه الطبقة تعرضت لتجاوزات ومخالفات وسوء استخدام للسلطة من جانب كبار ضباط الجيش وكبار الموظفين المدنيين الذين عينهم حور محب في المناصب العليا بالدولة .

● ومن الطريف أن نذكر هنا أن جميع مواد هذا القانون ومقدمته كانت مكتوبة بلغة مبسطة أقرب ما تكون إلى اللغة العامية حتى يتعرف عليها كل البسطاء . وهو أمر كان نادر الحدوث في النصوص الرسمية للقوانين والمراسيم المصرية .

● واستمر حكم حور محب حوالى عشرين عاماً . وكان حكمه هو الأرض الصلبة

التي تمت عليها كل الانجازات الحضارية من اقتصادية وعسكرية ودينية التي تميز بها «عصر الرعامسة» الذي بدأ حين اختار حور محب خليفة له في حكم البلاد اسمه «بارعمسيس» وهو ضابط كبير كان يشغل منصب «قائد سلاح الفرسان» ومنصب الوزير . . وهو الذي تولى عرش مصر بعد موت حور محب ، والذي سمي نفسه باسم «رمسيس الأول» وبدأ في عهده عصر جديد هو عصر الأسرة التاسعة عشرة .



الأسرة (١٩) .. وعودة الروح العسكرية

اصطلح المؤرخون على اطلاق اسم « الدولة الحديثة » على الحقبة التاريخية التي حكمت مصر فيها الأسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ . . أى من سنة ١٥٧٠ إلى سنة ١٠٨٧ ق م . . وهى فترة استمرت نحو خمسة قرون ، ويحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا عليها اسم « عصر الامبراطورية المصرية » .

● وقد عرضنا فيما سبق الطفرات الحضارية التى وصلت إليها مصر فى عصر الأسرة (١٨) التى انتهت بحكم ضباط الجيش وبداية عصر جديد يسمى « عصر الرعامسة » وهو العصر الذى بدأ ببداية الأسرة (١٩) . وهى أسرة ملكية عظيمة خرج كل ملوكها من صفوف الجيش المصرى ليعيدوا أمجاد الامبراطورية المصرية إلى ما كانت عليه أيام العز القديمة فى الأسرة (١٨) .

● اختار « حور محب » - آخر ملوك الأسرة (١٨) - ضابطاً كبيراً اسمه « بارعمسيس » ليخلفه على عرش مصر . وكان هذا الضابط من أسرة عسكرية عمل معظم أفرادها فى خدمة الجيش المصرى . . وشغل عدة مناصب عسكرية وإدارية عليا فى عهد حورمحب منها : قائد سلاح الفرسان . . ونائب الملك فى إدارة البلاد . . وحامى الحدود الشمالية الشرقية . . وقائد حاميات مصبات فروع النيل . . ووزير الوجه البحرى والوجه القبلى . . والمشرف على كهنة جميع الآلهة . . ورئيس القضاة المشرف الأعلى على قاعات العدل العظيمة .

● وبطبيعة الحال فإن توليه كل هذه المناصب جعله أهلاً لاختياره خلفاً لحور محب الذى لم ينجب وريثاً للعرش ، فتولى ملك مصر مؤسساً لأسرة ملكية جديدة هى الأسرة (١٩) وأطلق على نفسه إسم « رمسيس الأول » أسوة برائد العسكرية المصرية « آمحس

الأول « الذى أسس الأسرة (١٨) قبله بنحو ٢٥٠ سنة .

● وبالنظر إلى انه كان طاعناً فى السن حين تولى العرش ، فقد أشرك ابنه الضابط «سيتى» فى حكم البلاد ، وقلده منصب قائد الجيش ، فعملوا معاً على «عسكرة الدولة» وأشاعا الروح العسكرية ، ووضعوا الأسس الراسخة لبداية عصر جديد فى تاريخ مصر العسكرى والسياسى والدينى ، وهو عصر يتميز بالرخاء الاقتصادى والإصلاح الإدارى والنهضة الفنية والمعمارية فى طول البلاد وعرضها .

● وبالرغم من أن عهد «رئيس الأول» لم يستمر أكثر من عامين ، إلا انه أعاد فكرة «ماعت» كدستور ونظام لحكم البلاد . . وتعتبر «ماعت» لدى قدماء المصريين بصفة عامة أساساً حضارياً للعدالة والصدق والحق ، والالتزام الاخلاقى الصارم بالمثل العليا ، والالتزام بتأدية الواجب دون تقصير وعلى أكمل وجه . وهى دستور غير مكتوب ولكنه كان فخراً للملوك والحكام الذين يضعون صالح الدولة وصالح الشعب فوق كل اعتبار .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن «رئيس الأول» قد أرسل حملات عسكرية إلى النوبة وإلى مناطق فلسطين بقيادة ابنه «سيتى» . كما أعاد فتح مناجم الفيروز والنحاس فى سيناء . وقد تم العثور على بعض الآثار التى ترجع إلى عهده فى مناطق سرايبت الخادم بسيناء ، والقنطرة بشرق الدلتا ، وتل اليهودية وميت رهينة والمرج ، وأبيدوس [العراة المدفونة بمحافظة سوهاج حالياً] ، بالإضافة إلى تكثيف العمل فى قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك .

● وينتمى رئيس الأول إلى أسرة «بحراوية» من الدلتا . . ومع ذلك فقد اتخذ «طيبة / الأقصر» عاصمة رسمية ودينية باعتبارها مركز عبادة الإله آمون وكهنته الذين كانوا السند الحقيقى لحكم ملوك هذه الأسرة ، وذلك بالرغم من أن هؤلاء الملوك قد تطلعوا إلى بناء عاصمة إدارية وعسكرية جديدة بشرق الدلتا لتكون قريبة من طموحاتهم وفتوحاتهم العسكرية فى آسيا .

* * *

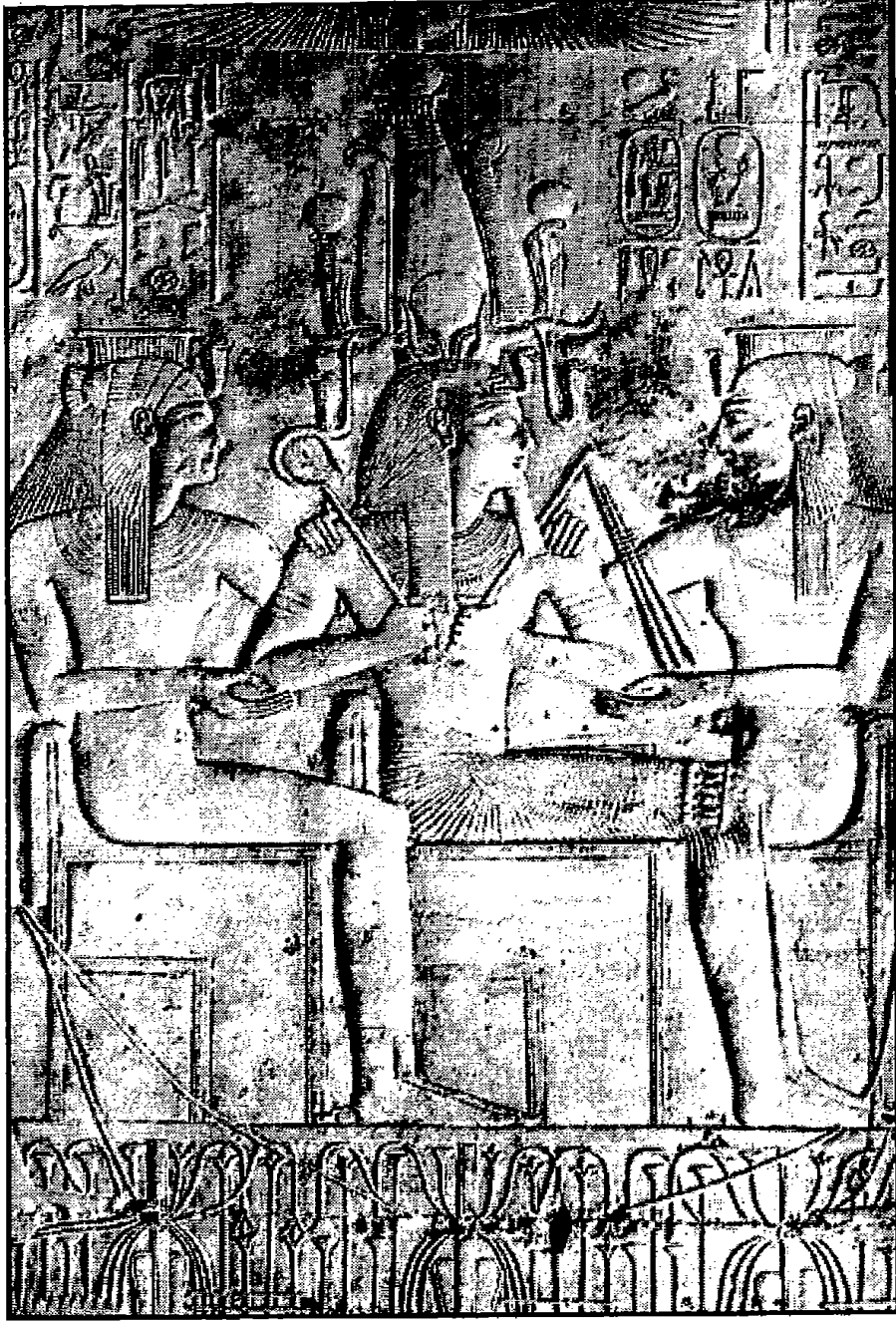
الضابط العظيم .. سيتى الأول

عظيم لأنه اقتدى بملك عظيم وجعله مثله الأعلى . . ولم يكن غريباً على هذا الضابط الطموح أن يتطلع الى الفتوحات التى نفذها « تحتمس الثالث » عبقرى العسكرية المصرية فى التاريخ القديم والذى مد النفوذ المصرى فى آسيا وأفريقيا شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، وأسس امبراطورية مصرية واسعة الأرجاء هادفاً إلى نشر الحضارة المصرية ومحققاً الأمان والرخاء للشعب المصرى .

● هو « سيتى الأول » ابن رمسيس الأول ووالد رمسيس الثانى الذى يعتبر واحداً من أعظم الملوك الذين حكموا مصر فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث على حد سواء .

● كانت الامبراطورية التى شيدها تحتمس قد تعرضت للتفكك والانفصال فى عهد أخناتون الذى لم يكن ميالاً بطبعه إلى الحروب والتوسعات العسكرية . وحدثت ثورات وقلاقل فى الأقاليم السورية واستقلت بعض هذه الأقاليم عن الحكم المصرى ، وبقيت أقاليم أخرى تحت الحماية المصرية خوفاً من بعض الدول الوليدة التى ظهرت فى المناطق الشمالية والشرقية من الأقاليم السورية ، وخصوصاً دولة « الحيثيين » أو دولة « خيتا » باللغة المصرية القديمة . . فقد بدأ ملوك هذه الدولة فى التطلع إلى الاستيلاء على أقاليم سوريا وفلسطين وكافة الأقاليم الآسيوية الأخرى التى كانت داخلية فى مناطق النفوذ السياسى المصرى وتحت حماية الجيوش المصرية .

● لذلك فقد كان همهم الأول هو تأمين الحدود الشرقية والغربية للبلاد ، وتأديب بدو الصحراء الذين ظنوا أن مصر قد ضعفت واستكانت فقاموا ببعض أعمال السلب



سيتى الأول فى كامل تيجانه وصوله
يتلقى مباركة إلهة الوجه البحرى وإلهة الوجه القبلى .

والإغارة على الحقول لسرقة المحاصيل والمواشى والأغنام . أما هم الأكبر فقد كان إيقاف أطماع الحيشين في المناطق السورية والقضاء على المؤامرات التي كانوا يدبرونها ضد النفوذ المصرى بتحريض أمراء وحكام هذه المناطق لإثارة القلاقل ضد مصر وملكها .

● وعلى الجدران الخارجية لقاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك ترك لنا سیتی الأول مجموعة جميلة ومنتقنة من النقوش التي تصور ثلاثاً من حملاته العسكرية التي قادها ضد البدو في شمال سيناء وجنوب فلسطين ، وضد البدو الليبيين في الغرب ، وضد مواقع الحيشين التي احتلوها أو أثاروا فيها القلاقل في المناطق السورية . ويقول علماء الآثار إن هذه النقوش تعتبر من أقدم مناظر المواقع الحربية التي خلفها لنا الفنانون المصريون القدماء . وكان من الواضح أن هذه الحملات الحربية الثلاث قد وقعت خلال الشهور الأولى من حكمه .

● تفرغ سیتی الأول بعد ذلك لتجيش جيش قوى جهزه بأعداد غفيرة من الضباط و الجنود المدربين ، وبكميات هائلة من الأسلحة والخيول والعربات الحربية ، وبث في هذا الجيش روحاً عالية وقدرة قتالية فائقة وإصراراً على النصر في أية موقعة .

● ولأن سیتی الأول كان ضابطاً محارباً ويعرف الكيفية المثلى لإدارة الجيوش وتجهيزها بما تحتاجه من إمداد وتموين بالاضافة إلى وضع النظم والقواعد لشئون الأفراد وحسن معاملة الضباط والجنود وحصولهم على حقوقهم المشروعة ، فقد ترك لنا آثاراً مكتوبة تدل على انه كان مهتماً غاية الاهتمام براحة جنوده وضباطه والوفاء بحاجياتهم الحيوية والمعيشية والاهتمام بأسرهم وعائلاتهم . ولذلك فقد كان يزود الجميع بمخصصات من اللحم والأسماك والمواشى الحية والخضراوات والفواكه والخبز والزيتون والزيت الحلو وأثواب الكتان التي كانت تصرف لهم شهرياً .

● ولهذا فلم يكن غريباً أن هذه النهضة العسكرية المتجددة كانت أهم خطوة لإعادة الامبراطورية المصرية لحدودها السابقة . وهذا ماتم في عهده وعهد ابنه رمسيس الثاني .

الامبراطورية المصرية .. تستعيد شبابها

بعد أن أعاد الضابط العظيم « سيتى الأول » بناء القوات المسلحة البرية والبحرية ، قام بعمل فذ من أعمال الاستراتيجية العسكرية المصرية .

● أعاد السلطة والسيطرة على جميع الموانى الواقعة في السواحل الشرقية للبحر المتوسط [في فلسطين واسرائيل - الحالية - ولبنان وسوريا] . . . وجعل هذه الموانى قواعد حربية بحرية لتموين وإمداد الجيش بالجنود والعتاد ، ولينطلق منها إلى داخل الأراضى والأقاليم السورية ليعيد إلى مصر امبراطوريتها الواسعة التى كانت ممتدة إلى نهر الفرات .

● وتكتملة لهذا الطريق البحرى دعم « سيتى الأول » الطريق البرى الذى كان يربط شرق الدلتا بمدينة رفح بفلسطين خلال صحراء شمال سيناء ، وهو الطريق الحربى الذى أطلق عليه قدماء المصريين اسم « طريق حورس العظيم » . . . وحتى يصبح هذا الطريق ملائماً لمرور الجيش المصرى إلى الشرق وإلى الشمال ، أنشأ عدداً كبيراً من القلاع والحصون العسكرية ، كما حفر عدداً هائلاً من الآبار اللازمة لتموين الجيش ذهاباً وإياباً .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن « سيتى الأول » شن حرباً على الحيثيين انتهت بعقد « معاهدة صلح » مع ملكهم « مواتالو » اعترف الحيثيون فيها بالنفوذ المصرى على الأقاليم السورية .

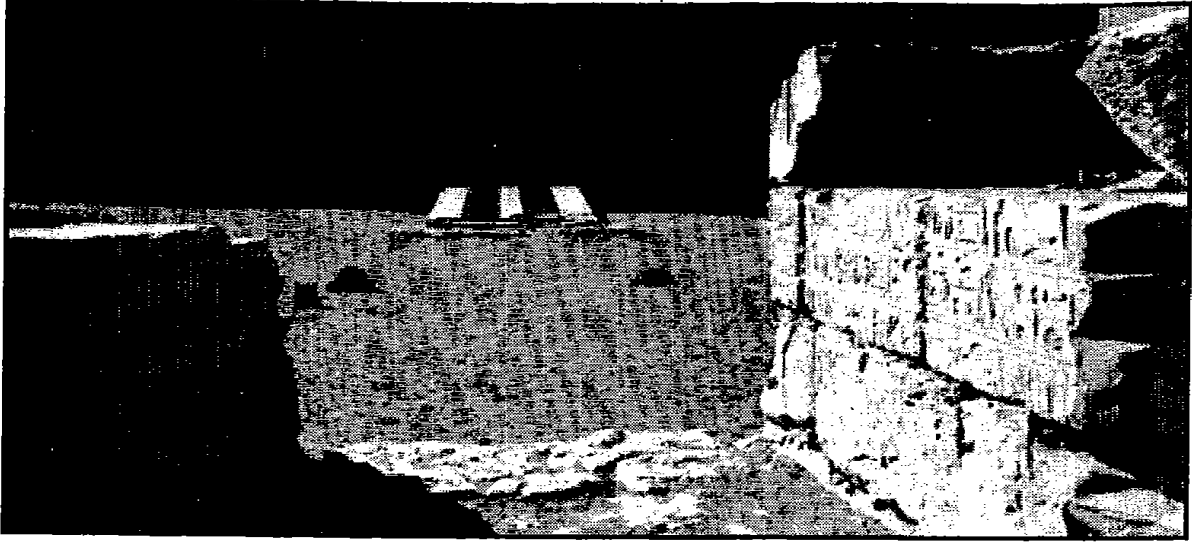
● وتدل هذه الشواهد أيضاً على أن « سيتى الأول » قد أقام العدالة وسيادة القانون في ربوع الأراضى المصرية ، وقام بتوفير الجو الملائم لازدهار الصناعات والفنون المصرية حتى بلغت أعلى مستوياتها في عهده وعهد ابنه رمسيس الثانى من بعده .

● كما أرسل عدداً من البعثات المدنية والتجارية للحصول على أخشاب الأرز من المناطق اللبنانية ليستوفى احتياجات النهضة المعمارية الهائلة التي بدأها بإنشاء المعابد الفخمة في الوجهين القبلي والبحري ، وإقامة عدد من المسلات أهمها المسلة التي أقامها في « هليوبوليس / عين شمس » والتي نقلت إلى روما والمقامة حالياً في ميدان « بيازادل بوبولو » في قلب روما .

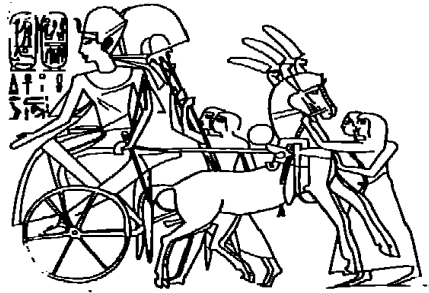
● ومن أهم المفآخر التي تؤكد سبق مصر الحضارى وفضلها على الفكر والعلم ، تلك البردية - المحفوظة حالياً بمتحف تورين - والتي يرجع تاريخها إلى عهد سيسى الأول . وتتضمن خريطة طولها ٥٤ سم وعرضها ٤٦ سم ، تعتبر أقدم خريطة طبوغرافية رسمت في العالم ، تحددت فيها مواقع بعض مناجم الذهب بالصحراء الشرقية في منطقة وادى علاقى ، وتظهر فيها بوضوح مواقع المناجم وما يحف بها من تلال وآبار للمياه ومواقع المبانى والمنشآت والطرق التي تؤدي إليها . وتدل المدونات الأثرية على أن سيسى الأول قد اهتم بالصناعة التعدينية وفتح مناجم كثيرة في سيناء والصحراء الشرقية .

● ومن أهم انجازاته المعمارية التي بقيت آثارها حتى الآن مواصلة العمل في إقامة وتشيد قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك ، ومعبد أبيدوس [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج] وهو يعتبر آية من آيات الفن المعمارى المصرى الرفيع . ومن المعروف أن هذا المعبد قد اكتمل بناؤه في عهد ابنه رمسيس الثانى الذى جعله تحفه رائعة بين المعابد المصرية .

● وتعتبر مقبرة سيسى الأول بوادى الملوك أضخم مقبرة نحتت في بطن الجبل ومن أجمل وأكمل المقابر وأحسنها زخرفاً ودقة في النحت والتصوير والتلوين . وقد اكتشفها « بلزونى » عام ١٨١٧ م وكان التابوت خالياً بعد أن نهبت المقبرة في العصور القديمة . أما موميأؤه فقد عثر عليها بخبيئة الدير البحرى وهى معروضة الآن في المتحف المصرى .



معبد أيدوس { بالعرابة المدفونة - محافظة سوهاج }



رمسيس الأكبر .. سيد العالم !

ليست هذه الصفة مبالغه من عندى فى تمجيد « رمسيس الثانى » بل كانت هذه الصفة هى المفضلة لدى هذا الملك العظيم الذى كان مزهواً بنفسه بعد أن تميز عهده الذى استمر (٦٧) عاماً قضاها فى حكم مصر قائماً بالأعمال المجيدة الضخمة التى رفعت مكانته ومكانة بلده إلى أنصع صفحات التاريخ .

● وحتى نتعرف على كيفية اعتزازه بذاته ، فلنقرأ تلك الكلمات المدونة بالهيروغليفية على مسلته العظيمة المنصوبة حالياً فى ميدان الكونكوردي بقلب باريس والتى تقول : «رمسيس .. قاهر كل الشعوب الأجنبية .. السيد على كل من لبس تاجاً .. المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والأعداء .. والذى خضع العالم كله لسلطانه ، معترفاً بقوته التى لا تقهر ! » .

● ومن التعليقات الطريفة التى ذكرها « وليم ماكويتى » مؤلف كتاب « رمسيس الأكبر سيد العالم » لبيان مدى شموخ هذا الملك القائد العظيم الذى أعاد مجد الامبراطورية المصرية ، أن باريس نفسها لو كانت موجودة على أيامه لكان بالقطع قد فتحها وضمها إلى امبراطوريته فى آسيا وافريقيا ، وكان من المؤكد انه سيقسم مسلة عظيمة تسجل هذا الفتح ، ربما فى نفس المكان الذى توجد فيه مسلته الآن فى ميدان الكونكوردي .

● تمس رمسيس الثانى فى الحياة العسكرية منذ صباه ، فقد عينه والده - سبتى الأول - ضابطاً فى الجيش المصرى عندما بلغ سن العاشرة .. وقضى فترات الفتوة والشباب مشتركاً بشكل فعال فى حكم البلاد ، فاكتسب خبرات سياسية وعسكرية ومعمارية رائعة أهلته لأن يتبوأ المكانة العظيمة التى عرف بها كملك عظيم شجاع فى تاريخ العالم القديم بأسره ، بل وأذاعت صيته وشهرته حتى اليوم ، ومن المؤكد انه سيظل محتفظاً بتلك الشهرة العظيمة فى عالم المستقبل .

● وعلى أحد جدران معبد أبيدوس - العراية المدفونة بمحافظة سوهاج حالياً - نص يقول رمسيس فيه : « إن الإله عظمى وباركنى منذ أن كنت طفلاً إلى أن وليت الحكم . . لقد أعطاني الحق في إقامة العدل على الأرض . . واختارني والدي لوراثة حكم الوجهين القبلي والبحرى . . وأمر بتعييني قائداً على قوات المشاة وقوات الفرسان . . وأمر بتتويجي أثناء حياته ليشاركني معه في الحكم وقال عني : توجهه كما لو كان ملكاً . . وضعوا على رأسه التاج الأكبر . . أريد أن أشاهد جماله وبهاءه وأنا حي ! » .

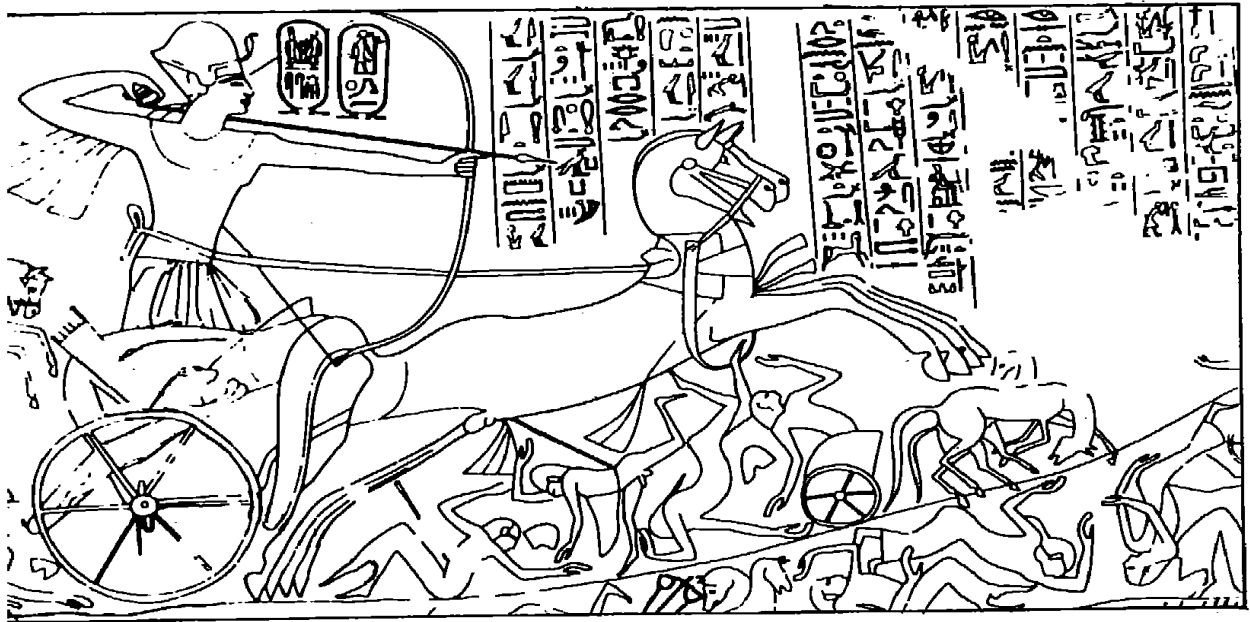
● وبعد موت والده انفرد رمسيس الثاني بحكم البلاد ، وكان ذلك في عام ١٢٩٠ ق م . وخلال فترة حكمه الطويلة ، قاد عدة حملات عسكرية ناجحة أعاد فيها الامبراطورية المصرية إلى حدودها السابقة التي وصلت إليها في عهد المحارب العظيم تحوتمس الثالث ، بل وأضاف إليها مساحات أخرى شمالاً وجنوباً ، فشملت بلاد النوبة بأكملها ممتدة حتى الشلال « الجنادل » الرابع . . كما شملت كل أراضي فلسطين - وإسرائيل الحالية - والأردن ولبنان وسوريا وشمال العراق حتى جنوب شرق تركيا .

● كان « الحيشون » في ذلك الوقت هم القوة الوحيدة التي تسبب المتاعب لمصر ، فقد كونوا دولة وليدة كانت لم تنزل في عنفوانها وتشعر بمدى قوتها ، ولذلك فقد جرؤوا على عقد تحالفات مع بعض حكام الأقاليم السورية التابعة للنفوذ المصري ، بل وأوردت المخابرات الحربية التابعة للجيش المصري أخباراً تفيد أن ملك الحيشين يعد جيشاً جراراً للهجوم على مصر .

● وسارع رمسيس الثاني بتجهيز الجيوش المصرية وإعدادها للحرب ، واتفقت له أربعة جيوش « فيالتق » أطلق على كل منها اسم إله من الآلهة المصرية القديمة « آمون . . رع . . بتاح . . ست » . وكان تعداد هذه الجيوش الأربعة (١٨) ألف محارب منهم (٨) آلاف من حملة الرماح والسهام و (٥٠٠) عربية حربية تسع كل منها اثنين من المحاربين بالإضافة إلى (٩) آلاف من المشاة .

● وعسكرت هذه الجيوش المصرية بالقرب من مدينة « قادش » التي تقع على ضفاف نهر العاصي جنوب مدينة حمص الحالية انتظاراً للدخول في المعركة مع جيش

الحِيثِينَ . وقد دون رمسيس الثاني قصة ووقائع هذه المعركة الحربية على جدران معابد الكرنك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس وأبو سمبل . وهي قصة تعتبر من أقدم الملاحم الأدبية في التاريخ ، وتدور حول الشجاعة الفائقة التي أبدتها رمسيس الثاني في تلك المعركة ، والتي قد تصعب على التصديق لشدة المغالاة في وصفها .



رمسيس الثاني وهو يسحق اعداءه

من الحِيثِينَ في موقعة قادش

الدبلوماسية والمعاهدات الدولية .. اختراع مصرى

تميز عصر الامبراطورية المصرية [١٥٧٠ - ١٠٨٧ ق م] بالفتوحات العسكرية التى تمت فى عصر الأسرتين ١٨ ، ١٩ . وقد أدت هذه الفتوحات إلى سيطرة النفوذ المصرى على دول وممالك وإمارات ومناطق شاسعة فى آسيا وإفريقيا . وبطبيعة الحال فقد كانت الوفود التى تمثل الحكام ورؤساء القبائل من تلك الأقاليم تحضر إلى مصر ومعها كل ما تستطيع حمله من الهدايا الثمينة لمقابلة فرعون مصر فى احتفال رسمى يحضره الفرعون وزوجته الرئيسية ومجموعة كبيرة من الأمراء وقادة الجيش والكهنة وكبار رجال الدولة .

● وفى عصر الأسرة ١٨ كثرت المكاتبات الرسمية بين مصر والدول والإمارات الآسيوية الخاضعة للنفوذ المصرى . وعلى سبيل المثال فقد عثر على جزء من أرشيف حفظ هذه المراسلات بين بقايا وآثار مدينة آخت أتون [تل العمارنة - بمحافظة المنيا] التى بناها أخناتون . وقد عرفت هذه المراسلات باسم « رسائل العمارنة » .

● وفى عصر الأسرة ١٩ تم عقد عدد من المعاهدات بين مصر وتلك الإمارات والدول ، خصوصاً مع دولة الحيثيين ، وهى أقوى تلك الدول ، وكانت تسبب بعض المشاكل فى المناطق الخاضعة للنفوذ المصرى ، الأمر الذى دعا ملوك تلك الأسرة [رَمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى] إلى شن الحرب ضد الحيثيين ودخلوا معهم معارك حربية كثيرة لعل أشهرها معركة قادش التى نشبت بينهم وبين الجيش المصرى بقيادة رمسيس الثانى .

● وقد أنهكت هذه الحروب دولة الحيثيين التى كانت تحارب فى عدة جبهات أخرى غير الجبهة التابعة للنفوذ المصرى . لذلك فقد رأى « خاتوسيل » ملك الحيثيين الذى تولى العرش بعد موت الملك « مواتاليش » أن يرسل إلى مصر بعضاً من الأمراء ورجال بلاطه الملكى وكبار ضباط جيشه ليكونوا رسله فى التفاوض مع فرعون مصر حول شروط الصلح .

● وبعد إجراء المفاوضات العسكرية والسياسية ، دونت نصوص المعاهدة التي تم الاتفاق عليها في برديات ولوحات فضية ، كما نقشت نصوصها على جدران معابد الرمسيوم والكرنك وإفنتين . كما دونت نسخة منها بالخط المسارى وباللغة البابلية التي فضلتها دولة الحيثيين لتكون لغة أجنبية .

● ولحسن الحظ فقد اكتشف عالم الآثار « هوجو فنكلر » هذه النسخة بين آثار مدينة « بوغازكوى » التي كانت موقعا لعاصمة الحيثيين في ذلك الزمن . . وتمت ترجمة هذه النسخة لمقارنتها بترجمة النسخ المصرية لتلك المعاهدة ، وهى الترجمة التي عكف عليها كثير من علماء التاريخ والآثار المصرية ومن أشهرهم شامبليون وبرستيد وجاردنر.

● ويقول برستيد إن تاريخ إبرام هذه المعاهدة يرجع إلى عام ١٢٧١ ق م [أى منذ أكثر من ٣٢ قرناً] . ويقول أيضا : إن صياغة هذه المعاهدة لا تختلف كثيراً عن صياغة المعاهدات الدولية في العصر الحديث شكلا ومضمونا . . وإن الانسان يقف مبهوراً أمام الدقة المتناهية التي صيغت بها نصوص المعاهدة وبنودها واللغة الدبلوماسية الرفيعة التي عبرت عن شروطها .

● وتتضمن المعاهدة : مقدمة إيضاحية تشمل التعريف بكل من الطرفين المتعاقدين وهما رمسيس الثانى والملك خاتوسيل ، وألقاب كل منهما ونسبه أباً وأجداداً ، ومقر كل منهما ، وذكر طلب الصلح الذى أبداه الحيثيون ، وكيفية تجديد المعاهدة . . ثم تأتى بعد ذلك ديباجة تنص على رغبة الطرفين فى إستئناف العلاقات الودية القديمة بين الدولتين . . ثم تتوالى بعد ذلك بنود المعاهدة التى تنص على شروط إقرار السلام ، وإقرار مبدأ الدفاع المشترك بين الدولتين .

● كما تنص المعاهدة أيضا على إجراءات تسليم المذنبين السياسيين والمجرمين العاديين . . وعلى التزام أولاد ملك الحيثيين وأولاد أولاده بأن يكونوا فى حالة صلح دائم مع أولاد رمسيس الثانى وأولاد أولاده . . وأن الآلهة المصرية والآلهة الحيثية شهود على هذه المعاهدة وتبارك طرفيها وستنزل اللعنة على من ينتقضها .



تمثالان لرمسيس الثانى من التماثيل الأربعة
التي تتصدر واجهة معبد « أبو سمبل »

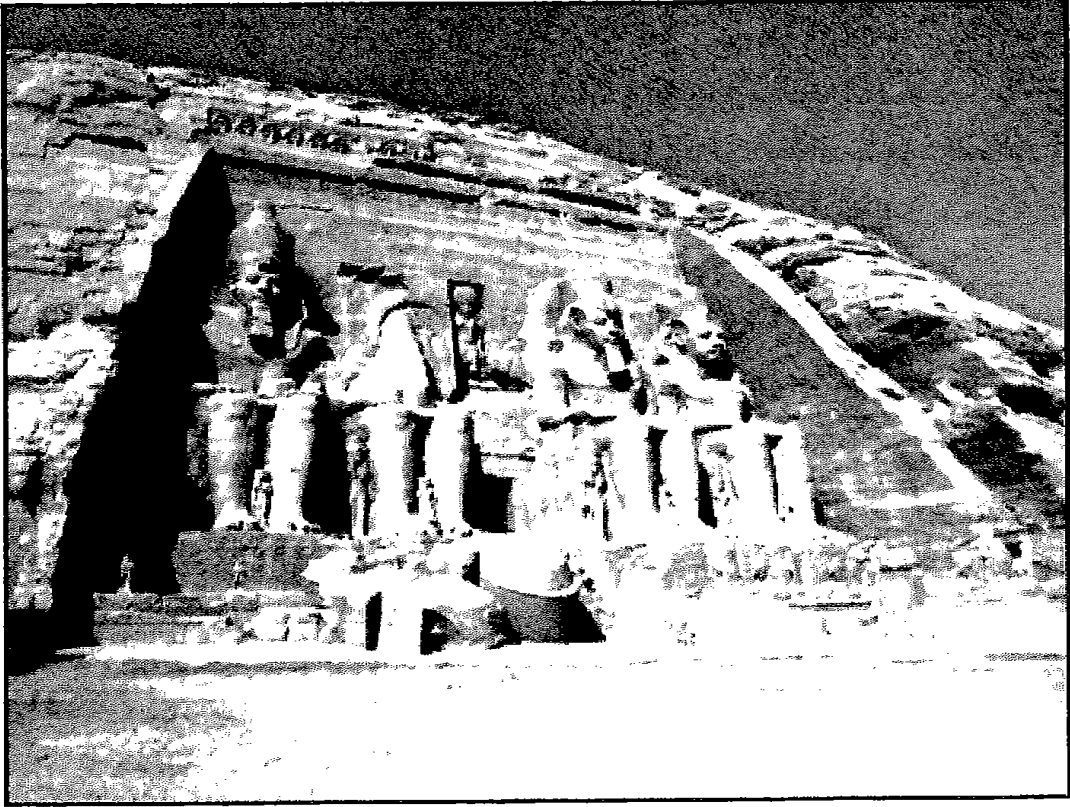
سيد البنائين .. وازدهار الفنون والآداب

يحلو لكثير من المؤرخين وعلماء الآثار المصرية أن يطلقوا على رمسيس الثانى لقب «سيد البنائين» وذلك تقديرا منهم للإنشاءات المعمارية الضخمة ومباني المعابد العظيمة الكبرى والتماثيل والمسلات واللوحات التذكارية التى شيدها فى جميع المدن والأقاليم المصرية ، والتى تتميز كلها بطابع «الضخامة والعظمة والأبهة» ، والتى ما زالت آثارها حتى الآن تثير إعجاب ودهشة المشاهدين والسائحين .

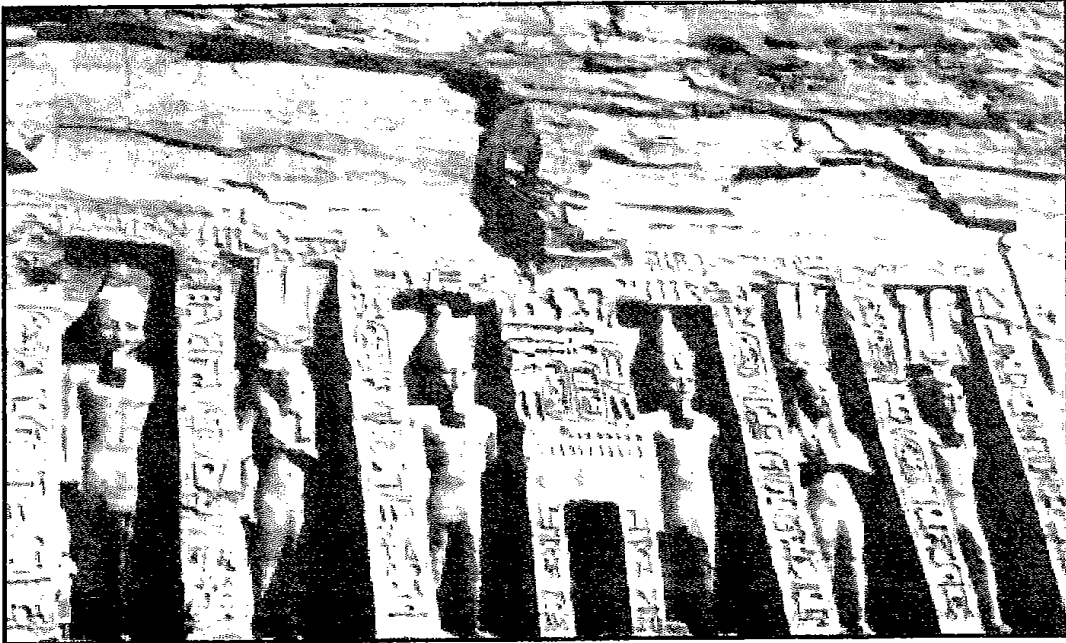
● ومن العسير أن يتم حصر جميع هذه الآثار المجيدة التى شيدها رمسيس الثانى فى طول البلاد وعرضها ، إلا أننا نستطيع أن نشير إلى أهم تلك الآثار فى مناطق سيناء وشرق وغرب الدلتا بالقرب من مناطق القنطرة والسويس والمنصورة والسنبلاوين وميت غمر وزفتى ودمنهور والدلنجات بينها ومسطرد وبهتيم وهليوبوليس ومنشية الصدر والقاهرة والجيزة وميت رهينة . . وفى محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج والأقصر وأسوان .

● وفى منطقة غرب الأقصر شيد رمسيس الثانى مقبرته الفخمة فى وادى الملوك . . ومعبد الرمسيوم العظيم الذى اعتبره الإغريق القدماء من عجائب الدنيا . . كما قام بتوسيع معبد الأقصر وأقام فيه قاعة للأعمدة العظيمة ، وأنشأ له بوابة ضخمة ذات برجين هائلين صور عليهما جميع وقائع معركة قادش بكافة تفاصيلها الحربية الدقيقة . وأقام لنفسه ستة من التماثيل الضخمة ومسلتين ضخمتين من الجرانيت السوردى ، انتقلت إحداهما إلى ميدان الكونكورديبباريس ، وما زالت الثانية فى مكانها بالمعبد .

● وفى عهده تم بناء وتشيد وزخرفة قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك . . وتتكون هذه القاعة من ١٣٤ عموداً ضخماً . . وتدلل النقوش والكتابات المدونة بتلك القاعة



معبد أبو سمبل وثمانيل رمسيس الثانى
الشاهقة تتصدر الواجهة .



واجهة معبد نفرتارى المجاور لمعبد أبو سمبل الكبير .

على انها من إنشاء رمسيس الثانى . . ولكن معظم المؤرخين وعلماء الآثار يقولون أن ذلك مخالف للحقيقة . . فمن المعروف أن أول من بدأ بناء هذه الأعمدة هو «حورحوب» آخر ملوك الأسرة ١٨ ، ثم واصل بناءها من بعده رمسيس الأول ، ثم ابنه سبتى الأول . . وفى عهد رمسيس الثانى كانت قاعة الأعمدة شبه كاملة ، وما كان عليه إلا أن يزيل الأتربة والركام ، وينقش الأعمدة والجدران بالزخارف والكتابات .

● وفى بلاد النوبة جنوب أسوان حرص رمسيس الثانى على بناء مجموعة من المعابد الرائعة وكلها منحوتة فى قلب الصخر . . وأهمها معبد بيت الولى . . ومعبد جرف حسين . . ومعبد السبوعة . . ومعبد محراب فرس . . ومعبد الدر . . ومعبد سره . . ومعبد نباتا . . أما أهم وأضخم وأفخم تلك المعابد النوبية جميعاً فهو معبد أبو سمبل العظيم وبجواره معبد حتحور الذى أهداه إلى زوجته الجميلة نفرتارى .

● أما أهم الانشاءات المعمارية التى شيدها رمسيس الثانى فهو بناء عاصمة إدارية عسكرية جديدة لمصر ، وهى مدينة بر رعمسيس [أى بيت رمسيس] بشرق الدلتا .

● وقد أتاحت له معاهدة الصلح التى عقدها مع الحيثيين أن يتفرغ للإشراف على تلك الحركة المعمارية العظيمة التى شملت البلاد كلها . . وأن يتفرغ أيضاً لإجراء الإصلاحات الإدارية والسياسية التى جعلت عصره يتميز بانه أوسع انفتاح شهدته مصر القديمة على العالم الخارجى ، فقد نشطت الحركة التجارية والسياحية بين مصر وكريت . . كما أصبح المصريون مولعين بالسياحة إلى الخارج وتعلم اللغات الأجنبية . . وأخذ الكثيرون يحشرون بعض الكلمات الأجنبية فى أحاديثهم العادية كدليل على قدراتهم الثقافية .

● وفى عهده أيضاً ازدهرت الحركة الأدبية والفنية حيث انتشرت كتابة القصص والمسرحيات والحكم والأمثال والأشعار والأغاني الغزلية . . كما ازدهرت صناعة الآلات الموسيقية المصرية التقليدية والآلات الأجنبية الوافدة من البلاد الأخرى . . أما فنون النحت والتصوير فقد بلغت فى عهده أعلى درجة من الجمال والإتقان .

رمسيس الثانى .. واخديوى توفيق

فى اليوم التاسع عشر من الشهر الأول من فصل آخيت [الفيضان] فى السنة السابعة والستين من عهده المجيد ، صعدت الروح وغادرت جسد رمسيس الأكبر سيد العالم .

● هكذا أرخ قدماء المصريين موعد وفاة هذا الملك العظيم . . وقام كبار علماء المصريين بتحديد هذا التاريخ على وجه التقريب فى يوم يوافق ويعادل ١٢ يوليو ١٢٢٤ قبل الميلاد .

● وتشير النصوص القديمة إلى أن الوفاة حدثت فى مدينة « بر رمسيس » التى أنشأها فى منطقة شرق الدلتا كعاصمه إدارية وعسكرية جديدة لمصر . . ورحلت المومياة بعد تحنيطها فى موكب رهيب من السفن النيلية التى تحمل المشيعين من الكهنة وكبار رجال الدولة حتى وصلت إلى طيبة / الأقصر ، وعبرت البر الغربى لتدفن فى مقبرته الرائعة المنحوتة فى بطن الجبل بوادى الملوك .

● وإذا وضعنا فى الاعتبار كنوز الذهب وآلاف القطع الأثرية التى يتكون منها الأثاث الجنائزى الذى عثر عليه فى المقبرة الصغيرة التى دفن فيها توت عنخ آمون - وهو ملك ضئيل الشأن جدا إذا قورن برمسيس الثانى - فىمكننا أن نتخيل عظمة الكنوز التى كان يتكون منها الأثاث الجنائزى الذى دفن فى تلك المقبرة الضخمة التى دفن فيها رمسيس .

● ولكن بعد أقل من قرن ونصف قرن من دفن رمسيس الثانى فى مقبرته الفخمة بوادى الملوك تعرضت مصر لحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية بسبب ضعف حكامها ، وانتشر فساد رجال الحكم وأصحاب المناصب العليا فى الدولة ، وتعرضت مقابر وادى الملوك التى دفن فيها الملوك العظام من الأسرتين ١٨ ، ١٩ إلى عمليات

السلب والنهب التى كانت تتم تحت إشراف كبار المسئولين من حراس تلك الجبانة الملكية [حاميتها حراميتها] . . وقد تم العثور على برديات تؤكد لنا حدوث عمليات النهب التى تعرضت لها تلك المقابر ، والتحقيقات القانونية التى أجريت مع عصابات اللصوص ومحاكمتهم وعقابهم على تلك الجرائم الشنيعة التى ارتكبتها تلك العصابات .

● وبالنظر إلى استمرار عمليات السلب والنهب ، فقد قام ملوك الأسرة (٢١) [حوالى عام ١٠٩٠ ق م] بتجميع مومياوات الملوك الذين تعرضت مقابرهم للسرقة ، وأعادوا دفنها فى مقبرتى أمنحوتب الثانى وسيتى الأول بوادى الملوك .

● وبعد نحو ١٢٠ سنة أخرى أعيد دفن مومياوات الملوك العظام مرة ثالثة فى مقبرة جماعية سرية تقع خلف معبد حتشبسوت بالدير البحرى والتى سميت فيما بعد باسم «خبئة الدير البحرى» والتى اكتشفتها وأوشكت على نهبها أسرة عبد الرسول فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى أن قامت مصلحة الآثار المصرية بانقاذ مومياوات الملوك ونقلتها إلى القاهرة .

● وفى أثناء سير هذا الموكب الملكى الرهيب فى المسافة ما بين غرب الأقصر ومدينة قفط عبر الشعب المصرى عن إجلاله وتعظيمه لهؤلاء الملوك العظام الذين ماتوا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، فقد اتشحت النساء الصعيديات بالسواد وأطلقن الصراخ والتحيب والولولة ، وأهلن التراب على رؤوسهن ، تماماً مثلما كانت تفعل النائحات النادبات من المصريات القدييات كما تبدو صورهن المنقوشة على جدران المقابر الأثرية . أما الرجال فقد أخذهم الصمت الحزين والوجوم ، وأطلق كبارهم البنادق فى الهواء تحية وتقديراً وإجلالاً .

● وقد عن للخديو توفيق أن يشاهد مومياء رمسيس الثانى بعد أن شرح له المؤرخون وعلماء الآثار الأجانب تاريخ هذا الملك العظيم . . فأمر الخديو بفتح أكفان المومياء ليرى رمسيس وجهاً لوجه . وفى الساعة التاسعة صباح أول يونيو ١٨٨٦ ، حضر الخديو هذه العملية . ويقول عالم الآثار «ماسبيرو» : ما أن ظهرت ملامح وجه

رمسيس ومعالمه الجسدية حتى اندفع الخديو ومن كان معه من معيته السنينة من كبار رجال الدولة مثل القطيع ليروا هذه الشخصية الرفيعة عن قرب ، وتزاحموا حول المومياء فوقعت المومياء على الأرض .

● وما أعظم المفارقة في تلك اللحظة من تاريخ مصر ، حيث يقف إثنان من حكامها وجهاً لوجه . . حاكم حديث ينتمى لأسرة ملكية أجنبية عن مصر واستعان بالانجليز لتثبيت عرشه فكان رمزاً للخيانة . . وحاكم مات منذ أكثر من ٣٢ قرناً ، أسس امبراطورية مصرية واسعة الأرجاء ، وكان رمزاً للحضارة المصرية التي بهرت العالم القديم كله .



الخديو توفيق



رمسيس الثانى

هكذا يحترمون حضارتنا !

منذ أن رفعت شرائط ولفائف الكتان التي كانت تلف مومياة رمسيس الثاني لأول مرة أمام الخديو توفيق عام ١٨٨٦ ، تعرضت المومياة للرطوبة والعوامل الجوية بكل ما فيها من ملوثات . وبعد أن ظلت المومياة محفوظة بأمان لأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، بدأت تتأثر بعدد من الأمراض أخذت تظهر تباعاً على مدى ٩٠ سنة حتى تقرر علاجها عام ١٩٧٦ .

● وكانت صاحبة الدعوة إلى علاج مومياة رمسيس الثاني من تلك الأمراض والفطريات التي كان من الممكن أن تؤدي إلى تحلل المومياة نهائياً خلال سنوات قليلة ، الاستاذة الكبيرة « كرسطين ديروش نوبلكور » المفتشة العامة الفخرية للمتاحف الفرنسية ، والتي تعتبر من أكبر علماء الإجيبولوجى [علم المصريات] فى فرنسا .

● قامت هذه الاستاذة الكبيرة بالاتصالات المبدئية مع الجهات الطبية والفنية التي ستقوم بعلاج المومياة بأحدث الأجهزة وطبقاً لأدق الأبحاث العلمية ، لوضع قواعد وإجراءات فحص المومياة وتحديد العناية القصوى عند نقلها خلال رحلتى الذهاب والعودة . . ثم قامت بإجراء الاتصالات الرسمية مع الجهات الحكومية الفرنسية والمصرية للموافقة على خروج المومياة من مصر ودخولها إلى فرنسا . . وقد تمت هذه الموافقة باتفاق بين الرئيسين المصرى والفرنسى .

● وتحرر لرمسيس الثاني جواز سفر دبلوماسى . . وفى صباح يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٦ خرجت المومياة من المتحف المصرى بميدان التحرير ، واختارت شارع رمسيس [المسمى باسمه] والمؤدى إلى مطار القاهرة الجوى ، حيث كانت فى انتظارها طائرة « ترانزال » خاصة تابعة لسلاح الجو الفرنسى .

● وصدرت أوامر الخبراء الفرنسيين للطائرة بأن تحلق خلال رحلتها إلى فرنسا على

ارتفاع منخفض وبسرعة خفيفة ، وذلك كاحتياطات لسلامة المومياء . . وقبل أن تغادر الطائرة الأجواء المصرية ، حلقت فوق الأهرام ليمر رمسيس بالقمم الشاخنة التي شيدها أسلافه من ملوك مصر الذين حكموها في عصر يسبق عصره بنحو ١٣٥٠ سنة .

● ووصلت الطائرة إلى مطار قاعدة بورجيه العسكرية بباريس ، حيث استقبلت المومياء طبقاً لقواعد البروتوكول الدبلوماسي الفرنسي الخاصة باستقبال الملوك العظام على الأرض الفرنسية ، حيث أطلقت المدافع واصطف حرس الشرف على جانبي الممر الذي تمر فيه المومياء والمفروش بالسجاجيد الحمراء ، وكانوا يرتدون أبيض حللهم العسكرية لتقديم تحية الشرف طبقاً لقواعد البروتوكول ، بينما كانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف لحن المارش الجنائزي .

● وكان على رأس المستقبلين الرسميين الاستاذة « سونيه سايتيه » مندوبة عن رئيس الجمهورية الفرنسية والمشرفة على « متحف الإنسان » الذي ستم فيه معالجة المومياء ، بالإضافة إلى سفير مصر في فرنسا .

● وتهادت المومياء في موكب رهيب وهي مغطاة بغطاء مخملي أزرق اللون ومطرز بتشكيلات مذهبة لزهور اللوتس المصرية . وقد صمم هذا الغطاء خصيصاً في الأتيليه الملحق بمتحف اللوفر .

● وفي الطريق إلى متحف الانسان التابع للمتحف الوطني للتاريخ الطبيعي بفرنسا ، دارت السيارة التي تقل مومياء رمسيس الثاني حول مسلته التي تحمل اسمه والمنصوبة بميدان الكونكورد في قلب باريس . وهي المسلة التي أهداها محمد علي لفرنسا تقديراً لجهود « جان فرانسوا شامبليون » في حل ألغاز الكتابة الهيروغليفية .

● وبعد سبعة شهور وأربعة عشر يوماً ، انتهت عمليات علاج المومياء ، وتم توديعها بمثل ما استقبلت من مراسم الحفاوة والتكريم ، ونقلتها طائرة ترانزال أخرى تابعة لسلاح الجو الفرنسي ، ووصلت إلى القاهرة مساء يوم ١٠ مايو ١٩٧٧ .

كيف عاجوا رمسيس في باريس .. ؟ !

في عام ١٩٨٥ ، اشتركت وزارة العلاقات الخارجية الفرنسية ووزارة الثقافة الفرنسية ومتحف الانسان التابع للمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى بباريس فى إصدار كتاب مرجعى يقع فى ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير بعنوان : LA MOMIE DE RAMSES - 2 [مومياء رمسيس الثانى - مساهمة عملية فى الإجيبتولوجى] .

● ويتضمن هذا الكتاب جميع التقارير العلمية التى كتبها نحو ٥٠ عالماً متخصصاً فى مجالات الطب والذرة والهندسة والكيمياء والآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم . . وهم العلماء الذين اشتركوا بتخصصاتهم العلمية الدقيقة فى فحص مومياء رمسيس الثانى وعلاجها بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من أجهزة وطبقات لأحدث ما وصلت إليه بحوث التشخيص الطبى وعلوم الأحياء .

● وقد ثار فى مصر جدل عقيم حين قال بعض رجال هيئة الآثار المصرية أن « مركز بحوث الآثار » التابع للهيئة قادر بحكم تخصصه على دراسة العوامل التى تؤثر على سلامة الآثار وخاصة الاصابات الحشرية والفطرية وطرق الوقاية منها وأشاع آخرون أن الصهيونية العالمية وراء فكرة فحص مومياء رمسيس وعلاجها فى فرنسا بغرض التأكد مما إذا كان رمسيس الثانى هو فرعون موسى الذى أخرج بنى اسرائيل وطردهم من مصر أم لا .

● ولكن رجالاً آخرين من الهيئة كانوا أوسع فهماً وأكثر تقديراً للأمور وضعوا فكرة انقاذ مومياء رمسيس من التحلل فوق كل اعتبار ، وكانت ثقتهم بالعلماء الفرنسيين كبيرة ، خصوصاً وأن عمليات فحص وعلاج المومياء كانت تتم فى جهات تشرف عليها

الحكومة الفرنسية وتحت رعاية بعض الوزراء الفرنسيين تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه بين الرئيسين المصري والفرنسي .

● وطبقا لما ورد في فصول الكتاب المرجعي الذى أشرنا إليه يمكننا أن نلخص جميع عمليات الفحص والعلاج والترميم التى أجريت للمومياة فى فرنسا على النحو التالى :

● فحص شامل لحالة التدهور التى لحقت بالمومياة ، ودراسة بكتريولوجية للفطريات والميكروبات والحشرات الدقيقة التى أوشكت على تدمير المومياة .

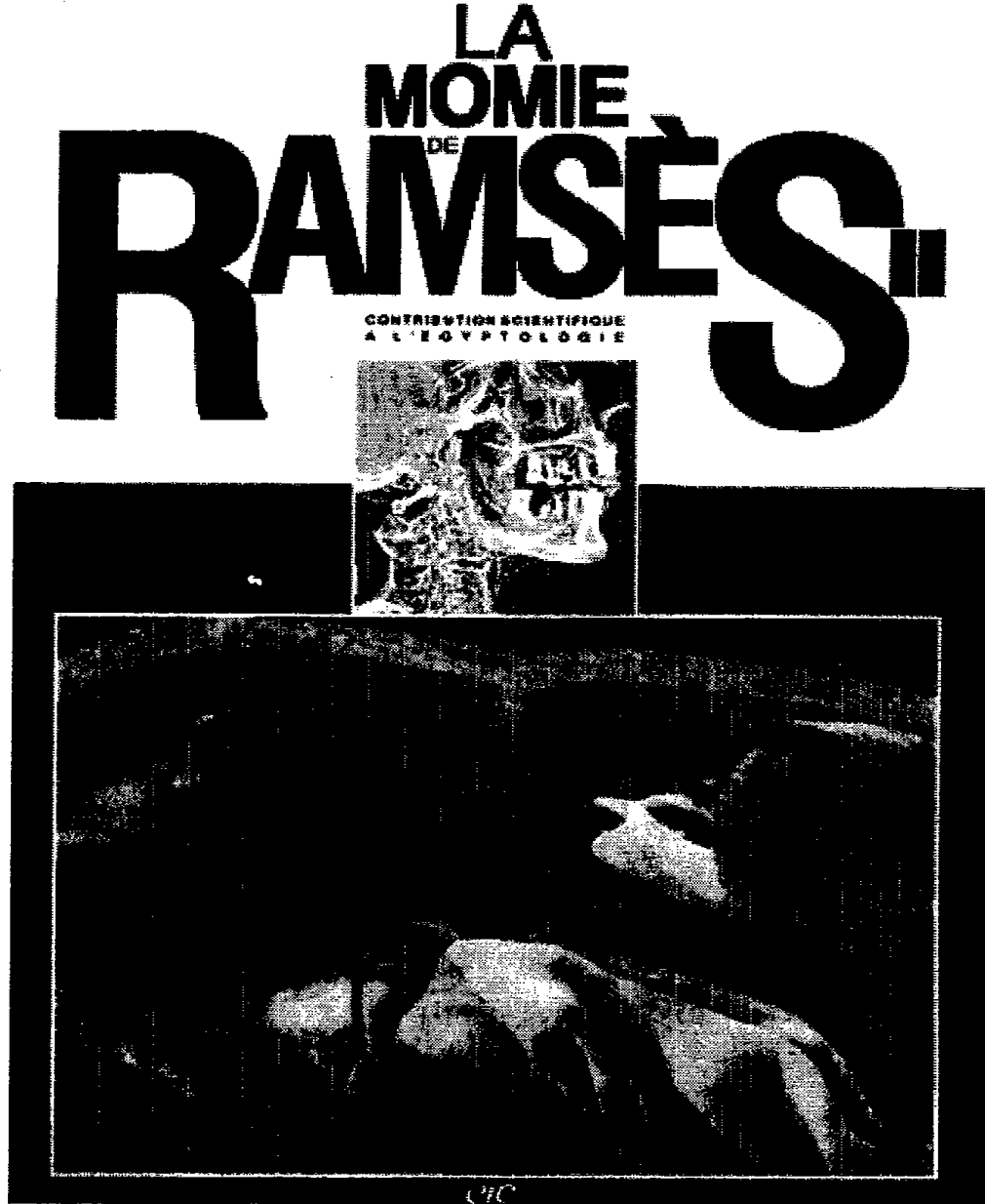
● دراسات عن المواد النباتية المستخدمة فى لفائف الأكفان والتى استخدمها قدماء المصريين عند تحنيط رمسيس بعد موته . ومن الطريف أن نذكر هنا أن عالم الآثار « ماسبيرو » وصف هذه الأكفان بأنها مصنوعة من قماش الكتان الرقيق الذى يشبه المسلمين الهندى الشفاف فى طراوته ونعومة ملمسه . . ومن الطريف أيضا أن فحص وتحليل المواد النباتية بأدق الأجهزة العلمية الحديثة أثبت وجود بقايا نبات « النيكوسيانا » المعادل للنيكوتين فى داخل التجويف البطنى للمومياة ، وهو أمر أثار دهشة العلماء .

● تمت دراسة مستفيضة بالمجهر الإلكترونى وبالأشعة السينية وبأشعة الليزر وبمطياف الكتلة وبالتنشيط النيترونى لجميع خواص شعر رأس رمسيس وحواجبه ورموشه وذقنه لتحديد الوسائل العلاجية لانقاذ هذا الشعر من التحلل . وقد وصف شعر رمسيس بأنه مموج وذو لون أبيض محمر يميل إلى الصفرة [من أثر الحناء التى استخدمت عند التحنيط] .

● وأجريت البحوث التكنيكية لتحديد عمر المومياة وأعمار جميع المكونات والعناصر النباتية والخشبية الملحقة بالمومياة وتابوتها وذلك باستخدام الكربون ١٤ المشع .

● واعتمد علاج المومياة بصفة أساسية على التعقيم الإشعاعى باستخدام أشعة « جاما » من مصدر « كوبالت ٦٠ » لتخليص المومياة من جميع أنواع البكتريا والفطريات . وقد أجريت هذه العمليات فى « معمل مؤسسة الطاقة الذرية » فى جرينوبل التى تقع بالقرب من باريس .

● ويذكر الكتاب في النهاية أن علاج رمسيس الثاني في فرنسا تم كما لو كان شخصية عالمية هامة جدا على قيد الحياة . . كما أمرت السلطات الفرنسية بتصميم ميدالية تخليداً لذكرى زيارة رمسيس لباريس .



غلاف الكتاب الضخم الذي صدر في فرنسا
عن كيفية علاج مومياء رمسيس الثاني .

أول مرة يذكر فيها اسم إسرائيل في مصر

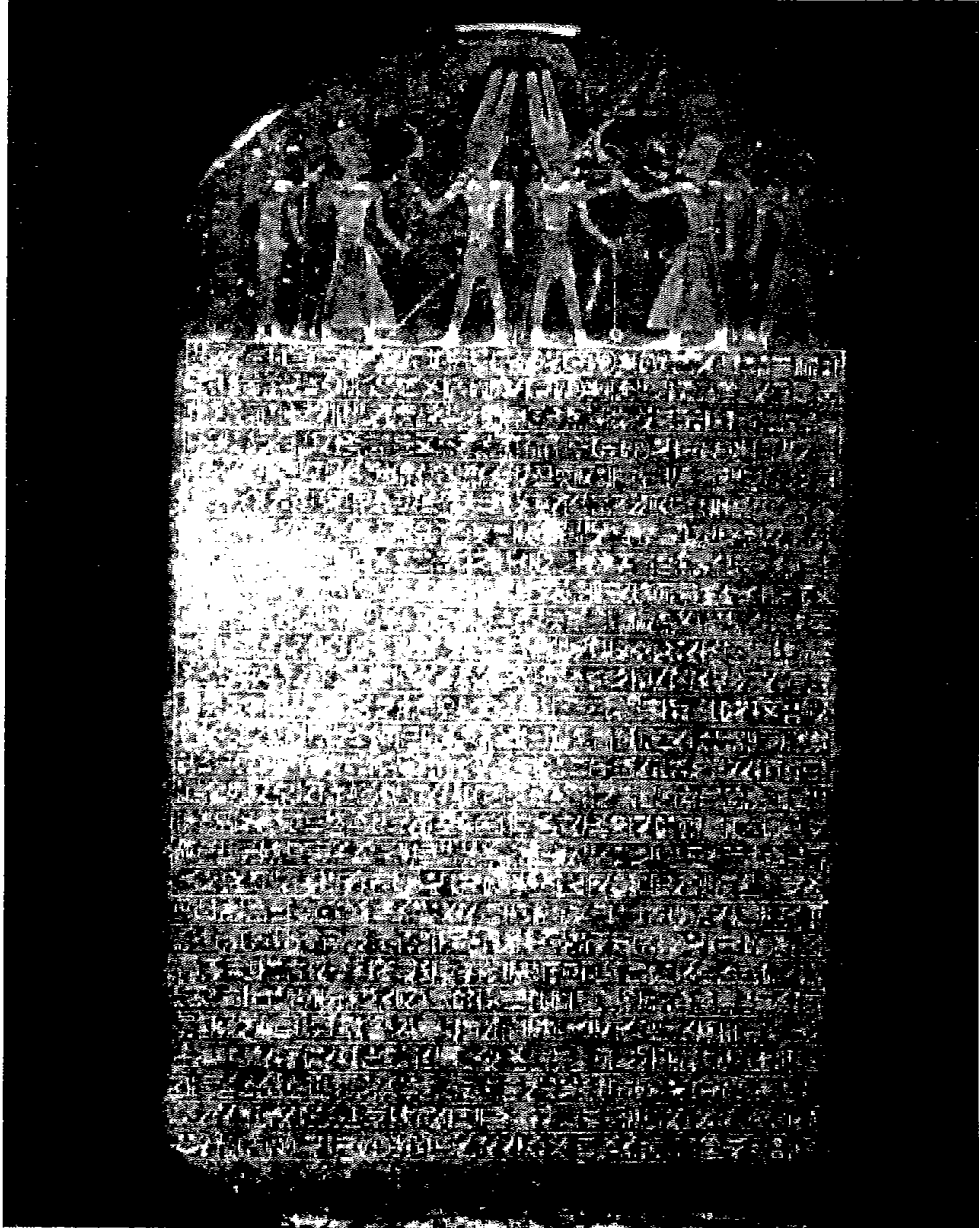
كان المصريون القدماء يطلقون اسم « شاسو » على البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون في المناطق الآسيوية الصحراوية بشمال شرق البلاد ، وعلى الأخص البدو الذين يعيشون في شمال شبه الجزيرة العربية ومناطق جنوب فلسطين .

● وبالنظر إلى المستوى الحضارى الرفيع الذى كانت تتميز به مصر في العالم القديم كله ، فقد كان المصريون القدماء ينظرون إلى هؤلاء البدو الرعاة باعتبارهم شعوبا غير متحضرة وقبائل من الهمج الذين لا يخضعون لقانون أو نظام سوى النظام القبلى البدائى الذى كان يتحكم فى سلوكيات أفراد تلك القبائل كما يتحكم فى عمليات التناحر والتفاخر الأجوف وأعمال السلب والنهب والسطو والاقتال بين القبائل المتجاورة للسيطرة على المراعى العشبية وآبار المياه التى كانت نادرة فى تلك المناطق .

● ومن بين قبائل « الشاسو » هذه قبيلة « اسرائيل » التى وفدت من الشرق واستوطنت إقليم « إفريم » الجبلى ، وهو إقليم منعزل لم يسكنه من قبل إلا نفر قليل . ولم تتميز قبيلة اسرائيل عن غيرها من تلك القبائل البدوية البدائية الهمجية إلا بقدراتها على السلب والنهب وسرقة القبائل المجاورة لها والاختباء بغنائمها فى المنطقة الجبلية الوعرة التى كانت تسكنها .

● أما القبائل البدوية الأخرى ، فقد ورد ذكرها فى الوثائق المصرية القديمة بأنهم كانوا مجموعات من عصابات اللصوص وقطاع الطرق يعرفون المسالك الصحراوية والجبلية الوعرة التى يكمنون فيها متربصين بكل من يمر لممارسة السرقة والسطو والقتل إلى جانب عملهم الرئيسى فى رعى ما يملكونه من ماعز وأغنام .

● وقد اعتادت هذه القبائل أن تغير على المزارع والقرى المصرية الواقعة على أطراف



لوحة الملك مرنبتاح التي ورد بها اسم اسرائيل
لأول مرة في الآثار المصرية .. ويقول أحد
نصوصها : « لقد خربت اسرائيل وقطعت بذرتها » .

شرق الدلتا لتسطو على المحاصيل الزراعية والحيوانات والدواجن التي يملكها الفلاحون المصريون ، ثم يفرون هارين إلى مخابئهم في دروب الصحراء . ولذلك فقد كانت من مفاخر الفراعنة أن يذكروا العمليات الحربية التأديبية التي قاموا بها ضد هذه القبائل من قطاع الطرق واللصوص لتأديبهم ولتبع أذاهم عن مصر . وعلى سبل المثال هناك كثير من المناظر التي تصور رمسيس الثانى وهو يبطأ بقدميه رؤوس رؤساء قبائل « الشاسو » . كما يذكر تاريخ العديد من ملوك الأسرتين ١٩ ، ٢٠ الحملات التي قام بها هؤلاء الملوك ضد هذه القبائل في المواقع التي كانوا يعيشون فيها .

● ومع ذلك فهناك الكثير من الشواهد الأثرية المصرية القديمة تدل على أن بعض تلك القبائل كانت تقوم بحركات هجرة لا تنقطع وتستوطن بعض المناطق في تخوم الدلتا وشرق الأراضى المصرية ، وذلك بسبب فقر البيئة التي كانت تعيش فيها تلك القبائل وماكانت تعانيه من قحط وجوع . وأشهر مثال على ذلك ما قامت به قبيلة بنى اسرائيل التي استوطنت المنطقة التي يسميها التاريخ اليهودى « أرض جوشن » وتقع في « وادى طميلات » بشرق الدلتا .

● وفي أوائل هذا القرن اكتشف عالم الآثار البريطانى « سير فلنדרز بترى » لوحة تذكارية منسوبة إلى الملك « مرنبتاح » أو « منفتاح » وهو ابن رمسيس الثانى ، نقشت عليها أسماء قبائل « الشاسو » التي قام بتأديبها . وقد وردت بهذه اللوحة عبارة تقول «لقد خربت اسرائيل وقطعت بذرتها » . وتعتبر هذه اللوحة الوثيقة المصرية الوحيدة التي جاء فيها ذكر « إسرائيل » لأول مرة في النقوش والمدونات المصرية .

● وقام بعض المؤرخين بتفسير تلك العبارة بالقول بأن الملك « منفتاح » هو « فرعون موسى » الذى طرد بنى اسرائيل من مصر في واقعة « الأكسودس » أو « الخروج » التي ذكرتها التوراة وكتب العهد القديم . . غير أن هذا القول لا يسنده أى سند من التاريخ المصرى القديم ، ومازال فرعون موسى غير معروف حتى الآن على وجه التحديد .

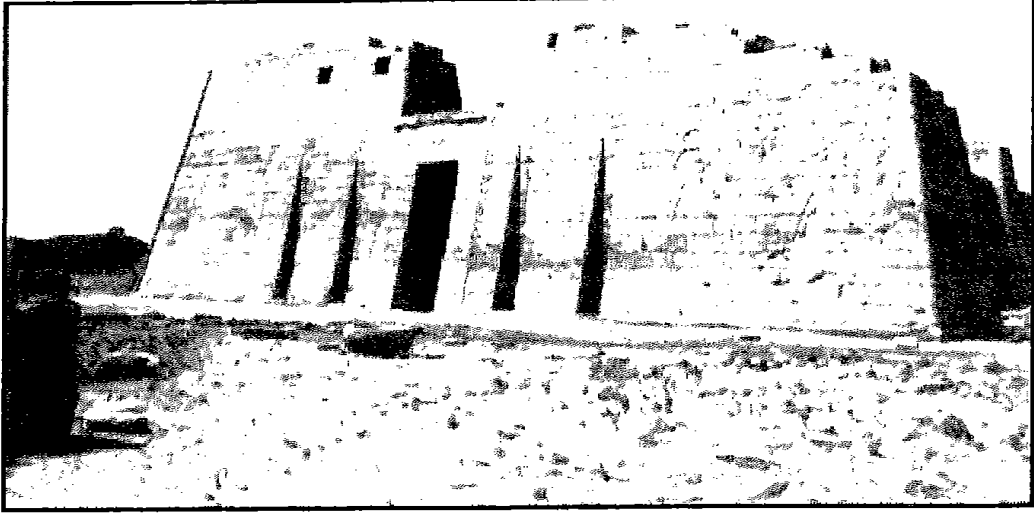
آخر الفراعنة العظام

انتهت الأسرة ١٩ بعد موت رمسيس الثانى وابنه منفتح بمجموعة من الملوك النكرات الضعاف ، إلى أن تولى عرش مصر ملك قوى جمع بين القوة الحربية والمقدرة السياسية التى كان يتميز بها رمسيس الثانى . وأسس هذا الملك الجديد أسرة ملكية جديدة هى الأسرة ٢٠ وهى آخر الأسرات الملكية التى تكونت منها الحقبة التاريخية المعروفة باسم « الدولة الحديثة » .

● وصلت إلينا أخبار وأعمال هذا الملك العظيم فى كتابين كبيرين : الأول منقوش على جدران معبده الجنازى الذى يعتبر أضخم بناء لملك مصرى بقى سليماً وبحالة جيدة ، وهو معبد « مدينة حابو » بغرب الأقصر . والكتاب الثانى عبارة عن وثيقة سجلت أعماله الحربية والسياسية والدينية على بردية يبلغ طولها أكثر من ٤٠ متراً .

● جعل رمسيس الثالث من رمسيس الثانى مثلاً أعلى يقتدى به فى حروبه ومنشأته الدينية والمدنية . . فبمجرد اعتلائه عرش مصر ، بذل كل جهده فى إصلاح الأحوال الداخلية للبلاد والتى كانت قد وصلت إلى حالة سيئة فأصلح الأداة الحكومية ، وأعاد تنظيم الجيش وتجهيزه بالأسلحة القوية ، كما وطد أركان الأمن وزرع الطمأنينة فى صدور الشعب . وهناك نص يشير فيه الملك إلى حالة الأمن والأمان التى سادت فى عهده بقوله : « . . . أصبحت المرأة تسير فى الطرقات وحدها وهى آمنة دون أن تتعرض لأية معاكسة من شرير ! » .

● ومن شدة ولع رمسيس الثالث بسلفه العظيم رمسيس الثانى ، فقد أطلق على أبنائه نفس الأسماء التى أطلقها سلفه على أبنائه العديدين . كما أن ملوك الأسرة العشرين كلهم أطلقوا على أنفسهم اسم رمسيس بدءاً من رمسيس الثالث وانتهاء برمسيس الحادى عشر . ولذلك فقد أطلق المؤرخون اسم « عصر الرعامسة » على فترة حكم هؤلاء الملوك الذين تسموا باسم رمسيس .



مدخل معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو .



منظر من المعركة البرية التي قادها رمسيس الثالث ضد شعوب البحر .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن رمسيس الثالث كان « آخر الفراعنة العظام » الذين حكموا مصر . فقد تقلصت الامبراطورية المصرية بعد عهده وبدأت تفقد سيطرتها بالتدريج على المناطق التي كانت خاضعة للنفوذ المصرى فى آسيا وأفريقيا . بل وبدأت مصر تتعرض باستمرار لغزوات شرسة من جانب قبائل الليبيين وقبائل البدو القادمة من مناطق غرب آسيا بالإضافة إلى قبائل همجية أخرى قادمة من آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط خصوصاً جزيرة صقلية وجزيرة سردينيا التي تدفقت منها قبائل كاملة كان المصريون القدماء يطلقون عليهم اسم « شردانا » . ومن المحتمل أن اسم سردينيا قد اشتق من هذا الاسم المصرى القديم .

● وقد أطلق قدماء المصريين على هذه القبائل اسم « شعوب البحر » وكانت تتكون من عشرات الآلاف من المهاجرين المسلحين الذين جلبوا معهم زوجاتهم وأولادهم وحيواناتهم قاصدين الوثوب إلى مصر واقتحام أراضيها الحافلة بالخيرات الوفيرة من حبوب وفواكه وخضراوات وغيرها من النعم الأخرى من مختلف أنواع الطعام والشراب . ويقول المحللون أن السبب الدافع وراء تفكير جميع هذه القبائل فى غزو مصر هو معاناتهم من الجوع فى بيئاتهم الفقيرة . . ويقول بعض المؤرخين أن « شعوب البحر » ربما كانوا فى الأصل من بلاد القوقاز ثم وفدوا إلى جزر البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

● وتجمعت هذه القبائل كلها فى المناطق السورية والفلسطينية . . ثم تدفقت جموعهم بعد أن تساوت صفوفهم وبدأوا عملية تهديد الحدود الشمالية الشرقية لمصر . وهناك فاجأهم رمسيس الثالث بجيشه القوى وهزمهم هزيمة منكرة . وتصف البردية التى أشرنا إليها هذه المعركة بالقول بأن « جلالته قد انقض عليهم كلهيب النار المنتشر فى هشيم كثيف ، وكالطيور الواقعة فى شبكة الصيد . . فدرسوا كأنهم حزم القمح وأصبحوا هشياً كالقش ، وألقوا على الأرض مخضبين بدمائهم وكانت هزيمتهم ثقيلة لا حد لها كأن جموعهم الكثيفة قد اجتمعت سوياً فى مكان ذبحها ، واقتيد كل من بقى منهم حياً أسيراً إلى مصر » .

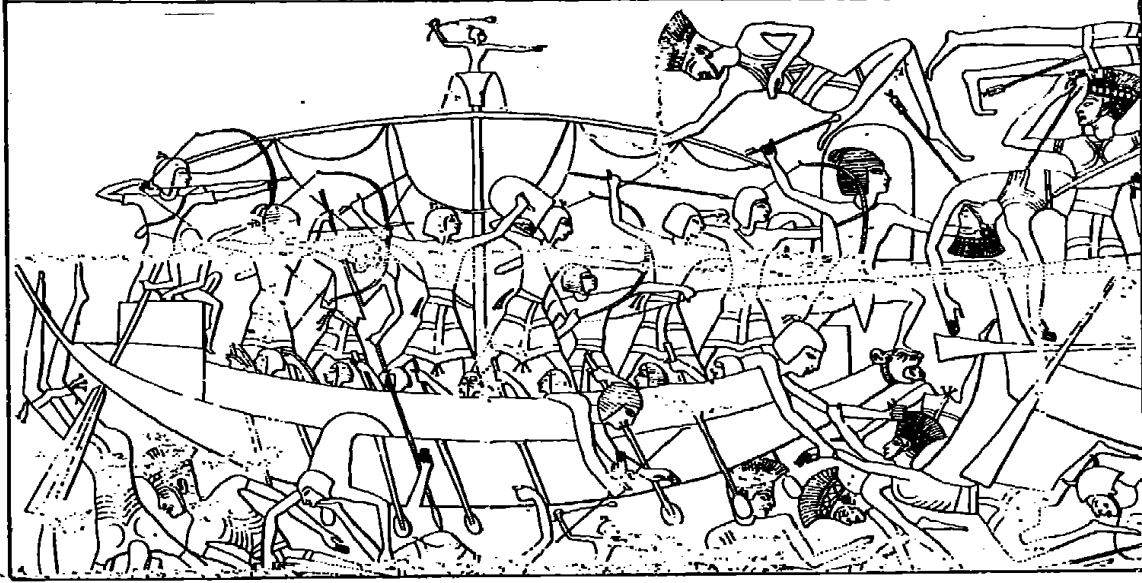
سيناريو أول معركة بحرية في تاريخ العالم

بعد المعركة البرية التي انتصر فيها رمسيس الثالث على جموع القبائل التي كانت تسمى « شعوب البحر » والتي كانت تهدد حدود مصر الشمالية الشرقية ، انصرف الملك إلى معاودة تحسين الأحوال الداخلية للبلاد . . . فأنشأ العديد من المصانع والمعامل ، وازدادت بالتالى عمليات التصدير وازدهرت تجارة مصر الخارجية .

● وفي البردية التي تضمنت الأعمال التي قام بها رمسيس الثالث وأمر بتسجيلها نص بليغ يقول : « . . . وأمر جلالته باقامة العديد من الحدائق والبساتين والمتنزهات العامة ، وبزراعة الاشجار على جوانب الشوارع » . كما واصل أعماله الانشائية الأخرى حيث أمر ببناء عدد من المعابد الدينية في بعض المدن المصرية في الوجهين البحرى والقبلى .

● كما واصل العمل في بناء معبد « مدينة حابو » وهو معبد فريد في مضماره بين المعابد المصرية القديمة ، وكأنه كتاب مصور نقش الملك على جدرانهِ صوراً وكتابات سجل فيها جميع معاركه الحربية التي انتصر فيها ، بالإضافة إلى مناظر عامة للأعياد والاحتفالات الملكية التي حدثت في عهده ، ومناظر للملك وهو يقضى ساعات فراغه في اللهو أو الصيد ، وتقارير عما قدمه إلى الآلهة من قرابين تتضمن الأراضي التي أوقفها على المعابد وأعداد أسرى الحرب الذين قدمهم عبيداً إلى تلك المعابد .

● ويضم معبد مدينة حابو بين جدرانهِ بناءً للقصر الملكى الذى كان يعيش فيه الملك مع زوجاته وأولاده ، وكان هذا القصر موصولاً ببناء آخر يباشر فيه الملك أعماله الحكومية والخاصة بشئون الدولة ، بالإضافة طبعاً إلى المعبد الجنائزى الذى كان مخصصاً للممارسات الدينية .



منظر من المعركة البحرية التي خاضها
الاسطول المصرى بقيادة رمسيس الثالث
ضد شعوب البحر .

● غير أن هذه الأوضاع المستقرة لم تستمر لفترة طويلة ، إذ وصلت إلى المخابرات الحربية المصرية أخبار تفيد بأن جموعاً أخرى من شعوب البحر يجhezون أنفسهم للتهديد بغزو مصر ، وانهم ينوون استخدام السفن للدخول إلى البلاد عبر مصبات النيل في شمال شرق الدلتا . وعلى الفور أمر رمسيس الثالث باستنفار الجيش استعداداً للمعركة القادمة .

● ويقول المؤرخون أن هذه المعركة تعتبر أول معركة بحرية كبرى في تاريخ العالم . وقد جاء وصف « تقريرى » لتلك المعركة في البردية التى يبلغ طولها نحو ٤٠ متراً والتى أشرنا إليها سابقاً . كما جاء وصفها « التصويرى » منقوشاً على جدران معبد مدينة حابو . . وهو وصف عبارة عن « سيناريو كامل » يتضمن مجموعة من المناظر تظهر فيها خمس من سفن شعوب البحر الأعداء ، تطاردها أربع من السفن الحربية المصرية ، تلقى على سفن الأعداء سهاماً وحراباً كالطير الغزير ، فيتساقط الأعداء بين قتيل وجريح ، ويسقط بعضهم غريقاً في ماء النيل . . كما تقوم السفن المصرية بأسر الأعداء بعد تدمير وأسر سفنهم .

● ومن الواضح أن الفنان الذى أشرف على تصميم مناظر تلك المعركة البحرية قد التزم بالنص التقريرى الذى ورد بالبردية حيث نقرأ قول الملك : « . . . هؤلاء الذين وصلوا إلى حدودى أفنيت بذرتهم وقضيت على قلوبهم وأرواحهم إلى أبد الأبدى . أما الذين جاءوا من البحر فان اللهب المشتعل [وهو الاسم الذى يصف به الملك أسطوله الحربى] كان ينتظرهم عند مصبات النيل ، فى حين أن « سور الحراب والسهام » قد أحاط بهم على الشاطئ وانتهى بهم الأمر بأن أصبحوا محاصرين ومطروحين أرضاً وهم قتلى وامتعتهم سقطت فى الماء » .

● واستمر حكم رمسيس الثالث « آخر الفراعنة العظام » نحو ٣١ سنة ، وانتهت حياته نهاية درامية محزنة ، نتيجة لمؤامرة نسائية دبرتها إحدى زوجاته لكى يتولى العرش ابنه منها . وقد حوكت تلك الزوجة هى وشركاؤها أمام هيئة قضائية من بعض الكهنة وكبار رجال الدولة .

أول إضراب عمالي في تاريخ العالم

يبدو أن بذور التحرر الانساني التي غرسها أخناتون بما كانت تتضمنه من القول بأن البشر وجميع المخلوقات سواء أمام الله ، قد استقرت في وجدان الشعب المصرى بجميع طبقاته بل وبين أقل هذه الطبقات شأنًا .

● ومنذ نهاية الأسرة ١٨ وتولى ملوك الأسرتين ١٩ ، ٢٠ عرش مصر [أى على مدى نحو ٣٥٠ سنة] ازدهرت طبقة الفلاحين والعمال المصريين وخففت عنها الضرائب وأعطيت الكثير من الحقوق الانسانية والضمانات الاجتماعية .

● وقد تميز عصر الدولة الحديثة كله بازدهار الصناعات المصرية كما أدى ازدهار التجارة الخارجية إلى استيراد الكثير من المصنوعات الأجنبية التى أخذت تتدفق إلى الأسواق المصرية . لذلك فقد زادت تطلعات مختلف طبقات الشعب إلى مزيد من تلك السلع والحاجيات المصرية والأجنبية ، فارتفعت الأسعار فى الأسواق ، وبدأ العمال والحرفيون يشعرون بأن الأجور التى يحصلون عليها لم تعد تناسب الجهد الذى يبذلونه ، ولم تعد تتماشى مع تكاليف المعيشة التى ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل فى العصور السابقة .

● لذلك كله لم يكن غريباً أن يقوم العمال بالاضراب عن العمل للمطالبة بزيادة أجورهم ورواتبهم ومخصصاتهم العينية . ويصف المؤرخون هذه الواقعة بأنها أول تسجيل تاريخى فى العالم لعملية اضراب العمال للمطالبة برفع الأجور . وقد تكرر حدوث الإضرابات العمالية فى عصر الرعامسة . ولحسن الحظ فقد تم العثور على بردية أطلق عليها المؤرخون اسم « بردية الإضراب » تصف لنا وقائع إضراب عمالى حدث فى السنة التاسعة والعشرين من حكم رمسيس الثالث .

● وقبل أن نعرف تفاصيل هذا الإضراب نشير إلى أن معظم — إن لم يكن جميع —

الملوك والفراعنة المصريين كانوا يفخرون بأنهم كانوا يعطون للعمال والفلاحين حقوقهم ، ويمنعون عنهم السخرة أو تشغيلهم دون أجر . وكانت السلطة المركزية للدولة المصرية تتبع نظام التكافل الاجتماعى العام ، وهو نظام اقتصادى يشبه كثيراً النظام الذى اصطلح علماء الاقتصاد المحدثون على تسميته باسم « النظام الاقتصادى الاشتراكى للمجتمعات الفلاحية والعمالية » . وكان هذا النظام مطبقاً طوال التاريخ المصرى القديم على جميع العمال والفلاحين الذين يعملون لحساب الدولة [القطاع العام] .

● وكانت الأجور تصرف فى شكل « جراية » أو مخصصات عينية . وعلى سبيل المثال هناك نص مكتوب يتضمن أنواع الجرايات الوفيرة التى كانت تصرف بأمر رمسيس الثانى لكافة العمال الذين يعملون فى مشروعاته ، كالملابس والحبوب والخضراوات والفواكه والزيت واللحوم والأسماك ، بل وكانت تصرف لهم أيضاً حصصاً من العطور وكان من المفروض أن تكون الجراية كافية تماماً لسد حاجات العامل وأسرته التى يعولها .

● وفى أواخر عهد رمسيس الثالث أعلنت بعض فئات العمال عن سخطها الشديد بسبب ارتفاع الأسعار وقلة الجرايات لمدة شهرين متواليين ، الأمر الذى أدى إلى تجمع العمال ، وكانوا من النحاتين والحفارين وقاطعى الأحجار والبنائين وصناع الجبس والفخار والنجارين وحملة الماء [السقاين] وتظاهروا أمام معبد مدينة حابو وأعلنوا شكواهم قائلين [حسب نص بردية الاضراب] : « ليس لدينا ملابس ولا زيت ولا سمك ولا خضر . . إرسلوا للفرعون سيدنا العظيم هذه الشكوى . . وإرسلوها أيضاً إلى رئيسنا الوزير حتى يمدنا بما نعيش به . . إننا سنجلس هنا حتى تجاب مطالبنا » .

● ونفهم من نص البردية أن الوزير وكان اسمه « تو » قد تدخل فى الأمر وقام بتهدئة العمال وشرح لهم المتاعب الاقتصادية التى تعانىها الدولة ، ولذلك فلم يستطع الوزير أن يلبي جميع مطالبهم وأقنعهم بالرضاء وقبول نصف الحقوق التى كانوا يطالبون بها .

● وقد تكررت ظاهرة إضرابات العمال فيما بعد حتى أصبح الإضراب عن العمل سلاحاً تستعمله طبقة العمال المصريين القداماء للحصول على أجورهم المناسبة وحقوقهم المشروعة .

أول محضر تحقيق بوليسى فى تاريخ العالم

بعد موت رمسيس الثالث وحتى نهاية الأسرة العشرين بنهاية عهد رمسيس الحادى عشر ، وصلت الأحوال الداخلىة للبلاد إلى حالة متدنية من السوء . . فقد أوشكت خزينة الدولة على الافلاس بعد أن أنهكتها الحروب المتواصلة طوال عصر الامبراطورية المصرية .

● وازدادت أحوال البلاد سوءاً بسبب ازدياد أعداد الجاليات الأجنبية التى استوطنت مصر ، خصوصاً من الليبيين ، سواء من القبائل المهاجرة التى قدمت عن طريق الصحراء الغربية ، أم من سلالات أسرى الحروب الذين استقروا كعبيد فى البداية ، ثم اندجت سلااتهم بعد ذلك فى المجتمع المصرى . وكان هؤلاء الأجانب من أكبر عوامل الفوضى التى سادت البلاد فى ذلك العصر .

● وقد أدى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى كثرة القلاقل والاضطرابات والإضرابات ، وإلى انتشار الجرائم بأشكالها المختلفة .

● كذلك فقد أدى ضعف الفراعنة إلى ضعف نظام الحكم فى الدولة وإلى استثناء الفساد بين الوزراء وحكام الأقاليم وكبار رجال الدولة بصفة عامة ، كما استشرى الفساد أيضاً بين العمال وصغار موظفى الحكومة وانتشرت بينهم جرائم الرشوة والسرقة والاختلاس .

● بل وصل الفساد أيضاً إلى كهنة المعابد ورجال الدين ، فارتكبوا الجرائم وهم معتمدين على ما يتمتعون به من حصانة ومكانة خاصة تعفيهم من المساءلة والحساب والعقاب . وفى متحف « تورين » بريدية مصرية قديمة يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، تتضمن تقريراً عن الجرائم التى ارتكبها أحد كبار كهنة معبد جزيرة إلفنتين بأسوان من

سرقة ورشوة وانتهاك حرمة المعبد الدينى واغتصاب زوجات وبيع بعض مقتنيات المعبد التى كانت موجودة فى عهده .

● وفى ذلك العصر أيضا انتشرت سرقة مقابر الفراعنة ومقابر النبلاء . وقام كبار اللصوص بتكوين العصابات التى تخصصت فى اقتحام هذه المقابر لنهب ما تحتويه من كنوز الذهب والفضة والتحف الثمينة . ومن الغريب أن بعض « محاضر التحقيق » التى أجريت لتلك الجرائم يمكن أن نستشف منها أن كبار موظفى الدولة كانوا يراوغون فى تأدية واجباتهم ويلفون المحاضر المغرضة ، وذلك لأنهم كانوا ذوى مصلحة مع هذه العصابات من لصوص المقابر .

● وقد وصلت إلينا عدة برديات بعضها محفوظ حالياً فى متحف تورين وبعضها الآخر فى المتحف البريطانى . وتتضمن هذه البرديات محاضر التحقيقات التى أجريت مع بعض عصابات لصوص المقابر الملكية ، وهى محاضر تقترب كثيراً من شكل ومضمون محاضر البحث والتحقيق الجنائى التى تجرئها سلطات الشرطة والنيابات العامة فى الدول الحديثة .

● وبدراسة أحد هذه المحاضر يتبين لنا أن القضية بدأت ببلاغ قدمه حاكم طيبة / الأقصر الشرقية إلى الوزير الأول يبلغه فيها بتقصير حاكم طيبة الغربية ، حيث توجد مقابر الملوك والنبلاء ، وانتشار عصابات اللصوص الذين ينهبون تلك المقابر . . فأمر الوزير على الفور بتشكيل لجنة للتحقيق فى هذا البلاغ ولعناية المقابر على الطبيعة .

● وقامت اللجنة باصدار أوامرها بضبط واحضار المتهمين والمشتبه فيهم والتحقيق معهم . وأجرى التحقيق مع المتهمين بعد تعذيبهم بتكتيفهم بالحبال وتقييد أرجلهم وأيديهم وضربهم بالعصى وتهديدهم بجذع أنوفهم وبتراذلهم ووضعهم على الخازوق . . وقد اعترف بعض المتهمين باقتحام مقابر بعض الملوك والنبلاء وسرقة كل ما كانت تحتويه هذه المقابر من ذهب وفضة ومجوهرات وأحجار كريمة . . كما اعترفوا بأنهم كانوا يحرقون المقابر بعد سرقته . وقام اللصوص بتمثيل الأدوار التى قام به كل منهم أثناء ارتكاب الجريمة وفى نفس موقع الجريمة .

● أليست هذه الاجراءات هى نفسها اجراءات التحقيق التى تقوم بها السلطات البوليسية وسلطات المباحث الجنائية فى معظم أنحاء العالم الحديث . . !؟ .

المصريون القدماء أول المشرعين في العالم

بعد أن استطاع جان فرانسوا شامبليون حل رموز وألغاز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ ، أسفرت مصر القديمة عن وجهها الحضارى العظيم ، وتكشفت مجموعة من الحقائق التاريخية المسجلة فى النقوش الجدارية والبرديات ، أجبرت العلماء والمؤرخين على إعادة النظر فى الكثير من الأخطاء والأفكار والنظريات التى كانت سائدة فى مختلف العلوم والدراسات .

● ومن الأخطاء التى كانت سائدة فى علم « تاريخ القانون » بعض الآراء التى تقول بأن الملك البابلى هامورابى [١٧٥٠ ق م] هو أول المشرعين فى التاريخ القديم . . وآراء أخرى كانت تقول بأن « قوانين مانو » التى كان ينص عليها مذهب البراهمة فى الهند القديمة هى أقدم قوانين العالم . . ورأى ثالث يقول إن فكرة التشريع أو وضع القوانين ترجع إلى الخطيب المفوه والحكيم والمشرع الإغريقى صولون [٦٣٠ - ٥٦٠ ق م] . . ورأى رابع وأخير كان يؤكد أن قانون الألواح الإثنى عشر والقانون الرومانى بصفة عامة هو الأب الروحى لفكرة القانون أو التشريع فى العالم القديم والعالم الحديث على حد سواء .

● غير أن المؤرخين وعلماء « تاريخ القانون » المحدثين قد أعادوا النظر فى كل هذه الأخطاء بعد أن دلت الشواهد الأثرية بصفة قاطعة على أن المصريين القدماء كانوا أول المشرعين فى العالم القديم كله . وذلك بعد أن ثبت من الدراسات المقارنة أن الغالبية العظمى من القواعد والأحكام القانونية المقررة التى كانت تتضمنها القوانين الرومانية ترجع فى أصلها إلى جذور قانونية مصرية .

● وتدل النقوش والكتابات الأثرية على أن الملك مينا موحد الوجهين البحرى والقبلى ومنشئ الدولة المصرية ذات الحكومة المركزية الموحدة [عام ٣٢٠٠ ق م] هو أول من نشر القوانين المصرية المتوارثة والتى كانت عبارة عن أوامر إلهية صدرت عن الإله



جان فرانسوا شامبليون



الجميع فى الحياة الأخرى سواء .. يوزن قلب الميت لمعرفة حسناته وسيئاته .

رع والإله أوزيريس وقام بصياغتها الإله تحوت . وفى ذلك تقول النصوص المصرية القديمة أن العدالة « ماعت » نبتت من فكر الإله رع الذى كان يحكم بالعدل ، وينصف المظلوم وصاحب الحق ، ولا يقبل هدايا ولا رشوى من الظالمين أو ممن يجور على حقوق الآخرين .

● ولما كان نظام الحكم فى مصر القديمة يقوم على أساس تطبيق فكرة « ماعت » التى كانت ترمز إلى الحق والخير والصدق والعدالة ، فقد كانت القوانين المصرية التى صدرت خلال جميع العصور التاريخية التى كان يتكون منها تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، تتوخى تطبيق فكرة العدالة المطلقة والمساواة المطلقة أمام القانون دون أى تمييز للأغنياء على الفقراء أو تميز النبلاء على أفراد الشعب العاديين من عمال وحرفيين وفلاحين .

● وفى هذا الشأن يقول المؤرخ القديم ديودور الصقلى الذى كان معاصراً لعهدى يوليوس قيصر وأغسطس فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد ما معناه أن العقوبات والأحكام المقررة بالقوانين المصرية كانت تطبق على جميع الناس دون فرق بين من يملك الثروة أو من لا يملك شيئاً على الإطلاق ، ودون تفرقة بين الأحرار والعبيد .

● وقد تأكدت فكرة المساواة بين المصريين فى أعقاب الثورة الشعبية التى قام بها المصريون ضد نظام الحكم بعد سقوط الدولة القديمة فى نهاية عصر الأسرة السادسة [٢١٤٠ ق م] . . فقد كان نظام الحكم آنذاك يقرر حق « الخلود » فى العالم الآخر للملوك وطبقة النبلاء وحدهم ، ولم يكن هذا الحق مقررأ لأفراد الشعب العاديين .

● وقد استمرت تلك الثورة التى يعتبرها المؤرخون أول ثورة شعبية عامة فى تاريخ العالم أكثر من قرن كامل شهدت خلاله البلاد فوضى سياسية إلى أن بدأ عصر « الدولة الوسطى » عام ٢٠٢٢ ق م . . وخلال تلك الثورة طالب الأفراد العاديون من الشعب المصرى بحقوقهم فى خلود أرواحهم فى العالم الآخر ، وقد حصلوا على هذا الحق وأصبح الجميع على قدم المساواة . . فى العالم الآخر أو خلال الحياة الدنيا .

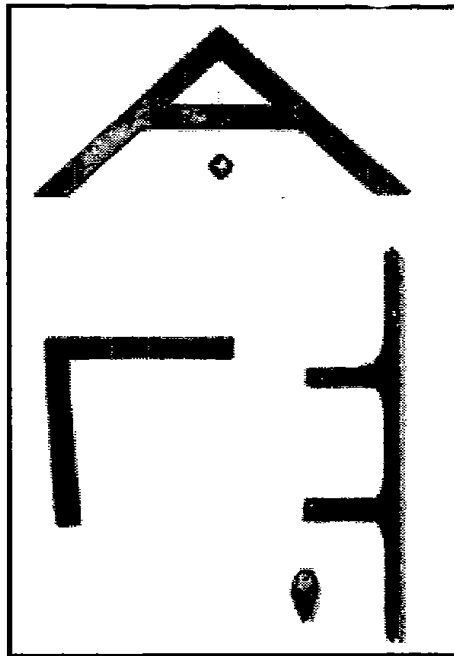
أول من عرفوا الهندسة والحساب والعلوم الرياضية

يعترف الكثيرون من العلماء والمؤرخين بأن الآثار المصرية القديمة تدل بصفة قاطعة على أن المصريين القدماء كانوا يعرفون مبادئ وقواعد الهندسة وعلم الحساب . ولكن بعض هؤلاء العلماء - خصوصاً في القرن التاسع عشر - كانوا يعتقدون أن معارف ومعلومات قدماء المصريين كانت قائمة على التجارب والخبرات العملية والتطبيقية ، ولم تكن لديهم علوم نظرية قائمة على المنهج العلمى المعروف في حضارتنا الحديثة .

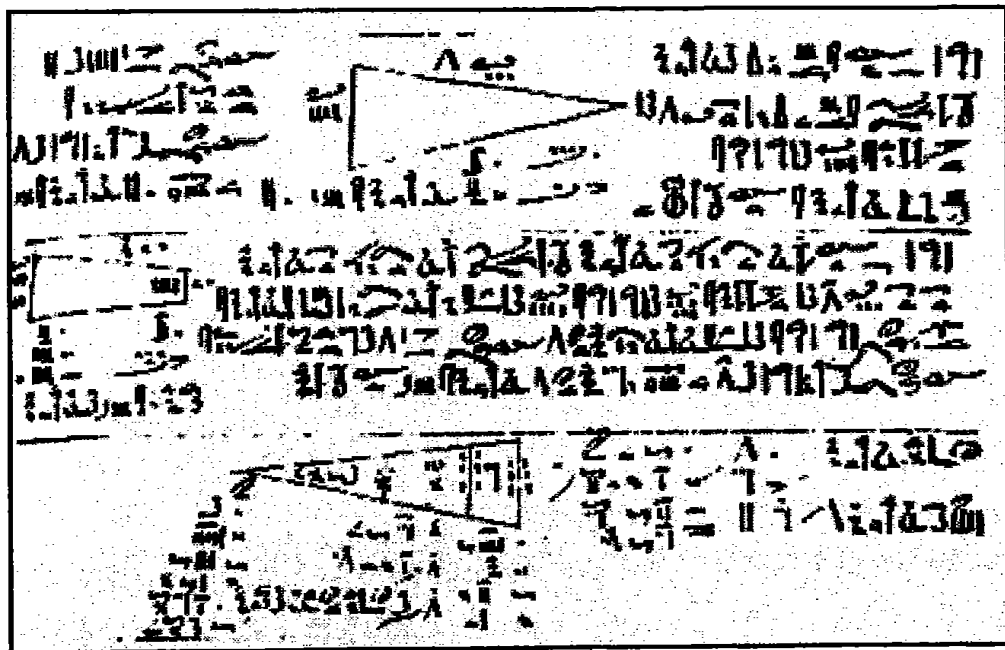
● وقد انبرى علماء ومؤرخون آخرون لدحض هذا الرأى ، أثبتوا بالأدلة والشواهد الأثرية أن المصريين القدماء كانت لديهم علوم نظرية وبحوث علمية قائمة على المنهج التجريبي ، وإن كانت تختلف عن قواعد البحث العلمى التى توصل إليها الانسان تباعاً ويطبقها الآن في عصرنا الحديث .

● ويقول هيرودوت في هذا الشأن : « إن المصريين يتفوقون في العلوم على كل الشعوب الأخرى . . وانهم كانوا يلاحظون حدوث الظواهر الطبيعية ويسجلون النتائج التى تسفر عنها ، فإذا تكرر حدوث هذه الظواهر مرة أخرى كانوا يعرفون أن نتائجها ستكون مشابهة للنتائج السابقة » . . ويعتبر هذا القول في حد ذاته تأكيداً لوجود نوع من المناهج العلمية التجريبية التى كان يطبقها المصريون في عصورهم القديمة .

● وتعتبر براعة المصريين القدماء في معرفة وتطبيق العلوم الرياضية نوعاً من المعجزات الحضارية التى حققها الانسان في العالم القديم . وقد وصلت معرفة المصريين بتلك العلوم إلى ذروتها خلال عصر بناء الأهرام في الدولة القديمة [من عام ٢٦٣٥ إلى عام ٢١٤٠ ق م] . وذلك تأسيساً على أنهم إذا لم يكونوا على معرفة مؤكدة بالقواعد والمبادئ النظرية لعلوم الحساب والهندسة لما استطاعوا إطلاقاً إقامة هذه المنشآت الهندسية التى بقيت خالدة حتى الآن .



أدوات هندسية كانت تستخدم في أعمال العمارة والبناء .



معادلات رياضية حسابية وهندسية

● وكان نهر النيل وفيضانه السنوى المنتظم هو المعلم الأول الذى جعل المصريين القدماء يتفقهون فى علم الحساب . . فقد كان لابد لهم من قياس ارتفاع المياه فى مجرى النيل ليعرفوا مستوى كل فيضان . . وعن طريق علم الحساب استطاعوا معرفة الأعداد من آحاد وعشرات ومئات وآلاف وملايين . . وعرفوا قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور البسيطة والمركبة . . واستطاعوا استخدام بعض المعادلات الجبرية .

● وقد استعانوا بقواعد الحساب فى ممارسة شئونهم الحياتية ، سواء فى الزراعة أو فى الأعمال الحكومية كعمليات فرض الضرائب وحساب جبايتها . . الخ .

● ولولا معرفة المصريين القدماء بالقواعد والنظريات الهندسية لما استطاعوا تنفيذ المشروعات العامة الكبرى التى اتسم بها عصر الدولة القديمة ، كإقامة الأهرام الشاهقة وبناء المعابد الضخمة ونحت المقابر بداخل بطن الجبل وإقامة الصوامع وحفر الترع وتخطيط وإنشاء المدن .

● ولحسن الحظ فقد تم العثور على العديد من البرديات والنقوش الجدارية التى تؤكد معرفة المصريين القدماء بكيفية تحديد المساحات والزوايا والمحيطات ، وتحديد مساحة المثلثات والمربعات والمستطيلات والدوائر . . ويعرفون كيفية قياس محيط الدائرة وعلاقته بقطرها . . ويعرفون تحديد وقياس الأحجام والتكعيبات للأشكال الاسطوانية والأشكال الهرمية . . كل ذلك باستخدام قواعد ومبادئ العلوم الرياضية التى عرفوها وطبقوها قبل أن يعرفها أى شعب آخر من شعوب العالم القديم كله .



إزدراء الملوك والسخرية بالحكام في مصر القديمة

من المعروف أن الفراعنة وملوك مصر القدماء ألهوا أنفسهم ليستمدوا من نظرية ادعاء الألوهية حقهم في الملك وتوارثه في ذرياتهم . ومن المعروف كذلك أن ملوك أوربا حتى عهد قريب كانوا يسندون حقهم في حكم الشعوب على أساس الادعاء بأنهم ظل الله في الأرض .

● وفي مصر القديمة كان الملوك والفراعنة منزهين عن المساءلة ، وكانت ذواتهم مصونة لا تمس ، وكانوا محل احترام وتقديس من كافة طبقات الشعب من نبلاء وكتاب وفنانين وموظفين وعمال وحرفيين وفلاحين . وذلك الاحترام والتقديس كانا نابعين من الاعتراف بأعمالهم العظيمة الظاهرة ، وإقامتهم العدل بين الناس ، وقيادتهم للحملات العسكرية التي يؤدّبون بها أعداء البلاد ، ودفاعهم عن أمن الشعب وسلامته ، ورفعهم لاسم مصر خفاقاً بين دول وشعوب العالم القديم كله .

● ومع ذلك تدل الحقائق التاريخية والأثرية على أن بعض الملوك والفراعنة الذين حكموا مصر خلال بعض فترات ضعفها كانوا لا يستحقون الاحترام ولا التقديس . . فكيف يحترم الشعب ملوكاً ضعافاً إذا قارنهم بغيرهم من الملوك والفراعنة والأقوياء العظام . . ؟!

● وفي أواخر عصر الرعامسة [الأسرة العشرون ١١٩٦ - ١٠٨٠ ق م] بدءاً من عهد رمسيس الخامس حتى رمسيس الحادى عشر ، تقلصت حدود الامبراطورية المصرية ، وضاعت الأقاليم السورية التي كانت تحت النفوذ المصرى ، وظهرت دولة الأشوريين الفتية واستقلت جميع الأقاليم الآسيوية التي ظلت تحت الحكم المصرى لمئات من السنين منذ فتوحات ملوك الأستين ١٨ ، ١٩ .

● وبالتالي فقد ضعفت سلطات الملوك والحكام ، وقلت هيبتهم في أعين الشعب ، وساءت الأحوال الداخلية في البلاد ، وساد عدم الاستقرار السياسى ، ونشبت صراعات وحروب أهلية ، وانتشرت عصابات اللصوص تنهب مقابر الفراعنة السابقين وما كان فيها من كنوز ، وكثرت إضرابات العمال للمطالبة بأجورهم وتحسين أحوالهم المعيشية ، ولم تعد الشرطة المصرية قادرة على السيطرة على العصابات أو قادرة على استتباب الأمن ، بل وكشفت بعض التحقيقات المدونة بالبرديات عن تواطؤ الوزراء وكبار موظفى الدولة مع بعض العصابات .

● ولما كانت الحضارة العظيمة التى حققها الشعب المصرى فى التاريخ القديم قد جعلت منه شعباً واعياً بتاريخه وذكياً لماحاً ، كما أن الخير العميم واتساع الأرزاق قد أثرا فى الحس الشعبى العام بالرفاهية والحياة السلسة الحافلة بكل مظاهر ومسببات الرضا والطمأنينة ، لذلك فقد كان الشعب المصرى بكل طبقاته حساساً ضد كل من يمس حياته الراضية المطمئنة . وكانت له « هبات » جماعية فى شكل ثورات عنيفة فى أحيان قليلة ، كما كانت له نكاته وتعليقاته الساخرة التى يتداولها سرّاً فى أغلب الأحيان .

● وللأسف الشديد فلسنا نعلم شيئاً عن هذه النكات أو التعليقات الساخرة لأنها اندرست وضاعت بموت قائلها وناقليها وسامعيها ، واختفت باختفاء الأسباب والمناسبات التاريخية التى كانت محل التنكيت والسخرية . ومع ذلك فقد حفظ لنا الزمن أدلة أثرية قاطعة على وجود هذا المنهج الفلسفى فى السخرية ، فقد تم العثور على بعض الأعمال الأدبية والفنية التى اتخذت من ازدراء الملوك والسخرية بالحكام موضوعات لها .

● ويتضمن الأدب المصرى القديم قصصاً وحكايات عن حيوانات تتكلم وتتصرف مثل البشر ، وترمز إلى ملوك - أو حكام ضعاف ، لا يقيمون العدل ويظلمون الناس ، وينافقون أعداء البلاد ويخطبون ودهم . وعلى هذا يمكن القول بأن الأدب المصرى القديم قد سبق منهج كليله ودمنة بأكثر من ألف سنة . كما سبق « الحكايات المنظومة » التى ألفها الشاعر الفرنسى لافونتين [١٦٢١ - ١٦٩٥ م] - وهى حكايات قصيرة على لسان الحيوانات .

● أما الرسوم الكاريكاتيرية التي عبر بها الفنانون المصريون القدماء عن ازدراءهم بالملوك الضعاف وسخرتهم بالحكام ، فهي كثيرة ولها موضوع آخر .



قط يحرس طيور البط ا



البردية الكاريكاتيرية عن القحط التي تخدم فاراً .

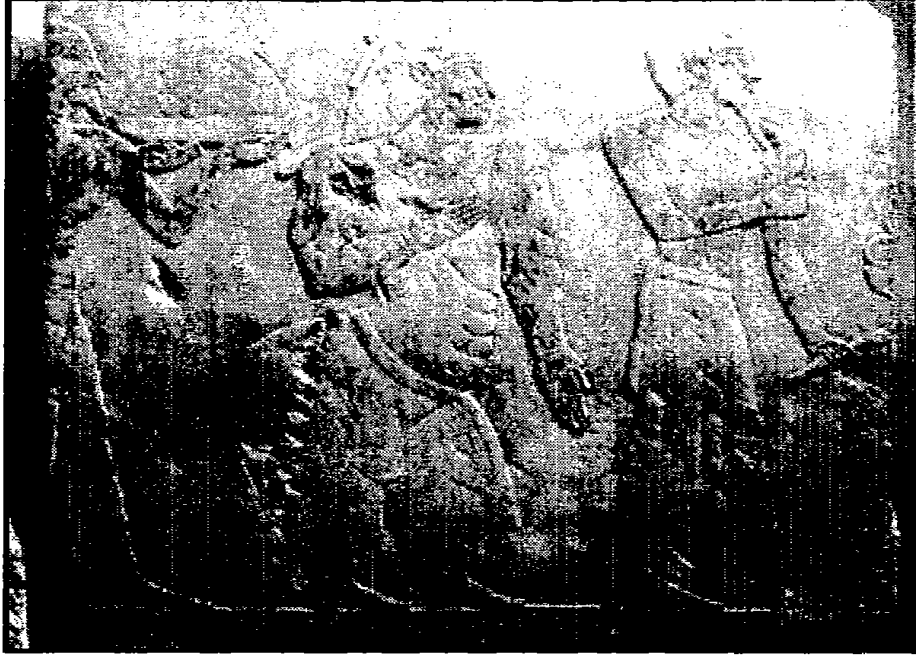
فن الكاريكاتير .. اختراع مصرى قديم :

على أحد جدران معبد الدير البحرى الذى شيده الملكة حتشبسوت حين تولت حكم مصر فى الفترة بين عامى ١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق م ، نقش لمنظر طريف لفت كل الأنظار ، وهو يصور ملك وملكة بلاد بونت ، وهى البلاد التى وصلت إليها سفن الأسطول التجارى المصرى فى أول رحلة تجارية بحرية تم تسجيلها بالتفصيل فى تاريخ العالم .

● وفى تلك الصورة نرى رئيس بلاد بونت أو ملكها المدعو « برحو » ووراءه زوجته الملكة المدعوة « إيتى » وهى امرأة بدينة جدا بالغ الفنان المصرى فى تصوير ساقىها القصيرتين وفخذيها الضخمتين ورد فيها الثقيلتين وجلد بطنها المرتخى فى شكل طيات فوق طيات . ونرى فى هذا المنظر أيضا ولدين وبناتاً من أبناء ملك وملكة بونت وجميعهم ضخام الأجسام مثل أمهم . . أما التعليق الطريف الذى سجله الفنان المصرى على هذا المنظر فقد كتبه فوق حمار ونصه : « الحمار الذى كان يحمل زوجته [أى زوجة ملك بونت] » .

● ويقول الكثيرون من مؤرخى الآداب والفنون أن هذا المنظر يعتبر أول رسم كاريكاتيرى فى تاريخ العالم . وربما دفعتهم إلى هذا القول شهرة هذا المنظر المنقطع النظير ومكان وجوده فى هذا المعبد الفريد فى طرازه بين المعابد المصرية . غير أن بعض المؤرخين الآخرين يقولون ان الفنانين المصريين القدماء ابتدعوا التعبير الكاريكاتيرى فى رسوم ونقوش وتمائيل يرجع تاريخها إلى ما قبل عهد حتشبسوت بمئات السنين .

● ويستند هؤلاء المؤرخون - فى القول بذلك - إلى بعض أعمال النحت والتصوير التى ابتعد فيها الفنانون المصريون القدماء عن صرامة القواعد الفنية التى كانوا يتقيدون بها عند إبداع وتنفيذ الأعمال الفنية الخاصة بالملوك وكبار رجال الدولة والمعابد والمقابر . . ففى بعض الأحيان كان الفنان يلاحظ أن بعض النماذج التى يقوم بتصويرها - رسماً



كاريكاتير ملك ومملكة بلاد بونت



حمار يقود سفينة .

أو نحتاً - خالية من الكمال الذى يجبر على رسمه أو تصويره أو نحته في هيئته الرسمية التقليدية . . عندئذ قد تتولد بداخل الفنان روح السخرية والدعابة والتهكم ، فيستخدم الفنان هذا النقص أو موطن الضعف في هذه النماذج في التعبير عن تلك الروح بقدر كبير من الحرية .

● وقد تم العثور على عشرات الرسوم الكاريكاتيرية التهامية الساخرة التي تعبر في مضمونها الفنى عن عالم مقلوب رأساً على عقب . . ويرجع تاريخ معظم هذه الرسوم إلى أواخر عصر الرعامسة حين ضعفت سلطات ملوك مصر وحكامها واهتزت هيبتهم أمام الشعب وفنانيه . ومن المؤسف أن الغالبية العظمى من هذه الرسوم الكاريكاتيرية معروضة في المتاحف العالمية الأجنبية ، وعلى وجه الخصوص في المتحف البريطانى ومتحف المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو ومتحفى بروكلين و متروبوليتان بنيويورك .

● وفي إحدى البرديات مثلاً نرى رسماً يصور أسداً يلعب الضامة [وهى لعبة مصرية قديمة شبيهة بالشطرنج] مع ظبى . . ويرى المحللون أن الفنان المصرى القديم أراد بهذا الرسم أن يصور الأوضاع المقلوبة وسخريته من الأسباب التي جعلت الأسد الذى قد يرمز إلى حاكم مصر يلعب الضامة مع ظبى من المفروض أنه فريسة سهلة لهذا الأسد . . فهل كان الأسد ضعيفاً إلى هذا الحد . . أم أن الفنان الكاريكاتيرى كان يريد أن يبلغنا بفننه أن الأمور قد تجاوزت حد المعقول إلى اللامعقول . . !؟

● وفي رسم كاريكاتيرى آخر صور لنا الفنان قطاً واقفاً على قدميه الخلفيتين وهو يقوم بخدمة فأر [وهو حيوان معروف بالجبن] ونرى هذا الفأر جالساً على كرسي وهو يرتدى ملابس العظاء . ويقول المحللون الفنيون ان الفنان لمصرى كان يرمز بهذا الرسم إلى السخرية بالأسباب التي دفعت القط وهو الطرف الأقوى في العلاقة بينه وبين الفأر لكى يصبح خادماً ذليلاً يعمل تحت إمرة عدوه اللدود .

● وفي رسم آخر صور لنا الفنان الكاريكاتيرى منظراً لأحد المراكب النيلية يقوم بقيادته حمار كسول . وهو رسم كاريكاتيرى واضح الدلالة على الفكرة القائلة بأن السفينة التي يقودها حمار [وهو حيوان معروف بالغباء] سيكون مصيرها الضلال والتهيه والغرق في نهاية الأمر !

الأدب المصرى .. أقدم آداب العالم

كان هناك اعتقاد راسخ لدى العلماء بأن الحضارة الإغريقية القديمة هي أم الحضارات الراقية ، إلى أن تمكن العالم الفرنسى « شامبليون » من فك رموز وأسرار الكتابة الهيروغليفية ، وأصبح من السهل معرفة كل ما كتبه لنا المصريون القدماء على جدران المعابد والمقابر والأهرام والمصاطب والمسلات واللوحات والنصب التذكارية . . وما دونوه أيضا على مئات الآلاف من أوراق البردى من علوم وفنون وآداب . . وعندئذ أعاد العلماء النظر في مكانة الحضارة الإغريقية بين كل الحضارات القديمة والحديثة ، وأعلنوا الحقيقة التي أصبحت واضحة كالشمس ، وهي أن مصر القديمة هي أم الحضارات جميعاً .

● لقد تبين بصفة قاطعة أن المصريين القدماء هم أول من ابتدع التعبير الأدبى ، وأن مصر هي منبع الأدب والأعمال الأدبية الرفيعة المستوى ، وأن الأدب المصرى القديم أقدم من الأدب الإغريقى بما يزيد على خمسة وعشرين قرناً .

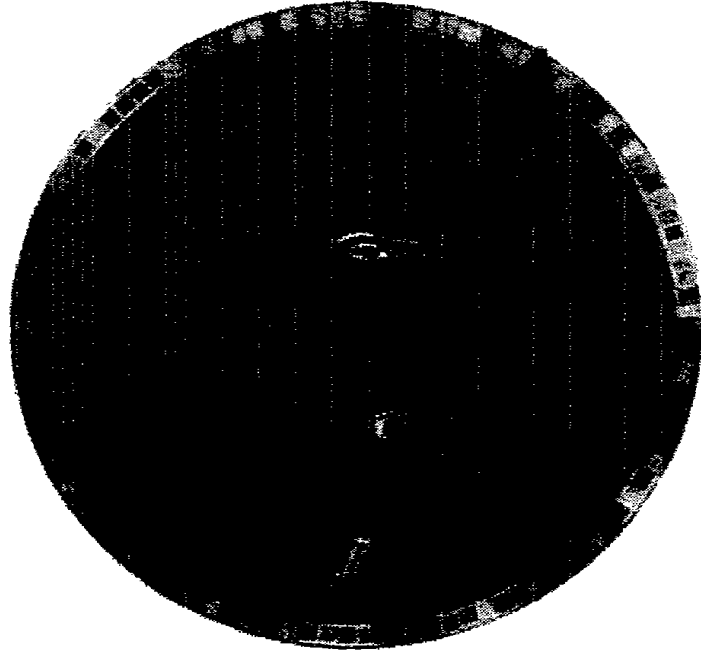
● وبالرغم من أن الأدب المصرى القديم قد نشأ وترعرع في أحضان الدين والعقائد الدينية القديمة ، إلا انه تطور بسرعة وأصبح يتناول شئون الحياة اليومية العادية للإنسان . . وتبوأ الأعمال الأدبية مكانة رفيعة في الفكر والحضارة المصرية القديمة . . وأدرك المصريون القدماء أن الأدب غذاء للأرواح ، وإشباع للنفوس الصافية ، وطريقة مثلى للتسامى بالتعبير وعلو المعانى . . وأصبح جمال الأسلوب وطلاوته فخراً للكاتب المصرى القديم ومحلاً لتقدير ومتعة القراء .

● وتبين للعلماء أيضا أن الأدب المصرى القديم لم يترك موضوعاً للحياة الانسانية إلا وكان له فيه إنتاج متميز . . وقسموا الأعمال الأدبية المصرية القديمة حسب موضوعاتها إلى أقسام وتصنيفات عدة هي باختصار شديد :

● القصص والروايات القصيرة والحكايات والحواديت الشعبية . . والحكم والتعاليم الأخلاقية والتأملات الفلسفية . . والرسائل الأدبية [حيث ابتدع الكتاب المصريون القدماء فكرة تقسيم الرسالة إلى : عنوان ، وصيغة افتتاحية ، وديباجة ، وختام] . . والمساجلات الأدبية التي تقوم على فكرة الحوار والنقاش بالحجج والأفكار والمواقف المتعارضة . . والمسرحيات والأشعار الدرامية . . والأغاني والأناشيد الدينية وأشعار الحب والغزل . . والغزل في الطبيعة ووصف سحرها . . وأشعار المديح لتمجيد الملوك وانتصاراتهم الحربية . . وأغاني العمال . . وأغاني الفلاحين . . وأغاني الولائم والحفلات والأفراح الشعبية .

● أما بالنسبة للأعمال الأدبية التي تركها لنا قدماء المصريين في مجال القصص والروايات ، فقد قسمها وصنفها المؤرخون وعلماء المصريات إلى مجموعات تتناول قصص الآلهة . . وقصص السحر والمعجزات . . وقصص المغامرات .

● وقام العلماء والأدباء المحدثون بترجمة هذه القصص والروايات إلى الكثير من لغات العالم ، وعرف الناس في جميع أنحاء الأرض أن الأدب المصري القديم هو أقدم وأجمل الآداب التي تركتها لنا الحضارات القديمة .



الأدب السياسى فى مصر القديمة

لم تكن كل العصور التاريخية فى مصر القديمة عصور عظمة وقوة وعدل ، بل سجل التاريخ المصرى القديم بعض الفترات التى كانت مصر تحكم فيها بملوك ضعاف يسلمون زمام الحكم للموظفين وحكام الأقاليم ، فيطلق هؤلاء وأولئك أيديهم لظلم العباد ، وتنتشر جرائم الرشوة وسلب الأموال ويعم الفساد .

● وفى مثل هذه العصور الرديئة ، كان الشعب المصرى يئن تحت وطأة الظلم ويشعر بالاضطهاد الذى كان يمارسه الحكام ضده ، فيحدث الانفجار فى شكل « هبات » عنيفة يضيع فيها الأمن والأمان وتعم الفوضى فى أرجاء البلاد ، إلى أن يظهر ملك قوى جديد يقيم العدل والانصاف فيستقيم النظام .

● حينذاك لم يغفل أدباء مصر ومفكروها وحكماؤها عن تلك المظالم ، فسجلوها فى برديات عثر على الكثير منها . . وعكف علماء المصرىات على ترجمة ما دُون فى تلك البرديات ، فإذا بنا أمام مقالات أدبية رفيعة المستوى تتضمن أوصافاً دقيقة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى آلت إليها الديار المصرية فى فترات حكم الملوك الضعاف الذين لم يستطيعوا إقامة العدل بين الناس ، وفى الفترات التى كانت تتعرض فيها البلاد للسيطرة أو التوجيهات الأجنبية .

● ومن بردية محفوظة فى المتحف البريطانى [ترجمها سير ألان جاردنر] دُون عليها مقال يمكن تصنيفه كنوع من الأدب السياسى ، منسوب إلى أديب مصرى قديم اسمه « خع خبر رع سنب » نقتطف بعض فقرات كتبها هذا الأديب لنرى أحوال البلاد فى الفترة التاريخية التى انهار فيها نظام الحكم بسقوط عصر « الدولة الوسطى » وبدء

تسلل الهكسوس وسيطرتهم على مصر خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد . . يقول الأديب :

● « إن العدالة قد نبذت . . والظلم أخذ مكانه في البلاد . . وصارت البلاد في هم ثقيل . . وعم الحزن في كل مكان . . وصارت المدن والأقاليم في عويل ، وكل الناس يرزحون تحت عبء الظلم . . أما الاحترام فقد انتهى أجله ولم يعد موجوداً . . وتقع المصائب كل يوم ومصائب الغد لم تأت بعد . . فكل الناس لاهون عن الغد ويعيشون في عذاب مستديم ، والبلاد كلها في اضطراب عظيم . . والناس تستيقظ في صباح كل يوم لتألم . . ومن المؤلم أن يستمر الانسان صامتاً أمام كل تلك المصائب والبلايا التي يسمعا ويراهما ويعيشها » .

● ويقول الأديب الحكيم « إيب ور » في وصف أحوال البلاد خلال عصر رديء آخر : « إن البلاد ملأى بالعصابات . . والمجرمون أصبحوا في كل مكان . . وللصوص أصبحوا أصحاب ثروات ضخمة . . وأصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار . . ونظام البلاد انقلب رأساً على عقب . . لقد دخلت إلى البلاد كل مملكة أجنبية . . ونزلت أقوام أغراب إلى أرض مصر . . وأصبح المصريون كالأجانب في بلادهم . . فما العمل وكل شيء ينحدر إلى دمار ؟ ! » .

● ويواصل « إيب ور » عرض تلك الأحوال السياسية السيئة التي كان يعاني منها الشعب المصري في عصره فيقول بأسلوب أدبي رفيع : « لقد مات السرور ولم يعد في الأرض سوى الأنين والعويل . . وأصبح الحزن يمشى في طول البلاد ممزوجاً بالأسى . . لقد عمت الوقاحة بين الناس . . ولم تعد أحكام المحاكم محترمة . . بل لقد وضعت قوانين قاعة المحكمة على الأرض وصار الناس يدوسونها بالأقدام في الطرقات ويمزقونها في الأزقة . . فما العمل ؟ ! . . ليت البلاد تتخلص من كل هؤلاء الغوغائيين . . ويعود النظام والاحترام ! » .

حرية الفكر والقول في مصر القديمة

بالرغم من صرامة نظام الحكم في جميع العصور التاريخية التي مرت على مصر القديمة ، حيث كان الملوك يحكمون استناداً إلى الادعاء بأنهم أبناء الآلهة ، وحيث كان حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة والموظفون يتحكمون في مصائر الشعب والحكومة استناداً إلى التفويض الذي يمنحه الملك لهم ، فقد كان من الضروري على هؤلاء جميعاً أن يلتزموا بأصول الحكم من عدالة وأمانة ونظام وأمن مستتب .

● ومن بين أبناء الشعب المصرى القديم كانت تنبثق طائفة الكتاب والأدباء والفلاسفة والحكماء الذين كانوا ينتمون إلى طبقة النبلاء ، أو إلى طبقة الكهان من رجال الدين ، أو إلى طبقة أبناء الشعب العاديين ، وكانوا يشكلون في مجموعهم فئة المثقفين القادرين على التعبير عن حقوق وآمال ومشاعر الشعب المصرى القديم بكافة فئاته وطبقاته .

● وحين كان نظام الحكم يحقق العدل بين كل أبناء الشعب ، ويوفر الخيرات في كل أرجاء البلاد فيأخذ كل فرد حقه دون ظلم أو إجحاف ، ويشعر الناس بأنهم آمنون على يومهم وغدهم . . . وحين يرى الناس بأعينهم تلك المنشآت والمشروعات العظمية التي يشيدها ويديرها الملوك وكبار رجال الدولة . . . عندئذ يصبح نظام الحكم محل تقدير واحترام من الجميع ، كبيرهم قبل صغيرهم ، وينبرى هؤلاء المثقفون للإشادة بالحكم وتأييده باعتباره جزءاً من تاريخ الأمة المصرية التي يفخرون بأمجادها بين كل الأمم المعاصرة .

● أما عندما يسيء نظام الحكم أداء دوره المفترض ، وينحرف إلى الظلم والافتراء

مبتعداً عن العدل والصراط المستقيم ، عندئذ ينبرى أدباء الأمة وحكامؤها للتعبير عن إدانة هذا النظام ، بظلمه واستبداده ، بكل حرية واقتدار . . بل وتصبح أقوالهم كالديستور يتداوله الشعب المصرى القديم جيلاً بعد جيل . . حيث تدل الشواهد الأثرية على أن أقوال هؤلاء الحكماء يتم تداولها عبر مئات وآلاف السنين . . وينسخها تلاميذ المدارس كدروس لتعليمهم أصول الحكمة وأصول الحكم ، وحقوق أبناء الشعب التى يجب أن يحققها لهم الملوك وكل رجال الدولة من حكام وموظفين .

● ولنتصور مدى حرية الفكر والقول فيما كتبه أحد الحكماء من أبناء شعب مصر وهو يخاطب ملك البلاد الجالس على العرش مخاطبة الند للند ويحمله كافة المسئوليات المترتبة على المظالم التى ضربت أطنابها فى أرجاء البلاد بفعل ظلم الحكام والموظفين ، وتقاعس الملك عن تحقيق العدل بين الناس .

● يقول الحكيم المصرى القديم للملك : « إن الأمر الملكى والمعرفة فى قبضة يدك . . ولكن ما تصنعه فى البلاد هو النزاع وصوت القلاقل . . لقد نطقت زوراً وبهتاناً . . فهل فعلت هذا لكى تشتد علينا الأمور ؟ ! . . إن القيادة والفتنة والصدق معك ، ولكنك لا تتفحص بها . . فالفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، ولكنك جالس فى قصرك تتغذى أذنالك بالإكاذيب التى تتلى عليك فتصدقها . . البلاد قش ملتهب والانسانية منحلة . . ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك ! » .

● ووصلت إلينا تلك البردية التى كانت تتضمن تلك الرسالة المكتوبة بهذا الأسلوب الأدبى الرفيع ، والتى تعبر عن حرية الفكر والقول التى كانت متاحة لحكماء المصريين عبر آلاف السنين . . ولم يصل إلينا ما يدل على أن هذا الحكيم قد وضع فى السجن الحربى ، ولا حتى فى سجن مدنى ! .



أثر الأدب المصرى القديم فى الآداب العالمفة

كنت قد ترجمت قصة قصيرة من الأدب المصرى القديم بعنوان « الملاح وجزيرة العجائب» وتدور هذه القصة حول ملاح مصرى قديم غرقت سفينته ومات كل من عليها ونجا وحده ، وعاش فى جزيرة منعزلة ، وحصل على كنز ثمين ، ثم عاد إلى وطنه ، بعد أن اختفت تلك الجزيرة الغامضة فى أعماق البحر بمجرد مغادرته لها .

● ويرجع تاريخ هذه القصة إلى عصر « الدولة الوسطى» [٢٠٢٢ ق م - ١٦٥٠ ق م] وهو عصر تميز بظهور عدد كبير من الأدباء والحكماء والمثقفين المصريين الذين تركوا لنا - لحسن الحظ - أعمالاً تدل على مدى رقى الفكر والثقافة فى مصر القديمة ، سواء فى مجالات الحكمة والتعاليم الفلسفية والأخلاقية أو مجالات الأدب القصصى والحوارات الدرامية ، أو فى الشعر والأغانى .

● ويمكن تصنيف قصة « الملاح وجزيرة العجائب » باعتبارها واحدة من أقدم نماذج قصص الخيال العلمى SCIENCE FICTION ، حيث تدور عناصرها وأحداثها وشخصياتها حول محاور موضوعية هى على وجه التحديد : الملاح ، والسفينة الغارقة ، والجزيرة المنعزلة ، وإله الجزيرة ، والكنز الثمين ، والمغامرات الخيالية التى انتهت بالعودة السالمة إلى الوطن ، والاختفاء الغامض للجزيرة تحت سطح البحر .

● ويرى مؤرخون وعلماء الأدب المقارن أن التركيب والبناء الأدبى والفكرة العامة لهذه القصة كانت إلهاماً لعدد من أكبر وأشهر الأدباء العالميين الذين نسجوا على المنوال نفسه الذى استخدم فى النسيج الأدبى للقصة المصرية القديمة التى ظهر تأثيرها المباشر على محاور مجموعة من أشهر القصص والروايات العالمية الكلاسيكية والرومانسية الذائعة الصيت فى مختلف أنحاء العالم ، والتى تدور حول مغامرات العثور على كنوز ثمينة وحول أبطال عاشوا فى جزر منعزلة .

● ومنها على سبيل المثال رواية « جزيرة الكنز » من تأليف الأديب الانجليزى

الشهير « روبرت لويس ستيفنسون » والتي تدور حول مغامرات بطلها « جيم هوكينز » الذى عثر على خريطة لكنز مدفون فى جزيرة منعزلة . . وكذلك رواية « الكونت دى مونت كريستو » للأديب الفرنسى الشهير « ألكسندر دوماس » والتي تدور حول البطل « إدموند دانتى » الذى ذاق الأهوال وقام بمغامرات مثيرة بعد أن عرف سر وجود كنز مدفون فى جزيرة « مونت كريستو » المنعزلة ، حتى حصل على الكنز فى النهاية وعاد إلى وطنه سالمًا . . ومن الغريب أن السفينة التى كان يعمل عليها كان اسمها « فرعون » .

● ومن الأعمال الأدبية العالمية الشهيرة التى تأثرت محاورها بعناصر ومحاور القصة المصرية القديمة رواية « روبنسون كروزو » للأديب الانجليزى « دانييل ديفو » والتي تدور حول المغامرات والشدائد التى عاناها بطلها « روبنسون كروزو » خصوصاً بعد غرق السفينة التى كان يركبها وموت كل من عليها ونجاته وحده ، وعاش فى جزيرة منعزلة سنوات طويلة إلى أن عاد إلى وطنه فى نهاية الأمر .

● وكذلك الحال بالنسبة لرواية « الفضيلة - أو بول وفرجينى » التى ترجمها الأديب المصرى القدير مصطفى لطفى المنفلوطى ، وهى من تأليف الأديب الفرنسى الرومانسى « برنارد دى سان بيير » والتي تدور حول أسرتين صغيرتين عاشتا فى منطقة منعزلة فى جزيرة نائية حياة قائمة على الفضيلة والحب والأخاء إلى أن حدثت مأساة غرق السفينة التى كانت تركبها العذراء « فرجينى » بطلة الرواية .

● ويقول بعض نقاد وعلماء الأدب المقارن أن من القصص التى تأثرت بفكرة ومضمون القصة المصرية القديمة قصة « حى بن يقظان » التى ألفها الأديب الفيلسوف العربى الأندلسى « أبو بكر بن طفيل » فى القرن ١٢ الميلادى وهى من أشهر القصص الفلسفية التى تدور حول الانسان الذى عاش منذ صغره فى جزيرة نائية منعزلة وتوصل بعقله إلى أفكار فلسفية تثبت وجود الله . وقد ذاع صيت هذه القصة وتأثرت بها الآداب والفلسفات العالمية بعد أن ترجمت إلى العديد من اللغات منها اللاتينية والفرنسية والانجليزية والألمانية والهولندية .

● وأخيراً يقول بعض العلماء أن فكرة أسطورة « قارة اطلانتس » التى غرقت فى قاع المحيط متأثرة على نحو ما بفكرة اختفاء جزيرة العجائب فى القصة المصرية القديمة .

الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران أصلهما مصرى قديم

اختلف مؤرخو وعلماء الأدب المقارن حول مدى تأثر الشاعر الإيطالى الشهير «دانتي الليجيري : ١٢٦٥-١٣٢١ م» فى كتابه «الكوميديا الإلهية» بالشاعر السورى العظيم «أبو العلاء المعرى : ٩٧٣-١٠٥٧ م» فى كتابه «رسالة الغفران» والموضوع المحورى فى كل من هذين الكتابين يدور حول وصف النعيم والجحيم فى العالم الآخر .

● ويقول بعض المنصفين من هؤلاء العلماء أن هذا الموضوع المحورى له جذور ظاهرة فيما وصل إلينا من الأدب المصرى القديم الذى تناول هذا الموضوع فى أكثر من عمل . . فقد ورد فى «كتاب الموتى» و «كتاب البوابات» وفى قصة «سى أوزيريس وعالم الموتى» .

● وفى هذه الأعمال الأدبية الشهيرة والمعروفة ، نجد أن الأدباء المصريين المجهولين قد وصفوا لنا ما كانوا يتخيلونه فى رحلة الروح بعد خروجها من الجسد وانتقالها فى سماء الكون حتى تصل إلى قاعة المحكمة حيث يوزن قلب المتوفى بريشة «ماعت» التى ترمز إلى العدالة والصدق والحق والخير ، ثم يحكم على المتوفى بمصير أبدي فى النعيم أو فى الجحيم .

● وفى النعيم وكان يسمى «حقول إيارو» يتمتع المتوفى بشباب دائم دون مرض ولا شيخوخة ولا موت ، ويلبس ثيابا فاخرة لا تبلى ولا تتسخ ، ويتمتع بأطياب الطعام والشراب والفواكه والماء العذب الصافى ، وهدوء وأمان وسلام دائم حيث لا توجد أرواح شريرة ولا ثعابين ولا وحوش ولا حشرات .

● أما الجحيم فيلقى فيه الأشرار حيث العذاب الأبدي ، فى بحيرات ماؤها من

لهيب النيران ، وبها تماسيح مفترسة وحيات و ثعابين ، وزبانيته وحوش ضارية تتفنن في ألوان ووسائل تعذيب الأشرار من أهل الجحيم فتحرق أجسادهم وتقطع رقابهم ومع ذلك فلا يموتون ، بل تتجدد حياتهم حتى يستمر تعذيبهم إلى مالا نهاية .

● وتحكى لنا قصة « سى أوزيريس في عالم الموتى » حكاية فلسفية مثيرة ، تبدأ حين كان الأمير « ستنا » وهو أحد أبناء رمسيس الثانى واقفاً في شرفة منزله المطل على النيل ، وكان معه ابنه « سى أوزيريس » ومعناه « هدية أو عطية أوزيريس » وهو صبي صغير لا يزيد عمرة على ١٢ عاماً ولكنه كان معروفاً بذكائه الخارق وعلمه العزيز وقدرته الفائقة على السحر .

● وكان بجوار البيت مرفأ صغير ترسو به بعض المراكب والقوارب المستخدمة في عبور النيل إلى الضفة الغربية حيث توجد جبانات دفن الموتى . . وبينما كان الأمير واقفاً مع ابنه يتجاذبان أطراف الحديث ، شاهدا جنازة حارة لرجل ثرى وضعت موميأه داخل تابوت من الخشب الفاخر المطعم بالذهب ويتقدم الجنازة مجموعة من الكهنة ينشدون التعاويذ والأدعية والتراتيل . ويسير في الخلف مجموعه كبيرة من المشيعين من علية القوم ومجموعة من النادبات الصائحات وحاملات القرابين وهن يصحن ويندبن ويبيكين . . وبعد قليل مرت جنازة أخرى لرجل فقير يحمل تابوته إبناه ولا يسير خلفه سوى أرملة وزوجتى الابنين . . وكن مستغرقات في البكاء والعيول .

● عندئذ قال الأمير « ستنا » لابنه الصبى « سى أوزيريس » انه يتمنى أن يكون مصيره كمصير المتوفى الثرى الذى سيذهب حتماً إلى الجنة . . ولكن ابنه الصغير قال أنه بالعكس يتمنى لأبيه أن يكون مصيره كمصير الرجل الفقير .

● استاء الأب من كلام ابنه . . ولكن الابن الصغير قال انه يعرف الوسائل السحرية التى تمكن روحيهما من التحليق فى السماوات وتمكنهما من الدخول عبر بوابات العالم الآخر ليريا ما يجرى فيه .

● وبعد غروب الشمس وبفعل السحر قامت روح الابن بصحبة روح الأب لمشاهدة محاكمة كل من الثرى والفقير المتوفين . . وقامت الروحان بزيارة النعيم حيث

شاهدتا الرجل الفقير وهو يتمتع بنعيم الجنة لأنه كان صالحاً طيب القلب وكان يصنع الخير أثناء حياته . . ثم قامتا بعد ذلك بزيارة الجحيم حيث شاهدتا العذاب الأليم وألسنة النار وهى تلتهم الأشرار وكان من بينهم المتوفى الثرى جزاءً على ما صنعه من شرور أثناء حياته .

● وبعد هذه الجولة السريعة لروح الأمير « ستنا » ابن رمسيس الثانى وروح ابنه الساحر الصغير « سى أوزيريس » فى العالم الآخر لمشاهدة النعيم والجحيم ، عادت الروحان إلى طيبة سريعاً ، وحلت كل روح فى جسدها ، قبل أن تشرق الشمس معلنة بزوغ يوم جديد فى الحياة الدنيا .



حقول إيارو .. نعيم قدماء المصريين .

سندريللا .. فى الأءب المصرى القءىم

تتلءص عناصر ءكاىة الفتاة الجمىلة سنءرىللا فى الأءب العالمى فى أن تلك البنء الفقىرة ، أنقءها ملك طىب من قسوة زوةة أبىها ، عنءما فقءء فرءة ءءاء كانت ءملكه . وقء وقءء هءه الفرءة فى ىء أءء الأمراء الءى أخذ ىبءء عن صاءبة هءا الءءاء ءءى عءر علىها فى النهاىة وءزوجهها . .

● وقء شاعء ءكاىة سنءرىللا بهءه العناصر المءورىة فى المأءوراء الأءبىة والفولكلورىة لءءىء من شعوب العالم . ولعل أشهر من ءكاها هما « الأخوان ءرىم » الألمانىان اللءان أءاعا شهرءها العالمىة بعء أن ءءباها ءقصة من أءب الأطفال .

● وقء وردد ءكاىة سنءرىللا بنفس عناصرها ولكن بطرق وأساءاء مءءلفة ، فى بعض الأعمال الأءبىة المءونة فى البرءىاء المصرىة القءىمة . وىرءع ءارىء أءءم إءارة إلى ءلك الءكاىة إلى عصر الأسرة الرابعة فى القرن السادس والعءرىن قبل المىلاء . . ءم عءر على نساءة منها ولكنها للأسف ءىر ءاملة ىرءع ءارىءها إلى عصر الءولة الءءىة فىما بىن القرنىن السادس عشر والءانى عشر قبل المىلاء . . وقء ءاء بهءه النساءة وصف ءفصىلى لبعض أسالىب العذاب والإهانة الءى عوملء بها الفتاة من ءانب زوةة أبىها وبناءها .

● ءم عءر على برءىة ءءكى القصة نفسها ولكن بطرىقة مءءلفة ، ىرءع ءارىء هءه البرءىة إلى القرن السادس قبل المىلاء . . وهى الءكاىة الءى سنءءم ملءصها ءءى ىءبىن لنا الأصل المصرى القءىم لءلك الءكاىة الجمىلة الءاءعة الصىء فى مءءلء أنءاء العالم :

● فى مءىنة « نقراطىس » بشمال الءلءا ، كانت ءعىش مءموعة ءبىرة من الىونانىن الءىن وفءوا إلى مصر للءءارة أو للإقامة الءائمة فىها ، ءما ءءءق الءءىرون منهم

بالجيش المصرى للدفاع عن مصر ضد خطر الفرس الذين كانوا يهددون بلاد العالم القديم بغزواتهم الهمجية الوحشية .

● وفى تلك المدينة كان يقيم « شاراكسوس » وهو أحد التجار اليونانيين الأثرياء . . وفى يوم ما شاهد فتاة يونانية جميلة جدا تباع فى سوق الجوارى بالمدينة فاشترها بأعلى ثمن . . وعندما عاد بها إلى بيته علم منها أن اسمها « رادوبيس » وأنها كانت من أسرة طيبة تعيش فى شمال اليونان واحتفظها القراصنة الذين باعوها فى سوق الرقيق .

● تأثر « شاراكسوس » بقصة « رادوبيس » التى كانت تتمتع بجمال لا يدانية جمال أية فتاة أخرى فى عصرها . . فبنى لها بيتا خاصاً بها تتوسطه حديقة رائعة ، وعين لها بعض الجوارى ليقمن بخدمتها ، وأغدق عليها هدايا قيمة من المجوهرات الثمينة والملابس الفاخرة ، وعاملها بكل حب وعطف ورعاية كما لو كانت ابنته من لحمه وصلبه .

● وفى أحد أيام الصيف الحارة ، كانت « رادوبيس » تستحم فى حوض السباحة الملحق بحديقة بيتها ، بينما كانت الجوارى واقفات بالحديقة لحراسة ملابسها الفاخرة وحليها المصنوعة من الذهب والفضة والجواهر الكريمة ، وكان من بينها حذاؤها الأحمر المطعم بمجوهرات رصعت فى زخارف رائعة . . وفجأة ظهر فى السماء الزرقاء الصافية نسر ضخيم كان يخلق بجناحيه فوق الحديقة ، فأصبحت الجوارى بالذعر والهلع ، وهربن ليختبئن وراء الأشجار بعد أن تركن الملابس والمجوهرات دون حراسة .

● وفجأة انقض النسر واختطف بين مخالبه القوية « فردة » واحدة من الحذاء الثمين ، ثم ارتفع إلى السماء وانطلق محلقاً نحو الجنوب ، وواصل طيرانه حتى وصل إلى سماء مدينة « منف » حيث يوجد قصر الفرعون « أمازيس » . وهبط النسر من عليائه وألقى بفردة الحذاء الأحمر فى حجر فرعون الذى كان جالساً وقتذاك فى قاعة العدل الكبرى .

● انبهر الفرعون بجمال الحذاء ورقته . . وأصدر أمره الملكى بإرسال الرسل لزيارة جميع المدن المصرية فى الدلتا والصعيد للبحث عن الفتاة صاحبة هذا الحذاء الجميل . .

وعندما وصل الرسل إلى مدينة « نقراتيس » علموا بوجود الفتاة « رادوبيس » أجمل فتيات البلاد ، فعرضوا عليها فردة الخداء لتقيسها ، وما أن شاهدتها « رادوبيس » حتى صاحت فرحة مهللة ، وأحضرت الفردة الثانية التي كانت تحتفظ بها . . ولبست الخداء بفردتيه وكان بطبيعة الحال على مقاسها تماماً .

● عندئذ خر الرسل راكعين أمامها وأخبروها بأن الفرعون قد أمرهم باحضارها إلى قصره لتعيش معززة مكرمة بين حريم الملك . . ولكن الفرعون رأى أن الآلهة هي التي دبرت له العثور على تلك الفتاة الرائعة الجمال فتزوجها وجعلها ملكة على مصر . . وعاش معها سعيداً إلى أن مات الاثنان قبل عام واحد من قيام « قمبيز » بقيادة جيشه الفارسي الهمجي لغزو مصر والاستيلاء عليها .



عصر البطجة والبطجية في مصر القديمة

حرصنا منذ البداية على ذكر مآثر وعظمة الحضارة المصرية القديمة التي اعتبرت بكافة المعايير أمًا للحضارات الانسانية ، إلا أننا نود أن نشير إلى بعض فترات عصور الظلام والفوضى التي كانت تطرأ على استمرارية التاريخ المصرى القديم في بعض الأحيان ، وخصوصاً في الفترة التي تلت سقوط « الدولة القديمة » في نهاية عصر الأسرة السادسة .

● في كتاب المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينى [دراسة في التاريخ] وهو يتألف من عدة مجلدات ، شرح لنظرية « التحدى والاستجابة » التى يقول فيها أن القوى النفسية للبشر هى التى تحدد مجرى التاريخ الانسانى وتضبطه وتسيره أكثر من القوى المادية . . وجاء فى هذا الكتاب أن الحضارة المصرية القديمة بلغت أقصى ذراها فى عصر « الدولة القديمة » التى بدأت ببداية الأسرة الثالثة عام ٢٦٣٥ ق م ، وانتهت بنهاية الأسرة السادسة عام ٢١٤٠ ق م .

● وكان آخر الملوك فى هذه الأسرة « الملك بيبى الثانى » الذى جلس على عرش مصر ٩٤ عاماً ، وهى أطول فترة استمر فيها حكم حاكم واحد فى تاريخ الدول . . وقد أدى طول هذه الفترة إلى تجميد التطور وشيخوخة نظام الدولة ، فضعفت سلطة الحكومة المركزية ، وقويت شوكة حكام الأقاليم ، وساد الفساد بين كبار رجال الدولة وموظفيها ، فتمزقت البلاد وساءت أحوالها .

● لقد عمت الفوضى أرجاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وسقطت هبة الملوك وانبرى حكام الأقاليم والمقاطعات المصرية فى اغتنام الفرص واستغلال النفوذ ، فسيطروا على ممتلكات الدولة ونهبوها واستخدموا أعوانهم فى قهر الفلاحين والصناع

والاستيلاء على ما في أيديهم . . بل وحاول بعض حكام الأقاليم في الوجهين البحري والقبلي الادعاء بأحقيتهم في الجلوس على عرش البلاد دون وجه حق ودون الاستناد إلى الشرعية أو أى سند من القانون .

● واستمر عصر الفوضى والاضمحلال نحو ١٢٠ سنة تولت خلالها بعض الأسر الملكية الضعيفة حكم البلاد [من الأسرة السابعة حتى الأسرة الحادية عشرة] . وكانت هذه الأسرات لا تسيطر على كل أقاليم البلاد ، إلى أن استطاع « الملك منتحوتب الثانى » - من الأسرة الحادية عشرة- إعادة توحيد البلاد وأعاد القانون والنظام إلى الدولة ، وحدث ذلك حوالى عام ٢٠٢٢ ق م .

● ولحسن الحظ فقد تم العثور على إحدى الوثائق الأثرية الهامة التى تصف لنا الأحوال السيئة خلال عصر الفوضى ، وهى البردية المعروفة علمياً باسم بردية ليدن ، والمنسوبة إلى الحكيم المصرى القديم « إيب ور » الذى استطاع بأسلوب أدبى رفيع وصف حالة الحزن العظيم التى عمت البلاد بطولها وعرضها بسبب الفوضى والارتباك فى جميع الشؤون السياسية والاجتماعية بعد تمزق الدولة ، ووصف أوجع الخراب والدمار والانحطاط عندما سيطر الأجانب الآسيويون على بعض الأقاليم المصرية فى شمال وشرق البلاد وأشاعوا فيها عمليات السلب والنهب .

● وبالنظر إلى طول هذه البردية وكثرة ماورد بها من موضوعات وأوصاف ، فسوف نقتطف منها بايجاز نصوص بعض الجمل التى تدل على سقوط القانون والنظام وسيطرة أعمال البلطجة فى كل مكان . . يقول الحكم « إيب ور » على سبيل المثال :

- أصبح كل شخص يغير ويستولى على ما يستطيع وما تصل إليه يده .

- انتشر الخوف وعم الانحلال الخلقى وعدم المبالاة بالقيم الدينية .

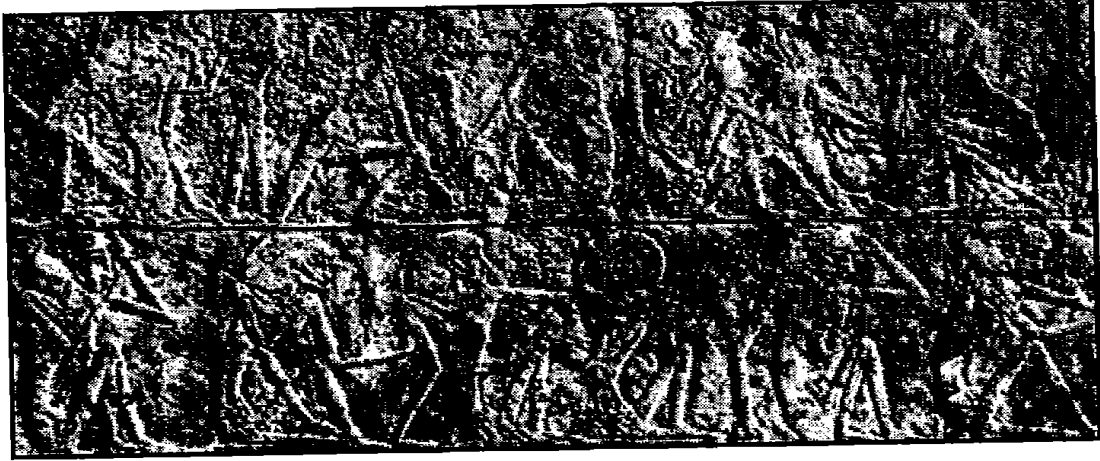
- أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه ليستولى على ما يملكه . . وأصبح الرجل ينظر

لابنه نظره لعدوه . . ويذهب الفلاح إلى الحرث والزرع وهو يحمل أسلحته .

- أنظر . . لا صانع يعمل والعدو يحرم البلاد من خيراتها وحرفها وصناعاتها

وانعدمت التجارة مع البلاد الأجنبية .

- والسائح الأجنبي الذى قدم للزيارة أصبح يتعرض للسرقة والضرب بالعصا ويذبح ذبحاً شنيعاً . . وأصبح اللصوص أصحاب ثروات . . والحراس يقولون لأنفسهم فلنذهب لننهب . . وامتلات البلاد بالمجرمين ولا يوجد رجل من رجال الأمم الطيبين . . وانتشرت القاذورات فى كل مكان ، ولا يوجد رجل بملابس بيضاء نظيفة .
- وأصبح الأطفال يصرخون : لماذا جئتم بنا إلى هذه الحياة اللعينة . . يالتعاستى بسبب البؤس الذى أعيشه فى مثل هذا الزمن !



نقش جدارى من الطريق الصاعد لهرم أوناس بسقارة يصور منظراً للمجاعة
التي أصابت الرجال والنساء والأطفال .

أول انقلاب طبقي في تاريخ العالم

حين أعلن المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبى» أن الحضارة المصرية القديمة بلغت أقصى ذراها في عصر الدولة القديمة كان يؤكد حقيقة أن الشعب المصرى الذى صنع هذه الحضارة كان على استعداد لبذل كل جهد ممكن مادام يشعر بأن ملوكه وحكامه يقيمون العدل ويحققون له الحماية والخير .

● وعندما يشعر الشعب بأن ملوكه ضعاف متخاذلون وليسوا آلهة ولا أبناء آلهة كما كانوا يقولون ، وأن هؤلاء الملوك قد وقعوا تحت سيطرة حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة وكبار الموظفين الذين أشاعوا الظلم ونهبوا الشعب عن طريق الضرائب الباهظة ، ومارسوا الكبر والغطرسة والطغيان ، عندئذ هب الشعب لينتقم من الجميع ، وحدثت الانتفاضة المدمرة التى اكتسحت فى طريقها كل شىء ، على النحو الذى عرفناه بعد سقوط الدولة القديمة فى نهاية عصر الأسرة السادسة عام ٢١٤٠ ق م .

● ويقول بعض المؤرخين إن الثورة التى قام بها الشعب المصرى فى ذلك الزمن تعتبر بكل المعايير السياسية والاقتصادية والاجتماعية أول انقلاب طبقي فى تاريخ العالم ، حيث فرضت طبقة « البروليتاريا » دكتاتوريتها وتسيدت على طبقات الشعب الأخرى .

● والمقصود بطبقة البروليتاريا هنا معناها فى النظام السياسى الذى كان سائداً فى روما القديمة والذى كان يقصد به الطبقة التى لم تكن تملك شيئاً ، وهذا معنى يختلف كثيراً عن معناها فى النظرية الشيوعية التى قال بها كارل ماركس . . فمن الناحية السياسية لم يتوصل المجتمع المصرى أثناء تلك الثورة إلى إلغاء الطبقات ، وكل الذى حدث يمكن أن يندرج تحت مفهوم أن « الهيكل الطبقي » فى المجتمع المصرى القديم ظل على حاله ، ولكن حدث استبدال فى التسكين الطبقي ، حيث حل الفقراء محل الأغنياء ، وحل الأغنياء محل الفقراء والمعدمين ، على النحو الذى تشهد به بردية ليدن

المنسوبة إلى الحكيم المصرى « إيب ور » التى تقول فى تلك الفقرات التى انتقيناها من نص البردية :

- أصبح الفقراء يمتلكون أشياء جميلة ، وأصبح العظماء فى حالة يرثى لها . . لقد حل الحزن فى قلوب أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً .

- لقد دمرت قصور الملوك ونهبت قبورهم ، وأصبح الحكام جوعاً يعيشون فى بؤس . . وقضاة البلاد طردوا من بيوت العدل . . والذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا يضربون . . وأصبحت كل بلدة تقول : هيا نقضى على كل الأقوياء والأغنياء . . ونهبت المخازن وأصبحت الصوامع خالية وانعدمت الغلال فلا زرع ولا حرث ولا حصاد وساد الجوع . . وجرد القوم من ملابسهم وعطورهم وأصبح كل انسان يقول لم يبق لى شىء .

- وهكذا صار العبيد أصحاب عبيد . . ومن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح يملك فناء مسوراً . . ومن كان يبيت فى العراء أصبح يجد كثيرات من السيدات النبيلات الشريفات اللاتى كن ينمن على أسرة أزواجهن فأصبحن ينمن على مضاجع مقضة بعد أن طردن من بيوتهن وأجبرن على العمل الشاق فى حرارة الشمس وهن يرتدين خرقاً بالية وأعضاؤهن ظاهرة وقلوبهن تنفطر من شدة الحزن .

- وأصبحت الجوارى والنساء الفقيرات يتحلين بالذهب واللازورد والياقوت والفضة . . أما السيدات النبيلات فقد أصبحن يمشين فى طول البلاد ويقلن : ليتنا نجد شيئاً نأكله .

- ومن كانت لا تملك صندوقاً أصبحت تملك صواناً . . ومن كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة .

● هكذا وصف الحكيم المصرى القديم « إيب ور » الانقلاب الطبقي الذى حدث نتيجة للظلم الذى عاناه الشعب المصرى بسبب فساد حكامه وطغيانهم وعدم التزامهم بتطبيق العدالة ، فهب الشعب فجأة وقلب المائدة فوق رؤوس الجميع .

فكرة : العدل أساس الملك

تدل الشواهد الأثرية والتاريخية على أن المصريين القدماء كانوا يربطون بين حالة الرخاء وعدالة الحاكم الصالح . . كما كانوا يعتبرون أزمة الشدة والشقاء والفوضى والمجاعة والفقر دليلاً على ظلم الحاكم وعدم التزامه بالعدل .

● ومنذ ظهور البوادر الأولى لأسس الديانات والعقائد المصرية القديمة التي وضعها كهنة المعابد ، ظهرت فكرة « العدالة » كأساس لنظام الحكم باعتبارها « حقاً » للرعية و « واجباً » يلتزم به الحكام .

● ويجمع أئمة علماء التاريخ المصرى القديم على أن مظاهر التبجيل والتقديس المبالغ فيها التي كان يكتننها المصريون القدماء لملوكهم وحكامهم ، كانت ترجع بالضرورة إلى شعور الشعب بأن هؤلاء الملوك كانوا يقيمون العدل والنظام ويكفلون الأمن والطمأنينة ، ويوفرون الرخاء لكل الناس ، بفضل مايقومون به من تشجيع المبدعين فى الصناعة والقائمين بالزراعة والتجارة ، بالإضافة إلى رعاية العلم وكل من له نشاط فى الكتابة والأدب والهندسة والحساب والفلك والطب والعمارة .

● ولذلك فلم يكن غريباً أن تظهر فى الأسس الدينية والعقائدية فكرة وجود إلهة أطلقوا عليها اسم « ماعت » وجعلوها رمزاً للحق والعدل والصدق والخير ، وصوروها فى هيئة امرأة جالسة أو واقفة ويزدان رأسها بريشة طاووس ، وهو رمز يعادل الرمز الحديث لفكرة العدالة فى شكل امرأة معصوبة العينين وتحمل فى يدها الميزان .

● وطوال حقب التاريخ المصرى القديم ، ظلت « ماعت » مثلاً أعلى يحتذيه الحكام ويتطلع إليه الناس . . وظلت بالنسبة للجميع — حكاماً ومحكومين — رمزاً معنوياً مقدساً يدل على مبلغ ما ينبغى أن يكون للعدل من أثر فى استمرار النظام والطاعة ،

- ومعياراً للتفرقة بين الحق ويقظة الضمير الانساني ، وبين الباطل وغيبة هذا الضمير .
- وقد قام العديد من المؤرخين وعلماء الحضارة ببحوث ودراسات مستفيضة تناولت الدلالات الفلسفية التي أوعزها المصريون القدماء إلى فكرة « ماعت » وما ترمز إليه من معان ووظائف يمكن تلخيصها فيما يلي :
 - هي رمز لحسن الخلق ومراعاة الضمير والتمسك بأهداب السلوكيات الطيبة ودليل على الورع الدينى واحترام السنن الإلهية والتراحم بين الناس عائلية وشعبية ، كما انها المعيار الذى يفرق بين العدل والظلم وبين الحق والباطل .
 - وهى رمز لدقة قوانين نظام الكون وثبات عناصره الأساسية ممثلة فى أفلاك النجوم ومساراتها فى السماء ، واختلاف الفصول وتعاقب شروق الشمس أثناء النهار وغروبها أثناء الليل .
 - وهى أيضا ترمز إلى « الثقل » المستخدم فى الميزان الذى توزن به حسنات وسيئات المتوفى فى العالم الآخر ، حيث يلقى المتوفى مصيره الأبدى إما بالذهاب إلى الجنة « حقول إيارو » أو باللقاء فى النار « سقر » .
 - وتقديراً لتلك المعانى المقدسة السامية كان ملوك مصر يفخرون بأنهم التزموا بتعاليم « ماعت » وطبقوها ، وأقاموا أركان ملكهم على العدل بين الرعية ونشر الخير فى البرية .
 - ولم يكن غريباً أن يكتب الحكماء والأدباء المصريون خلال عصور الاضمحلال التى ساد فيها الظلم والفوضى والفساد ، متنبئين بأن إصلاح أحوال البلاد يتوقف على ظهور الحاكم العادل الذى يعيد الأمور إلى نصابها السليم .
 - ويقول الحكيم « إيب ور » مبشراً بظهور الحاكم الذى سينقذ البلاد : « أين هو ليسوى بين البشر . . . و يقيم العدل . . . انه راعى الانسانية الذى لا يحمل فى قلبه شراً » .
 - ويقول الحكيم « نفر - روهو » فى المعنى نفسه : « إن الحاكم العادل قادم لاحالة

. . والذين سيعيشون في زمنه سوف يبتهجون . . وهؤلاء الذين يتآمرون على الشر
ويحكون المؤامرات سيغلقون أفواههم خوفاً منه . . وسيعيد ماعت إلى مكانها . .
والظلم سوف ينبذ ويختفى «

● ويقول المؤرخ الأمريكي برستيد أن هذه التنبؤات المذكورة في الأدب المصري القديم
قد استخدمت مثيلاتها في التبشير بظهور المسيحية بعد أكثر من ألفين من السنين .



ماعت هي رمز العدالة في الدنيا والآخرة .

قبل أن تحكم .. تعلم كيف تحكم

كان من المحتم على جميع الأمراء من أبناء الملك أن يتلقوا العلم على أيدي كبار المعلمين والحكماء ، كما يتحتم عليهم أيضا أن يمارسوا الرياضة والفروسية والتدريب العسكرى .

● وإلى جانب تعلمهم مبادئ وقواعد علوم الحساب والهندسة والفلك والطب والكيمياء وغير ذلك من العلوم الأخرى التى برع فيها قدماء المصريين ، كان لابد من تلقينهم أسس التراث المصرى فى الحكمة والفلسفة وقواعد الأخلاق والسلوكيات الطبية الرفيعة .

● ومن العادات السياسية التى كانت شائعة فى نظام الحكم حرص الملوك والفراعنة على إشراك « ولى العهد » فى حكم البلاد بطريقة مباشرة ، حيث كان ولى العهد فى كثير من الأحيان يكلف بقيادة الجيش بفرقه العسكرية المختلفة ، أو قيادة الحملات الحربية ضد المتمردين أو المعتدين الأجانب ، أو يكلف بأداء بعض السلطات التنفيذية الخاصة بالملك ويعطى سلطة مطلقة فى اتخاذ القرارات المناسبة ، أو يقوم بالاشراف على المحاكم « بيوت العدل » أو أداء بعض المراسم والطقوس الدينية فى المعابد نيابة عن والده ، وغير ذلك من أساليب مباشرة السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية والدينية .

● وبطبيعة الحال فقد كان الملوك يحرصون على تلقين أبنائهم - من أولياء العهد -

المثل العليا التي يجب أن يتحلى بها الملوك في حكم الرعية ومباشرة شؤون الدولة . . .
ولحسن الحظ فقد وصلت إلينا عدة برديات تتضمن النصائح والتعاليم التي لبقنها بعض
الملوك لأبنائهم الذين تولوا حكم البلاد من بعدهم .

● ومن أشهر هذه الوثائق السياسية بردية محفوظة بمتحف لينينجراد تتضمن مجموعة
من النصائح والتعاليم التي وجهها أحد ملوك الأسرة العاشرة لولى عهده المسمى « مري
كارع » الذي تولى الملك من بعده . . . ويقول فيها :

● « عليك أن تتحلى بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض . . . كن عادلاً مثل
أجدادك من الملوك السابقين . . . ولا تجرد أحداً من أملاكه . . . ولا تطرد موظفاً من عمله
ولا تغدر بزميل تلقى معك العلم . . . وهدىء من روع الباكي . . . وحقق فيما يقوله
الشاكى . . . ولا تظلم يتيماً ولا أرملة . . . ولا تكن فظاً بل كن رحيم القلب . . . واجعل
هدفك حب الناس لك ، فمستولية الحكم ثقيلة . . . وارفح من شأن الجيل الجديد ،
فالبلاد ملأى بالشبان المدربين . . . واجعل من هؤلاء الشبان أتباعك ، فامنحهم
الممتلكات وهبهم الحقول والقطعان . . . ولا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع
بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفاءته . . . واعطى للموظفين حقوقهم واجعلهم لا
يحتاجون لشيء ، لأن الرجل المحتاج قد ينحاز إلى الشخص الذى يحمل فى يده
رشوة . وكن محايداً فى حكمك بين الناس فالكل متساوون . . . والمملك ذو العقل المحايد
يفلح حاله ويصبح محترماً داخل القصر وخارجه . . . واعلم أن الله يرى كل شيء . . .
وان فضيلة الرجل المستقيم أحب عنده من ثور يقدمه الرجل الظالم قربانا . . . وعليك أن
تقيم آثاراً باقية لأنها تجعل اسم صانعها باقياً فى الزمن » .

● وكانت مثل هذه التعاليم والتوجيهات التى يلقنها الملوك لأبنائهم بمثابة الدستور
الذى يلتزم به هؤلاء الأبناء عندما تحين لحظة انفرادهم بحكم البلاد . . . وكان من المتوقع
دائماً أن يقوم هؤلاء الملوك الجدد بتلقين أبنائهم مزيداً من التعاليم الأخرى التى تحثهم
على إقامة العدل بين الناس .

نصائح .. للمواطن الصالح

في حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، قام الملك مينا بتوحيد الوجهين البحرى والقبلى ، وأنشأ أول دولة في تاريخ العالم . . وجعل لهذه الدولة حكومة مركزية هى أول حكومة أخرجت للناس .

● وبطبيعة الحال فقد كانت الحكومة تسيطر على جميع الأفراد الذين كانوا يعيشون في جميع الأقاليم المصرية . وعلى مدى السنين تكون عرف أقرب مايكون إلى دستور غير مكتوب ولكنه ينص على علاقة الفرد بالحكومة وعلاقة الحكومة بالفرد وما يتم بينهما من تبادل للحقوق والواجبات ، ورسخت على المدى مجموعة من القواعد والمبادئ التى تربط بين فكرة الوطن وفكرة المواطن .

● وطبقاً للنظام الاجتماعى المفروض ، فلم يكن من الجائز بأى حال من الأحوال أن يصبح المواطن عاطلاً بلا عمل في الدولة المصرية ، بل كان لابد من التزامه بأن يؤدي عملاً ما طبقاً لما هو سائد في الطبقة التى ينتمى إليها هذا الفرد . . وكان من الشائع أن يقوم الانسان بنفس نوع العمل الذى كان يقوم به أبوه إلا في استثناءات نادرة .

● وكان أداء العمل - أياً كان - بدقة وأمانة وإجادة يعتبر من الصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها المرء . ولا تخلو الحكم والتعاليم التى قال بها حكماء مصر الأقدمون من النصائح التى تحث على العمل والانتاج . وفي ذلك يقول الحكيم « بتاح حتب » [حوالى ٢٤٥٠ ق م] : « إعمل . . وكن مجتهداً على الدوام . . وافعل أكثر مما هو مطلوب منك . . ولا تضيع وقتاً لا تعمل فيه . . ممقوت ومكروه ذلك الذى يسىء استخدام وقته . . إن العمل يأتى بالثروة ، والثروة لا تدوم إذا هجر العمل » .

● وقد كان من اللازم أن يتناول الحكماء تحديد « المايجب » و « المالا يجب » بالنسبة لكل مواطن من المواطنين الذين يعيشون داخل المجتمع المصرى ، وكذا تحديد السلوكيات التى لابد أن يلتزم بها كل فرد حسب عمله وتخصصه وحسب الطبقة التى ينتمى إليها .

● يقول أحد الحكماء : « إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغيراً القدر . . وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً ، فلا تنسى كيف كانت حالك فى الزمن الماضى . . ولا تفخر مختالاً بثروتك التى أتت إليك منحة من الله ، فأنت لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر . . واحترس من الأيام التى يمكن أن يأتى بها المستقبل » .

● وينصح أحد الحكماء كلاً من القضاة والمتقاضين فى المحاكم بقوله : « لا تزيغ كلامك فى بيت العدل [المحكمة] . . بل قل الصدق ولو على نفسك . . وكن عادلاً ولا تهتم بكلمات رجل لأنه يرتدى ملابس بيضاء نظيفة . . بل اقبل الكلام الصادق الحق ولو قاله من يلبس خرقاً بالية . . ولا تقبل هدية رجل قوى ولا تظلم الضعيف من أجله » .

● وينصح حكيم آخر كل فرد من طبقة الموظفين والحكام بقوله : « لا تفرض ضريبة على شخص لا يمتلك شيئاً . . وإذا وجدت فقيراً عليه دين كبير ، فقسمه ثلاثة أقسام « وسامحه فى اثنين وابق واحداً » .

● ويضع حكيم آخر قاعدة الالتزام باحترام كبار السن والضعفاء فيقول : « إحذر أن تسلب فقيراً بائساً . . أو تكون شجاعاً أمام رجل ضعيف مهيب الجناح . . ولا تمد يدك لتمس رجلاً مسناً بسوء . . ولا تسخر من كلام رجل هرم . . وإياك أن تجعل نفسك رسول سوء » .

● هذه عينة قليلة من مئات القواعد والحكم والتعاليم والنصائح التى كانت تدعو إلى خلق المواطن الصالح فى الدولة المصرية القديمة .

وعلموا الناس مبادئ الأخلاق والسلوكيات الطيبة

كانت التعاليم الأخلاقية التي تركها لنا حكماء مصر الأقدمون بمثابة ضمير الأمة المصرية ، كما كانت دستور العلاقات الانسانية والاجتماعية والسلوكيات العامة الطيبة داخل المجتمع المصرى القديم .

● هي تعاليم تحض على الفضيلة ونبذ الرزيلة ، وتدعو إلى التحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة النبيلة ، والسيطرة على نزعات النفس الأمارة بالسوء ، هادفة إلى صياغة الانسان المصرى القويم الملتزم بالصراط المستقيم .

● وهى تعاليم لكل انسان مدرك لانسانيته المجردة دون أى اعتبار لطبقته أو لمكانته الاجتماعية أو لدرجة ثرائه أو فقره ، أو لجنسه ذكراً أم أنثى . . فالكل سواء أمام قوانين الأخلاق وقواعد السلوكيات الطيبة .

● وليس من المستغرب أن الغالبية العظمى من تلك التعاليم وصلت آثارها إلينا فى صورة تمرينات كان يقوم بها التلاميذ القدماء فى مدارسهم بقصد التدريب على تعلم أصول البلاغة والأساليب الجميلة وقواعد اللغة وتحسين الخطوط . . أليس معنى ذلك حرص التعليم فى مصر القديمة على تهذيب النشء منذ الصغر ليصبح جيلاً متمرساً بالعلم والأخلاق ، صادقاً مع نفسه ومع الآخرين ؟ !

● ولم يكن مستغرباً أيضاً أن جميع هذه التعاليم الاخلاقية والسلوكية كانت منتشرة شفاهة فى شكل أمثال شعبية بين جميع المصريين مهما اختلفت طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية ، وكونت ضميراً مكتوباً على جبين الأمة المصرية ، ورأياً عاماً لماهية الطبيعة الانسانية الطيبة التى كان من الواجب أن يتحلى بها كل فرد يعيش فى المجتمع .

● قال حكماء مصر القديمة : « إذا أردت أن يكون سلوكك حسناً وأن تحرر نفسك

من كل الشرور ، فاحذر أن تشتهي ما يملكه غيرك . . وإياك والطمع فهو داء لا شفاء منه ، يجعل الود مستحيلاً ، ويحيل الصديق عدواً ، ويقضى على الثقة بين الأصدقاء ، ويفسد ما بين المرء وأمه وأبيه وأخوته الأشقاء ، ويفرق بين الرجل وزوجته . . إنه حزمة تضم كل أنواع الشرور ، وحقيقية ملائمة بكل ما يستحق الخزي والعار .

● وقالوا : « ليس هناك من يخدع الناس ولا يكون مخدوعاً هو نفسه ، وليس هناك من يسير معوجاً ومع ذلك يستمر ويزدهر » .

● وقالوا : « لا تكن متكبراً بسبب علمك . . ولا تكن منتفخ الأوداج لشعورك بأنك رجل عالم . . إن نهاية العلم والمعرفة لا يمكن الوصول إليها ، وليس هناك عالم يعرف كل شيء فهناك من قد يكون أفضل منه وأكثر منه علماً » .

● ولا يسع المقام هنا أن نذكر آلاف القواعد والتعاليم الأخلاقية التي كانت دستوراً لسلوكيات المصريين القدماء ، ويكفى أن نشير إلى تلك المضامين الانسانية التي دعا إليها حكماء مصر القديمة ، الذين حثوا الناس على التمسك بأدب الحوار مع الآخرين ، والتمسك بالصدق وكراهية الكذب والشهادة الزور ، وفرقوا بين حلاوة المال الحلال وشرور المال الحرام ، ودعوا إلى عدم التطفيف في الكيل أو الميزان ، ونادوا بعدم تجريح أصحاب العاهات الجسمانية والعقلية ومعاملتهم بالرحمة والرفق ، وضرورة احترام الصغير للكبير ، واحترام الانسان لمعلمه ، والإحسان الواجب للآباء والأمهات .

● وإلى جانب مثل هذه القواعد الأخلاقية وضع حكماء مصر القديمة عشرات من قواعد « الإتيكيت » التي يجب الالتزام بها عند زيارة البيوت والتلاقي في المناسبات العامة والخاصة وآداب الموائد والولائم .



آداب الحديث .. وآداب المائدة وزيارة البيوت

كان المجتمع المصري القديم منذ بدء تكوينه واستقراره مجتمعاً مهذباً تحكمه قواعد سلوكية وقوانين أخلاقية ملزمة تحدد علاقة الأفراد ببعضهم وعلاقاتهم بالدولة .

● وكانت النصائح والتعاليم التي قال بها حكماء مصر الأقدمون تعبيراً عن ضرورة الالتزام بسلوكيات اجتماعية كانت متبعة فعلاً في حياة أبناء الشعب العاديين بمختلف طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعية ، وما ذكرها هؤلاء العلماء ونصوا عليها كتابة إلا لتكون نصوصاً مقننة يجب أن يحفظها كل فرد عن ظهر قلب ، ويجب أن يلتزم بها في كل تصرفاته وسلوكياته مع الآخرين ، وحتى تصبح تلك النصوص ميراثاً تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل .

● وكان من حسن حظنا أن عثرنا على تلك النصوص مكتوبة ، ليعرف العالم كله أن مصر القديمة العظيمة كانت سباقة إلى الصعود إلى تلك الدرجة العالية من التحضر ، وعرفت قواعد تهذيب الأخلاق وقواعد الاتيكيت التي لا تختلف عن مثيلاتها في أرقى المجتمعات المتحضرة المعاصرة .

● وتدل الشواهد الأثرية العديدة على أن أفراد المجتمع المصري القديم كانوا يستخدمون صيغاً موحدة لتحيات الصباح والنهار والمساء ، وصيغاً شائعة تم التعارف عليها لاستخدامها في التهاني بالأعياد وتهاني الأفراح في مناسبات الزواج والولادة ، وصيغاً أخرى للتعازي في حالات الموت والمواساة في حالات المرض والمناسبات الحزينة الأخرى .

● عند دخول بيوت الآخرين سواء للزيارة أو للحضور حفل أو وليمة ، كان لابد من الالتزام بأصول مرعية واتيكييت خاص يجب مراعاته بأقصى قدر من الأدب . . وفي هذا الخصوص قال حكماء مصر القديمة :

● « لا تدخل إلى بيت الآخرين بحرية ، بل ادخل فقط بعد أن يؤذن لك . . وإذا

دخلت داراً وكان رب البيت مشغولاً بغيرك ، فعليك أن تنتظر صامتاً ويدك على فمك . . وإياك أن تمنع النظر إلى شيء مستهجن أو منتقد ، والزم الصمت ولا تتحدث عن هذا الشيء إلى آخر في الخارج .»

● وبالنسبة لأداب الضيافة والدعوات لحضور الحفلات أو الولائم ، فقد كان لابد أن يلتزم الضيوف بسلوك مهذب يتمثل في قواعد الاتيكيت التالية التي تحدد آداب الحديث وآداب المائدة :

● كن ماهراً في الحديث . . ولا تتكلم إلا إذا كنت مقتنعاً بما تقول . . إن قوة الانسان تكمن في لسانه ، والحديث أقوى من أى قتال . . تكلم فقط بعد أن يرحب بك . . واضحك حينها يضحك صاحب الدار ، فإن ذلك سيكون ساراً لقلبه ، وماتفعله سيكون مقبولاً لأن الانسان لا يعلم ما في القلب .»

● وبالنسبة للمشاركة في الحديث مع المضيف [صاحب البيت] ومع ضيوفه الآخرين قال الحكماء : « إذا سئلت عن شيء فاختر الردود الطيبة الحسنة وتحدث بها على لسانك واحتفظ بالردود السيئة في داخلك . . ولا تنطق بأية كلمة شريفة أمام أى زائر . . ولا تتكلم بكلمات غامضة ولا تنطق بلفظ وقح ، فإن كلمة تقال يوماً وأنت تثرثر قد تدمر بيتك . . ولا تعيد كلمات حمقاء قيلت على لسان ضيف آخر ، في هذه الحالة إلزم الصمت فإنه أحسن . . وإذا اتبعت كلماتى ستصبح على خلق عظيم وسيتعد عنك كل شر .»

● وقال الحكماء في آداب المائدة وتناول الطعام مع الآخرين : « إذا كنت من بين الجالسين إلى مائدة الطعام ، فلا تنظر إلى ما يقدم لغيرك ، وخذ فقط ما يقدم إليك حين يوضع أمامك ، ولا تصوبن نظرات كثيرة إليه ، لأن ذلك تسمئز منه النفوس . . فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة حتى وإن كنت تشتهييه . . إن ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة . . إن من العار أن يكون الانسان شرها .»

أليست كل هذه القواعد على بساطتها – وغيرها عشرات بل مئات – دليلاً كافياً على مدى رقى الحضارة التي صنعها الشعب المصرى القديم في عصور كانت تعيش فيها شعوب أخرى حياة بدائية لا تعرف شيئاً عن تلك السلوكيات الرفيعة الطيبة . . ؟!

الدراما المصرية .. أسبق من الدراما الاغريقية .

كان هناك اعتقاد شائع وراسخ لدى الكثيرين من مؤرخى الآداب والفنون العالمية بأن «الدراما» بمعناها التقليدى وبقواعدها [التراجيديات والكوميديات] هى وليدة الحضارة الاغريقية ، وذلك على أساس نشأتها فى اليونان القديمة معبرة عن أهم خصائص الحضارة القديمة التى عرفتها بلاد الاغريق القدماء .

● وظل هذا الاعتقاد قائماً وراسخاً بفضل مئات الكتب التى ألفها مئات من المؤلفين والمؤرخين والنقاد المسرحيين على مدى قرون طويلة ، والتى تناولت شروحات وتاريخاً ونقداً ودراسات تحليلية للدراما الاغريقية القديمة وكتابتها المشهورين أمثال : إيسخيلوس وسوفوكليس ويوريديس وغيرهم من أشهر مؤلفى المسرحيات اليونانية القديمة التراجيديات والكوميديات .

● ولكن هذا الاعتقاد تزلزل بشدة وأعيد فيه النظر بعد أن تم اكتشاف إحدى الوثائق المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى عهد الملك مينا - موحد الوجهين البحرى والقبلى بمعنى أن تاريخ هذه الوثيقة يرجع إلى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد .

● وبالفحص الدقيق لتلك الوثيقة وترجمتها تبين انها تتضمن نص أول عمل «درامى تمثيلية» فى تاريخ الانسان على الأرض ، مما جعل الكثيرين من مؤرخى الآداب والفنون وعلماء الآثار يعيدون النظر فى أقدمية الدراما الاغريقية ، ويعلنون أن «الدراما التمثيلية» ظهرت فى مصر القديمة قبل أن تعرفها اليونان بما يقرب من ثلاثة آلاف سنة !

● وإنصافاً للحق ، فقد قال بعض هؤلاء المؤرخين إن الدراما المصرية قد نشأت فى أحضان الدين والعقائد المصرية القديمة ، معبرة عن أهم ملامح وخصائص البيئة والحضارة المصرية فى عصورها القديمة ، تماماً مثلما كانت الأعمال الدرامية الأولى التى

ظهرت في بلاد اليونان تعبر عن أهم ملامح وخصائص البيئة والعقائد والحضارة الاغريقية القديمة .

● أما تلك الوثيقة المصرية القديمة ، فقد دون عليها أول نص درامى تمثيلي عرفه الانسان . . وكان هذا النص مكتوباً على سطح حجر أسود [محفوظ حالياً بالمتحف البريطانى بلندن] . . ومن الواضح أن هذا الحجر كان قد تعرض للمحو والتشويه بطريقة مؤسفة ، إلا أن بقاياه الظاهرة تدل بشكل واضح على أن النص المكتوب عليه عبارة عن « حوار تمثيلي فلسفى » يتبادله آلهة مصر القدماء حول عملية « خلق العالم » والنظام الكونى للأشياء والمخلوقات . ولهذا السبب فقد أطلق المؤرخون على هذا النص الدرامى اسم « تمثيلية بدء الخليقة » . كما أطلق عليه مؤرخون آخرون اسم « الدراما المنفية » نسبة إلى مدينة « منف » عاصمة مصر التى شيدها الملك مينا .

● ومن الغريب أن الجمل الحوارية التى كان يتبادلها الآلهة مكتوبة بطريقة تشبه إلى حد كبير الطريقة التقليدية لكتابة الحوار فى المسرحيات القديمة والمسرحيات المعاصرة . . كما أن نص هذه « الدراما » يتضمن « مونولوجاً » فردياً كان يلقيه الكاهن المرتل الذى كان يقوم بدور يشبه دور « الراوى » المفسر لأحداث ووقائع التمثيلية ويعلق عليها .

● والأغرب من ذلك أن هذا النص كان يتضمن أيضاً عدداً من « التعليقات الارشادية » الخاصة بالايخراج والأداء التمثيلى تشابة على نحو ما بالتعليقات والارشادات التى اعتاد أن يكتبها مؤلفو المسرحيات قديماً وحديثاً على حد سواء .

● ولم تكن « تمثيلية بدء الخليقة » هى الوحيدة التى تم العثور عليها من الأعمال الدرامية التى تثبت سبق مصر فى هذا المجال ، بل كانت هناك أعمال درامية أخرى ترجع إلى عصور مختلفة من عصور التاريخ المصرى القديم . . العظيم .



بردية الرمسيوم المسرحية

كانت غالبية النصوص الدرامية التي تم العثور عليها ضمن آثار مصر القديمة تدور حول موضوعات دينية أو موضوعات سياسية لتثبيت وتأصيل نظام الحكم وعلاقته الوثيقة بالعقائد الدينية .

● ومع ذلك فقد كانت هناك أيضا بعض النصوص الدرامية التي تمس موضوعات إنسانية ، وإن كانت هي الأخرى تتعلق بموضوعات فلسفية رمزية ، كنص الحوار بين الصديق والكذب ، وبين عقل الانسان ومعدته ، وبين إنسان وروحه البائسة [وهذا النص الأخير يمكن تصنيفه كشكل من أشكال المونودراما] .

● وفي أواخر القرن التاسع عشر ، حين كان أحد علماء الآثار الأجانب يجري حفائره في منطقة معبد الرمسيوم بغرب الاقصر ، عثر على صندوق أثري وجد بداخله مجموعة من أوراق البردي دونت عليها نصوص درامية تمثيلية ذات طابع طقسي احتفالي يتعلق بتتويج الملك « سنوسرت الأول » على عرش مصر بعد وفاة والده « امنمحتت الأول » .

● وبالنظر إلى أن عهدى هذين الملكين يرجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة « الدولة الوسطى - في القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد » إلا أن بعض المؤرخين والمحللين الذين درسوا هذا النص الدرامى ، أشاروا إلى انه مأخوذ عن أصول نص قديم يتعلق بطقوس عملية تتويج الملوك منذ نشأة النظام الملكى فى مصر فى عصر الأسرة الأولى .

● وقد اصطلح المؤرخون وعلماء الآثار المصرية على تسمية هذا النص الدرامى باسم « بردية الرمسيوم المسرحية » . وهو يتكون من ستة وأربعين « منظراً أو مشهداً » يؤديها تمثيلاً مجموعة من الكهنة وكبار موظفى الدولة وبعض أفراد الأسرة المالكة .

● ويتضمن النص تفصيلات عن تحديد المناظر والديكورات والاكسسوارات مثل الأعمدة المقدسة والأشجار والنباتات والخبز والحلى والجمعة ، كما تظهر أثناء الأداء التمثيلي مجموعة من الحيوانات التي تستلزمها أحداث التمثيلية مثل الثيران والماعز .

● وهناك نص درامى آخر منقوش على جانب من جدران معبد « إدفو » . وقد أطلق عليه المؤرخون اسم « دراما انتصار حورس على أعدائه » . ويعتبر هذا النص من أحسن وأكمل نصوص الأدب التمثيلي فى مصر القديمة حيث وصل إلينا بحالة سليمة وجيدة .

● ويقول المؤرخون أن هذا النص عبارة عن رؤية درامية مختصرة لنص درامى آخر أكبر حجماً وأكثر تفصيلاً ، وأن السبب فى هذا الاختصار هو ضيق المساحة الجدارية التى نقش عليها النص المختصر بما يتضمنه من جمل حوارية ومناظر تصور المشتركين فى الأداء التمثيلي من آلهة وبشر وحيوانات .

● وهذا النص مقسم إلى خمسة أجزاء عبارة عن مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة . . وتدور أحداثه حول الصراع الذى نشب بين « حورس » وأعوانه ، وبين « ست » وأعوانه ، إلى أن انتصر حورس الذى يمثل الخير والحق والعدل ، على ست الذى يمثل الشر والظلم والاعتصاب .

● وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا ما ذكره « هيرودوت » فى حديثه عن مصر بعد أن شاهد تمثيلية مماثلة تدور حول هذا الصراع التاريخى بين حورس وأعوانه وست وأعوانه ، فقد قال انه اعتقد أن هذا الصراع كان حقيقياً يسقط فيه الكثيرون بين قتلى وجرحى ، بالرغم من أن المصريين أكدوا له أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلاً متقناً !



أول شعراء العالم

حين بدأ أول انسان التعبير عن كلامه شعراً ، كان لابد له أن يفتح آفاق الخيال أمام قريحته ، لكي يصيغ التشبيهات المعبرة عن أهدافه وأفكاره ، وأن يجعل أسلوبه جميلاً تتقبله قلوب السامعين ، وأن يجعل كلامه موزوناً مقفى طبقاً لقواعد اللغة التي يصيغ بها شعره .

● ويجمع علماء اللغات في دراساتهم الفقهية على أن أول أشعار نطق بها الانسان كانت معبرة عن أفكار وعقائد دينية . . وكانت تلقى ترتيلاً بقصد التعبد ، وكانت مثل الأناشيد ذات ألحان وإيقاعات تتناسب مع الوزن الشعري وتشيع جواً من الروحانية والمشاعر القدسية .

● ويجمع هؤلاء العلماء أيضاً ومعهم المؤرخون وعلماء الحضارة ، على أن مصر القديمة هي الرائدة الأولى للشعر الديني ، وصاحبة أقدم نص شعري ظهر في تاريخ الانسان على الأرض . والشاهد الأثرى على ذلك يتمثل فيما اصطلح على تسميته باسم « متون الأهرام » . . فما هي حكاية هذه المتون . . ؟ !

● من المعروف أن أهرام الجيزة التي بناها ملوك الأسرة الرابعة : خوفو وخفرع ومنكاورع ، هي أهرام خالية من النصوص ولم يعثر بداخلها على كتابات شعرية أو غير شعرية .

● ولكن في سنة ١٨٨٠م حين كان عالم الآثار « مرييت باشا » يجري حفائره في منطقة سقارة ، عثر على نصوص مكتوبة بالهيروغليفية على الجدران الداخلية بكل من هرم الملك « بيبي الأول » وهرم الملك « مرن رع » . . كما تم العثور فيما بعد على آلاف من أسطر النصوص الأخرى مكتوبة على الجدران الداخلية بالأهرام التي بناها ملوك



ماريت



متون الأهرام منقوشة على الجدران
الداخلية لهرم أوناس بسقارة .

الأسرتين الخامسة والسادسة [في الفترة ما بين عامي ٢٦٢٥ - ٢٤٧٥ ق م] .

● وبدراسة هذه النصوص تبين انها مكتوبة شعراً ، وتتناول موضوعات عقائدية متعلقة في أغلبها بعبادة الإله « رع » إله الشمس في المعتقدات الدينية المصرية القديمة .
ولذلك فقد اعتبرها المؤرخون معبرة عن أقدم صورة للانتاج الأدبي الشعري في تاريخ الحضارة الانسانية ، وليس لها مثيل في أى مكان آخر من العالم ولا في أية حضارة من الحضارات القديمة .

● وقام بعض العلماء بتجميع معظم هذه المتون المكتوبة على جدران الأهرام في مجلدين ضخمين يشتملان على أكثر من ألف صفحة ، وذلك حتى تسهل دراستها ووضعها تحت البحث العلمى والتفسير التاريخي ومحاولة فهم دلالاتها الدينية .

● وقد تمت ترجمة أغلبية هذه المتون ، وعرفت معانيها ومقاصدها ، وتبين أن بعض عباراتها تتكون من أدعية خاصة لضمان حياة أبدية سعيدة للملك المتوفى في الدار الآخرة يتضمن رؤية شعرية معبرة عن خيال واسع وثاب ، وقدرة فائقة على صياغة التشبيهات الجميلة البارعة ، والتعبير العاطفى الودى لكل ما في العالم من كائنات تتمثل في الأنهار والبحار والحقول والحيوانات والطيور والبشر ، ولذائذ الحياة وأطاييها ، وكل ما في الكون من شمس تسطع أثناء النهار وقمر ونجوم تتلألأ في ظلام الليل .

● غير أن كثيراً من متون الأهرام مازالت محل بحث العلماء ، خصوصاً بالنسبة لبعض العبارات الغامضة التى لم يتم التوصل إلى معانيها ، ويبدو أنها كتبت بكلمات مهجورة قديمة جدا ولم تعد مستعملة في أى عصر من عصور التاريخ المصرى اللاحقة على العصر الذى كتبت فيه هذه المتون على جدران الأهرام .

● ومع ذلك يقرر بعض العلماء والمؤرخين انه بالرغم من أن بعض معانى النصوص الشعرية لمتون الأهرام تبدو غريبة وغير مفهومة ، إلا أن من السهل أن يفهم منها إجمالاً انها تتضمن مجموعة من الأوصاف والأحوال عن الطابع الذى كان يتخيله قدماء المصريين عن طبيعة الحياة الأبدية في الدار الآخرة .

● وبهذا يسلم جميع العلماء والمؤرخين بأن أول شعراء العالم كانوا مصريين .

حين طالب الشعب بحقه في الخلود

كان الحق في الحياة الأبدية السعيدة بعد الموت ، حقاً قاصراً على الملوك وحدهم ، وكأن العالم الآخر عالم خاص لا يدخله إلا الملوك .

● وبعد سقوط الدولة القديمة بانهار عصر الأسرة السادسة في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد ، اشتعلت البلاد بثورة شعبية عارمة ، انقلبت فيها الأوضاع الاجتماعية ، وهجم الفقراء على كل ممتلكات ورموز وأفراد طبقة النبلاء والأثرياء ، وضاعت هيبة الحكومة المركزية ، واضطربت الأحوال السياسية ، وتمزقت أوصال البلاد واستقلت الأقاليم تحت حكم أسر ضعيفة . . وهو العصر الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الاضمحلال الأول الذي استمر أكثر من مائة سنة .

● ولم تكن نتائج هذا العصر سيئة على طول الخط ، بل تدل الشواهد الأثرية على ازدهار الأدب ، وعلى ظهور قوة بشرية تتمثل في جموع الشعب بمختلف طبقاته بعد أن أيقظتهم صحوة جعلتهم يتمسكون بحقوقهم وبضرورة الاعتراف بفاعليتهم في بناء المجتمع المصرى . . وكان أهم الحقوق التي نادى بها الشعب ، هو حقه في حياة أبدية - مثل الملوك - بعد الموت والانتقال إلى العالم الآخر .

● ويبدو أن الملوك قد اضطروا اضطراراً إلى منح حق الخلود في العالم الآخر إلى أفراد حاشيتهم وبلاطهم الملكى وإلى النبلاء وكبار موظفى الدولة . . ثم سلموا بعد ذلك بحق كل فرد من أبناء الشعب البسطاء في هذا الامتياز . . ووضعت شروط يتساوى أمامها الجميع للحصول على حق الاستمتاع بمباهج الحياة في العالم الآخر .

● وقد انتشرت ديانة « أوزيريس » - إله العالم الآخر - انتشاراً واسعاً منذ بداية القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد في عصر الدولة الوسطى [الأسرات ١١ ، ١٢ ، ١٣] .

وكانت هذه الديانة قريبة إلى وجدان الشعب المصرى القديم بمختلف طبقاته ، باعتبارها تمثل « الحياة والموت والقيامة » وهى مفاهيم واضحة تماماً فى البيئة المصرية ، حيث تخضر الأرض بعد موات ، وحيث يفيض النيل بعد التحاريق ، وتتجدد مظاهر الحياة فى دورة أبدية خالدة .

● غير أن ديانة أوزيريس لم تظهر هكذا فجأة ، بل كانت ديانة ثابتة يرجع ظهورها إلى عصور غارقة فى القدم ، وكانت متمركزة فى بلدة أبيدوس [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج حالياً] . . وقد وجد فيها الشعب المصرى القديم سنداً له فى حقه فى الخلود بناءً على ما يقرره الإله أوزيريس فى محاكمة عادلة توزن فيها خيرات المتوفى وسيئاته لتقرير مآله ومصيره فى العالم الآخر .

● وهكذا أصبح لزاماً على المتوفى أن يقر فى تلك المحاكمة بأنه نقى السريرة صنّاع للخير غير معتد ولا أئيم ، وانه لم يكذب ولم يسرق ولم ينظر إلى زوجة جاره بسوء ، ولم يعتد على حق أرملة ولا مال يتيم ، ولم يلوث ماء النيل ، ولم يطفف فى الكيل ولا الميزان ، ولم يتلاعب بعلامات حدود الحقول الزراعية ليجور على أرض الآخرين .

● هذه الاعترافات كانت تنظم شعراً ، وكان لها تأثير عميق مماثل لتأثير التراتيل الدينية الأخرى المنظومة شعراً ، لتضفى على المتعبد سحراً روحانياً يسمو بالنفس إلى أسمى الغايات والمثل العليا . . لذلك فقد انتشرت أناشيد الشعر الدينى ، وأصبحت نصوصها محفوظة عن ظهر قلب ، وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل .

● ولذلك فلم يكن من الغريب ظهور الآلاف من قصائد الشعر الدينى التى يرجع تاريخها إلى حقب التاريخ المصرى القديم ، مسجلة على جدران المعابد والمقابر وعلى جوانب التوابيت ، أو مكتوبة على صفحات البرديات المزينة برسوم ملونة تصور مشاهد من العالم الآخر كما كان يتخيلها المصريون القدماء .



غزل المصريين القدماء في نهر النيل

تساءل أمير الشعراء أحمد شوقي مخاطباً النيل في مجراه : « من أى عهد في القرى تتدفق . . وبأى كف في المدائن تغدق . . ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقق » . ويمكننا أن نقول أن هذه التساؤلات الجميلة التي صاغها أمير الشعراء تمجيداً للنيل كانت صدى لمثيلاتها من التساؤلات والتمجيدات التي أطلقها الشعراء المصريون القدماء تمجيداً للنيل واعترافاً بفضله على كل من عاش على أرض مصر .

● وقد أدرك قدماء المصريين منذ البداية فضل النيل عليهم وعلى كافة شئون حياتهم ، حيث امتدت حقوقهم على ضفافه وروايه تدهم بالخيرات من حبوب وثمار وخضراوات ، طعاماً وشراباً هنيئاً لهم ولدواهم . . وبين الحقول المترامية على الشاطئين أقاموا قراهم ومدنهم ، واتخذوه طريقاً سهلاً لهم الاتصالات المتبادلة بين الشمال والجنوب ، فكان الركيزة المثلى التي ارتكزت عليها وحدة الوجهين البحرى والقبلى ، ونشأة الدولة ذات الحكومة المركزية التي يعتبرها المؤرخون أول دولة انشئت للناس في مشارق الأرض ومغاربها .

● ويعتبر الاحتفال بوفاء النيل من أقدم الأعياد والاحتفالات الشعبية التي عرفها البشر ، واستمر الاحتفال بهذا الوفاء على مدى آلاف السنين من التاريخ المصرى القديم والحديث . . وكان هذا الاحتفال السنوى من أكثر الاحتفالات شعبية وصدقاً في مصر ، ولكن للأسف الشديد أصابه الإهمال ضمن ما أصاب ، فانزوى هذا العيد الشعبى وتقلص ، وأصبح عيداً من الدرجة الثانية ، لا تعطل فيه المصالح والدواوين ، ولا تتاح فيه فرصة للمصريين للتعبير عن وفائهم للنيل وفرحتهم بوفاء النهر الخالد الذى وهبهم الأرض التي يعيشون عليها ، ومهد أمامهم سبل الحياة ، ومنحهم القدرة على إرساء أعظم الحضارات القديمة في تاريخ الانسان .

● ولا جدال في أن تلك العلاقة العاطفية التي كان يكنها قدماء المصريين لنهر النيل قد أخذت في العصور القديمة طابع التقديس ودخلت إلى مجال العقائد الدينية . ولذلك فلم يكن غريباً أن يضيفوا على النيل صفة الألوهية ، فجعلوه إلهاً أطلقوا عليه اسم « حابي » أو « حعبي » .

● ولكن هذا الإله لم يكن مثل الآلهة المتعددة التي كانت تعبد في مصر القديمة ، ولم تكن له عبادة منظمة أو طقوس ومراسم لابد من الالتزام بها . . . وصوروه في هيئة بشرية في صورة رجل ذى جسم ممتلىء ، وتظهر في ملامحه سمات النيل والثراء ، ولكنه رجل يجمع بين الذكورة والأنوثة ، له بطن مثل بطون الحبالى ، وتديان كبيران كأنهما ثديا امرأة تنبثق المياه من حلمتيهما مثل اللبن الذى ترضع به الأم الرؤوم أبناءها . وفي هذه الصفة التي تجمع بين الرجولة والأنوثة تعبير واضح على اعتبار النيل رمزاً للخصوبة والقوة التي تمنح الحياة وتهب الماء والغذاء كما تفعل الأم نحو أبنائها الصغار .

● ومن المؤكد أن شعراء مصر القديمة قد صاغوا عبر آلاف السنين قصائد شعرية في مدح النيل والاعتراف بفضلله . وقد تم العثور على إحدى هذه القصائد ، وقام بترجمتها عن الهيروغليفية عالم الآثار « ماسبيرو » نجتزىء منها أبياتا تقول : « هو النيل يفيض على الأرضين فتمتلىء مخازن الحبوب . . وتتوافر حاجات الفقراء . . هو النيل يمنح لأبنائه جميع الخيرات ويطعمهم ويسقيهم ماء الحياة . . وإذا هو لم يطعم الناس ، يهجر النعيم كل البيوت والمساكن . . وتصاب الأرض بالخراب . . هو النيل منشىء السفن ومحقق الأمانى » .

● وهناك العديد من الأبيات الشعرية الأخرى يدور موضوعها حول الاعتراف بفضل النيل . . الذى يطعم الناس ويروى المراعى لتتغذى الماشية . . ونداه ينزل من السماء مطراً . . وهو صاحب الغلال وتخزن الأسماك والطيور . . ولولاه لا يستطيع الانسان أن يتنفس أو يعيش فيموت ملايين من الناس . . وحين يرتفع الماء في مجراه يفرح الناس بقلوبهم ويضحكون مسرورين . . ومن كان منهم في حزن يصبح في ابتهاج ويمتلىء قلبه غبطة . .

« هو النيل . . لو أن ما تعجنه يدها كان ذهباً أو فضة لما أكله الناس . . لأنهم لا يأكلون الذهب ولا الفضة . . وإنما يأكلون القمح . . وهو أفضل من الأحجار الكريمة » .



أغاني الحب والغزل في مصر القديمة

كان قدماء المصريين مولعين بحب الحياة الدنيا بكل ما فيها من مباحج ولذائذ ومتع . . وكانوا أهل فرح ومرح ، يعشقون الموسيقى والغناء ، بل ويستمتعون بمصاحبة المغنين المحترفين أثناء الغناء فيرددون من ورائهم بعض مقاطع ما ينشدونه من أغاني أو يصحبون « ريثم » الموسيقى وإيقاعاتها بالتصفيق بالأيدي . . تماماً مثلها يفعل المستمعون العاصرون من أهل الريف والأحياء الشعبية المصرية ورواد الحفلات الغنائية .

● ويقول المؤرخون وعلماء الحضارات أن أغاني الحب والغزل والأغاني العاطفية بصفة عامة لا تظهر في حياة الأمم إلا بعد انقضاء قرون طويلة من البدايات الحضارية الأولى . . وخلال تلك القرون تتطور مشاعر وأحاسيس الأفراد ، وتترى عواطفهم حتى تحسن وتجيد أساليب التعبير المهذب عن لواعج الحب المتبادل بين الجنسين . . وهذه الأساليب تعبر بدورها عن معالم البيئة التي يترعرع فيها هذا الحب ، وعن العادات والتقاليد السائدة في المجتمع والتي تحكم العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة .

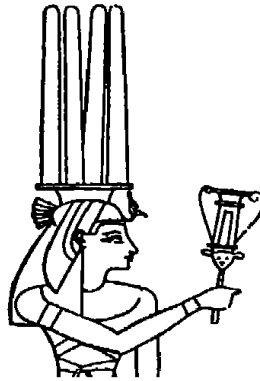
● وقد تركت لنا بعض الحضارات القديمة في الصين والهند واليونان بعض الأشعار التي كانت تعتبر نوعاً من الأغاني العاطفية إلا أن ما تركته لنا الحضارة المصرية القديمة من أمثال تلك الأشعار الغنائية يعتبر أقدم نصوص عشر عليها لأغاني الحب والغزل .

● ولحسن الحظ فقد تم العثور على عشرات من أوراق البردي التي كتبت عليها مجموعات من الأغاني والأشعار الغزلية ، وهى أشعار غاية في الرقة والعزوبة والتشبيهاً الجميلة . . ولا غرو فالعشاق المصريون كانوا يعبرون عن أحاسيسهم

العاطفية بتشبيهات تنبع من البيئة الجميلة التي كانت تحيط بهم . . من نهر النيل إلى خضرة الحقول وألوان الزهور ولطف النسيم وعبقرية المكان بكل ما فيه من أشجار يانعة وطيور مغردة وطبيعة ساحرة الجمال وسماء زرقاء صافية ذات سحب بيضاء ، يتلأأ فيها نور الشمس كل نهار والضوء الفضى فى الليلالى المقمرة ، بالاضافة إلى عراقة الاخلاقيات والتقاليد الاجتماعية المهذبة التى كانت سائدة بين أفراد الشعب المصرى القديم بمختلف طبقاته ومستوياته .

● ومن أشهر هذه البرديات التى حفظت لنا هذه التراثيات الجميلة « بردية هاريس » المحفوظة بالمتحف البريطانى بلندن ، و « برديات شستر بيتى » المحفوظة بمتحف تورين ، كما عثر على مجموعة من الأغانى مكتوبة على قطع من الفخار والخزف محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة . وتتضمن هذه الوثائق الأثرية مجموعة كبيرة من أغانى الحب والغزل فى محاسن المحبوب ، سواء فى شكل أغانى فردية يغنيها الحبيب أو تغنيها الحبيبة ، أو فى شكل « ديالوجات / دويتو » أى أغانى ثنائية يتبادل المحبان غناء مقاطعها ، ويرد كل منهما على الآخر واصفاً حبه ومشاعره العاطفية .

● ومن الدلائل والبراهين المسلم بها ، أن جميع النصوص الغنائية المصرية القديمة التى تم العثور عليها كانت تغنى مصحوبة بألة أو أكثر أو بفرقة موسيقية كاملة ، وذلك استناداً إلى عشرات المناظر الدنيوية المنقوشة على جدران المعابد والمقابر التى تصور لنا المنشدين والراقصين والعازفين ومعهم آلاتهم الموسيقية الشهيرة ، من آلات وترية مثل الهارب والعود والطنبور ، وألات النفخ مثل المزمار والناى والأرغول المفرد والأرغول المزدوج ، والآلات الايقاعية مثل الطبول والدفوف والصنجات والمصفقات الخشبية والنحاسية ، إلى غير ذلك من الآلات الموسيقية التى شاع استعمالها فى مصر القديمة .



نماذج من أشعار الحب والغزل

من العسير هنا أن نستعرض كل أغاني الحب والغزل وأشعارها الجميلة الرقيقة التي تركها لنا قدماء المصريين مكتوبة على صفحات البرديات أو على قطع الفخار والخزف ، أو منقوشة على جدران المقابر . ويكفيها هنا أن تقدم بعض النماذج من تلك الأشعار لنلمس منها ما تتضمنه من تعبيرات الحب الغزل في المحبوب .

● وسوف نرى أن الشعراء القدماء المجهولين الذين كتبوا وأبدعوا تلك القصائد الغزلية لم يكن هدفهم محصوراً في مجرد التعبير عن العواطف الجياشة التي تختلج في نفوس المحبين ، بل كانوا يصوغون قصائدهم مشتملة إلى جانب إظهار المحبة ، بعض الخطط التي يصطنعها المحبون للقاء مع أحبابهم ، وبعض التشبيهات الجميلة التي تنبع من جماليات البيئة المصرية ، بالاضافة إلى بعض الأوصاف البريئة والأوصاف الجريئة المعبرة عن مدى الحب الذي يكنه قلب العاشق الولهان .

● يقول العاشق في إحدى الأغاني : « حبيبتى حديقة . . مملوءة ببراغم وزهور اللوتس . . وصدورها يموج بفاكهة الحب . . وذراعاها متعة . . وشفتها الجميلتان شرك منصوب للطير . . وأنا أوزة بريّة . . يجتذبا الطعم » .

● ويقول في أغنية أخرى : « حبيبتى هناك على الشاطيء الآخر . . يفصل بينى وبينها ماء الفيضان . . وعلى رمال الشاطيء تمساح يربض متربصاً . . ولكنى لا أخشاه ولا أرهبه . . وسأخوض الماء حتى أصل إليها فيشرح صدرى . . وافتح ذراعى لأحتويها بين أحضانى » .

● وتقول المحبوبة في أغنية أخرى : « يخلو لي يا حبيبي أن أذهب إلى بركة الحديقة لاستحم أمام عينيك .. وأتركك تملأ ناظريك بجمالي .. في ثوبى الكتانى الأبيض .. وقد التصق بجسمى بعد أن ابتل .. وسأنزل إلى الماء لاصطاد لك سمكة جميلة حمراء .. أضعها بين أصابعى .. تعال يا حبيبي وانظر إلى .. » .

● ويقول الحبيب : « .. ليتنى أكون خادمتها لأمتع نظرى برؤيتها طول النهار .. ليتنى أكون غاسل الملابس لأنعم برائحة العطر الذى يفوح من ثيابها .. ليتنى أكون خاتماً فى إصبعها .. الخ » . [قارن هذا التشبيه بمسرحية شيكسبير روميو وجوليت حيث جاء على لسان روميو حين شاهد جوليت لأول مرة قوله : « أه .. ليتنى كنت قفازاً فى تلك اليد .. حتى ألمس هذا الخد » .

● أما أغاني « الديالوج أو الدويتو » فهى مناجاة شعرية بين حبيين يتناجيان ويتبادلان أسمى معانى الحب .. تقول الحبيبة مثلاً : « لن ابتعد عنك يا حبيبي أبداً .. وأمنيتى أن أظل فى بيتك وتحت أمرك يا أجمل الناس وأعز الناس .. وسأضع يدي فى يدك .. أروح وأغدو معك فى كل مكان ممتع .. أنت العافية .. وأنت الحياة » .

● ويقول الحبيب فى لوعة : « سأرقد فى بيتى وأتمارض .. وحين يأتى الجيران لزيارتى .. ستكون حبيبتى معهم .. وعندئذ سيصبح الأطباء فى خجل .. لأنهم لم يعرفوا دائى ولا دوائى .. أما هى فستعرف على الفور موطن الداء .. وستكون نظرات عينها دواء يعيد الصحة إلى جسمى .. ويعيد الشفاء إلى قلبى » .

● والملاحظ فى كثير من الأشعار الغنائية التى تدور حول أحوال الحب والغزل فى مصر القديمة ، أن الحبيب كان ينادى حبيته بكلمة « أختى » .. وأن الحبيبة كانت تنادى حبيبها بكلمة « أختى » .. ولا يفهم من ظاهر هاتين الكلمتين أن ثمة علاقة حب أو غرام كانت تقوم بين الاخوة الأشقاء ، بل يعتبر التعبير هنا مجازياً للدلالة على قدر الاعزاز الذى يکنه كل طرف للطرف الآخر ، وهو إعزاز يصل إلى مرتبة الأخوة ، ويعبر عن نظافة وطهارة العلاقة وعذريتها .

أغانى العمل والمناسبات السعيدة

وكما كان المصريون القدماء أهل فرح ومرح ، كانوا أيضا أهل عمل وإنتاج ، سواء فى بناء وتشبيد كل هذه المنشآت المعمارية التى تركوها لنا ، أو فى مجالات الأعمال الزراعية والصناعية والتجارية والعلمية .

● أما الشواهد الأثرية على ذلك ، فتمثل فى آلاف النقوش التى تصور لنا مظاهر الحياة العملية التى تدل دلالة قاطعة على الهمة والنشاط فى ممارسة الأعمال جميعها . وقد حرص الفنانون فى تصوير تلك المناظر على إبراز طبيعة العمل الجماعى أو العمل الفردى ، مع التركيز على الحركات الإيقاعية « الريتمية » التى يقوم بها العمال على اختلاف تخصصاتهم أثناء أدائهم لتلك الأعمال .

● هناك نقوش تصور الأعمال الزراعية بالتفصيل ، فتعرض عمليات إعداد الأرض وعزقها وتمهيدها ، ثم عمليات الحرث والبذار والرى والحصاد ودرس الحبوب ونقلها لتخزينها فى الصوامع .

● ونقوش أخرى تصور الصناع والعمال والفنيين والحرفيين أثناء ممارسة صناعاتهم وحرفهم ، سواء فى نحت وتشكيل الأحجار ، وأعمال النجارين وصناع السفن النيلية والبحرية ، وأعمال النوتية والبحارة سواء عند التجديف أو عند تسيير السفن الشراعية ، وأعمال الحمالين عند ممارسة أعمال الشحن والتفريغ ، وأعمال الحدادة وتشكيل النحاس والبرونز والذهب والفضة والمجوهرات ، والأعمال الفنية والعلمية الأخرى كالعلاج الطبى وإجراء عمليات الختان والعمليات الجراحية والعلاج الطبى البيطرى .

● وكذلك النقوش التى تصور أعمال الرعاة والصيادين ، سواء عند رعى قطعان

الماشية بمختلف أنواعها ، أو عند صيد الاسماك والطيور ، أو عند مطاردة الوحوش في عمليات الصيد الصحراوى .

● ويقول علماء « الفولكلور » أن أداء العمل الجماعى يتطلب نوعاً من الانتظام في أداء الحركات الجسمانية للعمال المشتركين في هذا العمل . وهذا التنظيم يقوم به في العادة رئيس العمال ، أو بإنشاد أغنية تتناسب مقاطعها ولحنها مع هذه الحركات . . وفي أغلب الأحوال كان العمال يرددون بعض المقاطع أو الكلمات وراء رؤسهم لتوحيد الحركة بالنسبة لجميع العمال المشتركين في العمل ، وكان هذا هو الأصل في نشأة وظهور « أغاني العمل » في المجتمعات الحضارية .

● وقد ترك قدماء المصريين مجموعة كبيرة من مقاطع ونصوص الأشعار الشعبية البسيطة التي كانت تنشد غناءً أثناء أداء الأعمال الجماعية . . مثل أغاني الفلاحين والعمال والرعاة والصيادين والشياطين من حاملي الأثقال .

● كذلك فقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تصوير مآثر من مناظر الولائم والاحتفالات الخاصة التي كانت تقام في القصور الملكية وبيوت النبلاء والأثرياء وعلية القوم ، حيث تعزف الموسيقى وتقام حلقات الرقص وتنشد الأغاني . . وكانت هناك مجموعة من الأغاني الشائعة لمختلف المناسبات السعيدة كحفلات الزواج والختان والبلوغ وغير ذلك من المناسبات الأسرية . ومنها أغنية جميلة تقول كلماتها : « كما ينزل التيار في النيل شمالاً . . وتهب ريح الشمال جنوباً . . أجيال تذهب . . وتأتى مكانها أجيال جديدة . . فلا تدع قلبك يحزن أبداً . . إمض يوماً سعيداً . . ولا تذكر الشر » .

● وإلى جانب تلك الأغاني التي تشيع البهجة وتضفى جواً من المرح على المدعوين ، كانت تنشد في تلك الولائم أيضاً بعض الأغاني التي تتضمن أفكاراً فلسفية أو عقائدية . وقد عثر على نص أغنية من ذلك النوع تقول كلماتها : « متع نفسك مادمت حياً . . فأنت لا تعرف ما سوف يأتى به الغد . . ومن ذا الذى عاد من العالم الآخر ليخبرنا بما يجرى فيه ؟ . . لا يستطيع أحد أن يأخذ متاعه معه إلى العالم الآخر . . وليس في قدرة من يذهب إلى هناك أن يعود إلينا مرة أخرى ! » .

الموسيقى .. والانسان الأول

يقول الفلاسفة ومؤرخو الفنون وأساتذة الحضارات وعلماء الانثروبولوجى [علم الانسان] أن الموسيقى نشأت مع الانسان الأول . . بل أن هذا الانسان كان يستخدم الأصوات الموسيقية للتعبير عن نفسه وأحواله قبل أن ينطق باللغة ويتعلم الكلمات وتركيبات الجمل .

● ومن الحقائق المفترضة علمياً أن الانسان الأول كان لا يمكن له الاستمرار في الحياة إلا بجوار مصدر للمياه الصالحة للشرب ، وقرب الأشجار والنباتات التى أنعم بها الله عليه لتكون جذورها وثمارها وأوراقها مصدراً لغذائه . . وفى هذه البيئة الطبيعية ظهرت أيضاً الحيوانات والطيور والزواحف الصغيرة والكبيرة بكل أنواعها وفصائلها المختلفة .

● وامتلات هذه البيئة الطبيعية بكل الظواهر المرئية والأصوات المسموعة . . فالسما ترعد وتبرق . . والمياه الجارية ذات خرير مميز . . وعند هبوب العواصف أو خطرات النسيم تهتز فروع الأشجار والشجيرات فى حفيف خافت أو صاحب حسب الأحوال . . والطيور تصدح وتغرد أو تنعق وتصفّر بنغمات مختلفة الأصوات والدرجات ، ولكل أنواع وفصائل الحيوانات والوحوش والزواحف صوت يميزه عن غيره من مخلوقات الله . ويقول الفيلسوف الألمانى شوبنهاور فى ذلك : « إن العالم فى حقيقة الأمر عبارة عن موسيقى مجسمة » .

● ومن الظواهر الواضحة فى التركيبية الجسدية للجسم البشرى أن بعض أعضاء هذا الجسم - عندما تؤدى وظائفها الفسيولوجية - تعمل طبقاً لإيقاع منتظم وتميل بطبيعتها إلى الانتظام الحركى ، مثل نبضات القلب ، وحركة الرئتين فى حالتى الشهيق والزفير ، وانتظام حركات الذراعين والساقين عند السير . . الخ .

● ومن الناحيتين العلمية والفنية تتألف الموسيقى عادة من عنصرين هما « الميلودى والريتم » أى من « النغم والايقاع » . وبمعنى آخر من الأصوات المنغمة والايقاعات التى تصاحب هذه النغمات . لذلك يمكن القول بأن الانسان الأول قد أدرك بالسليقة الاحساس بهذين العنصرين ، وأدرك منذ البداية أن البيئة الطبيعية التى يعيش فيها حافلة بالأصوات الموسيقية ، وأن أقرب هذه الأصوات الموسيقية إليه هو صوت « المناغاة » الذى يصدر من الأطفال الرضع والأطفال الصغار قبل أن يتعلموا نطق الكلام . ويقول علماء الموسيقى أن هذه المناغاة فى حقيقة الأمر يمكن اعتبارها « نغمات » موسيقية تشغل ثلاث درجات من السلم الموسيقى .

● وبالنظر إلى أن الإنسان الأول كان ميالاً بطبعه إلى محاكاة الطبيعة كلما استطاع إلى تلك المحاكاة سبيلاً ، بالإضافة إلى إحساسه المتواصل برهبة هذه الطبيعة والمخاوف التى يمكن أن تنتج عنها ، يقول بعض علماء الأنثروبولوجى أن الإنسان الأول حاول ونجح فى تقليد الأصوات التى تتردد فى البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، وظهرت بذلك الموسيقى البدائية الأولى . . وكانت آلتها « كلها » مستمدة من أعضاء الجسم الإنسانى ، حيث استخدم الفم فى الصفير وبث الأصوات المختلفة ، كما استخدمت اليدان فى التصفيق ، واستخدمت القدمان فى الدق على الأرض للمحافظة على أداء الإيقاع المنتظم .

● وهكذا دخلت الموسيقى وارتبطت بجميع الحضارات الانسانية الأولى التى ظهرت فى قارة افريقيا [وفى وادى النيل المصرى على وجه الخصوص] . . كما ظهرت فى قارة آسيا فى مناطق وسط القارة وشرقها وجنوبها ، خصوصاً فى الهند والصين . وقد بحث العلماء هذه الظاهرة الانسانية وكتبوا فيها مئات من الكتب والنظريات والدراسات العلمية والفنية والتاريخية . ويهمننا منها ما قالوه عن « الموسيقى فى مصر القديمة » منذ عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية العصر الفرعونى .

الموسيقى المصرية .. في عصور ما قبل التاريخ

يقول المؤرخون وعلماء الحضارات الذين درسوا عصور ما قبل التاريخ في مصر [وهى عصور تسبق بآلاف السنين العصر التاريخى المصرى الذين بدأ بتوحيد الوجهين القبلى والبحرى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد] إن المجتمعات الانسانية الأولى التى استوطنت وادى النيل المصرى وعاشت على ضفافه ، قد تركت لنا شواهد أثرية عديدة تدل بصفة قاطعة على أن هؤلاء المصريين الأوائل قد عرفوا « الموسيقى » وربطوها بالرقص والعبادة .

● ويقول مؤرخو الموسيقى إن « الموسيقى البدائية » التى استطاع أن يعزفها الانسان الأول مستخدماً أعضاء من جسمه [الفم واليدين والقدمين] كآلات موسيقية ، لم تكن بناء على رغبة منه فى الاستمتاع والتسلية والطرب ، بل كانت هذه الأصوات الموسيقية التى ابتدعها وسيلته المثلث فى التعبير عن مشاعر الرهبة والخوف والقلق ، والتعبير عن النداء الجنسى ، والتعبير عن هزائمه حين ينهزم أو انتصاراته حين ينتصر على الأخطار التى تمتلئ بها البيئة الطبيعية التى يعيش فى كنفها .

● ولما كان الإيقاع هو ألزم لزوميات الأداء الموسيقى فى صورته الأولى ، فقد بدأ الانسان الأول - منذ عصور ما قبل التاريخ - فى التفكير فى إيجاد وسيلة أو « أداة » تؤدى هذا الغرض ، تكون أكثر كفاءة وأضخم صوتاً من استخدام يديه فى التصفيق أو استخدام قدميه فى الدق على الأرض . .

● وهكذا استطاع الانسان الأول أن يخترع الطبول والدفوف بأنوعها وأشكالها المختلفة ، مستخدماً جذوع الأشجار المجوفة وجلود الحيوانات المدبوغة . . ومن الحقائق المؤكدة فى علم التاريخ الموسيقى أن « الآلات الإيقاعية » كانت أسبق فى

الظهور وأقدم بكثير من الآلات الموسيقية الأخرى كآلات النفخ الخشبية والآلات الوترية .

● وفي علم « الثقافات والحضارات الانسانية المقارنة » أجمع العلماء على أن مصر القديمة كانت تعرف الموسيقى منذ عصور ما قبل التاريخ ومروراً بجميع حقبات التاريخ المصرى القديم كله ، بل وذكروا أيضا ان مصر كانت الرائدة والسباقة فى تطوير الموسيقى ، سواء من ناحية ابتداع وتطوير صناعة الآلات الموسيقية ، أو من ناحية تطوير استخدام الموسيقى فى معظم مناحى الحياة الاجتماعية .

● وهناك مئات ، بل آلاف ، من الشوهد الأثرية المنقوشة أو المنحوتة تدل بمتتهى الوضوح على أن المصريين القدماء - منذ عصور ما قبل التاريخ وفى كل عصورهم التاريخية القديمة- قد استخدموا الموسيقى فى ممارسة الطقوس العقائدية والعبادات الدينية ، كما استخدموها فى التربية النفسية والتعليمية ، وفى حفلات الترفيه والمرح والترويح عن النفوس وإشاعة البهجة والسرور خصوصا بعد أن اقترنت الموسيقى بالشعر والرقص والغناء .

● ولعل أكبر دليل على مبلغ السمو الحضارى الذى بلغته الموسيقى فى مصر القديمة هو الشهادة التى أدلى بها الفيلسوف الإغريقى « أفلاطون » حين دعا فى كتابه الشهير « الجمهورية » إلى ضرورة تربية شعب هذه الجمهورية تربية فنية ، وتعويده على سماع « الموسيقى المصرية » ذات القوانين والقواعد العلمية ، والتى تتميز عن جميع موسيقات الشعوب الأخرى بجمال الألحان وحلاوة الأنغام .

● وتناول المؤرخون دراسة التطور العلمى والفنى والصناعى للموسيقى المصرية القديمة فى كل مراحل التاريخ المصرى القديم . وهى دراسة متعمقة وممتعة ، وتتضمن معلومات طريفة ومؤكدة قد لا يعرفها الكثيرون .

الموسيقى المصرية .. في عصر الدولة القديمة

حين يتحدث العلماء والمؤرخون عن « الموسيقى » - كعلم وفن - لدى الشعوب القديمة ، فإن حديثهم يقوم في أغلب الأحوال على افتراضات أو نظريات تقبل التشكيك كما تقبل التصديق . . ولكنهم عندما يتحدثون عن الموسيقى لدى قدماء المصريين فإن بحوثهم ودراساتهم تستند إلى حقائق ثابتة تؤيدها آلاف من الدلائل والشواهد الأثرية المنقوشة أو المنحوتة أو المصنوعة .

● درس العلماء والمؤرخون الموسيقى المصرية القديمة من جانبها « الفنى » باعتبارها مؤشراً يدل على الطبيعة النفسية للشعب المصرى القديم وما كان يتمتع به من الذوق الفنى العام . . كما درسوها من الناحية « العلمية » لبيان مدى ارتباطها بالعلوم الرياضية وعلوم الفلك والعلوم الفلسفية على ما سوف نرى فيما بعد . . كذلك فقد درسوها من الناحية « الصناعية » بكل تفصيلاتها الخاصة بصناعة الآلات الموسيقية سواء من ناحية الدقة فى التصميم لأداء النغمات أو الايقاعات المطلوبة من كل آلة وأيضاً من ناحية جمال الشكل .

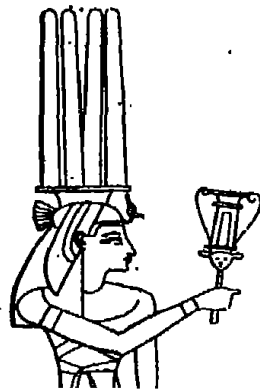
● وقد حرص العلماء والمؤرخون على دراسة التاريخ العام للموسيقى المصرية القديمة بنفس التقسيم العلمى لدراسة التاريخ المصرى القديم ، أى تقسيم هذا التاريخ إلى عصور رئيسية ثلاثة هى : عصر الدولة القديمة [من عام ٢٦٣٥ - إلى عام ٢١٥٥ ق م] . . وعصر الدولة الوسطى [من عام ٢١٣٤ - إلى عام ١٦٥٠ ق م] . . وعصر الدولة الحديثة [من عام ١٥٥١ - إلى عام ١١١٩ ق م] . . ثم يجيء بعد ذلك ما اصطلاح على تسميته بالعصر المتأخر الذى ينتهى عام ٣٣٢ ق م حين قام

الاسكندر الأكبر بغزو مصر وبدأ العصر البطلمي فالعصر الرومانى . . . ونبداً بعرض
المعالم العامة لما انتهت إليه دراسات المؤرخين للموسيقى المصرية فى عصر الدولة
القديمة .

● فى ذلك العصر - أى منذ نحو ٤٦٠٠ سنة - بلغ المصريون القداماء مرحلة ناضجة
فى الحضارة الموسيقية ، وقاموا بتطوير الآلات الموسيقية البدائية التى كانت شائعة
الاستعمال خلال آلاف السنين السابقة على عصر الدولة القديمة ، كما ابتكروا آلات
موسيقية أخرى لم تكن معروفة من قبل .

● وتدل النقوش الأثرية التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر الذى يغطى تاريخ
الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، على أن العزف أو الأداء الموسيقى قد تم
تنظيمه على شكل فرق موسيقية غنائية تتكون من عناصر ثلاثة هى : المنشد أو المغنى
الذى كان يتولى رئاسة الفرقة وقيادتها . . . وعازفو الهارب والآلات الإيقاعية . . . وعازفو
الناى وآلات النفخ .

● وبدراسة تلك النقوش أيضاً تبين أن الموسيقى فى ذلك العصر قد ارتبطت بالشعر
والغناء والترتيل ارتباطاً وثيقاً ، سواء بإنشاد الأشعار العاطفية أو الفلسفية أو ترتيل
النصوص الدينية . . . كما ارتبطت الموسيقى أيضاً بالرقص « الفنى » . . . ومن المؤكد بعد
دراسة حركات الراقصين والراقصات المنقوشة على جدران المقابر التى يرجع تاريخها إلى
ذلك العصر أن حركات الرقص بأنواعه المختلفة كانت تصمم على أساس من القواعد
الفنية المدروسة ولم تكن حركات عشوائية أو كيفما اتفق ، ولذلك فقد كان من الطبيعى
أن تؤثر حركات الرقص فى الصياغة الموسيقية ، وأن تظهر بالتالى ألحان موسيقية مناسبة
لأداء تلك الحركات .



الموسيقى المصرية .. في عصر الدولة الوسطى

من الظواهر المدهشة في الحضارة المصرية ما تؤكدُه النقوش الأثرية من أن مصر قد عرفت الآلات الموسيقية كاملة الصنع منذ عصور ما قبل التاريخ .

● وهناك نقش بالنحت البارز يرجع تاريخه إلى عصر ما قبل الأسرات يصور لنا أحد مناظر الصيد ، ونرى فيه تعبيراً كاريكاتورياً لصورة ذئب يقف على قدميه الخلفيتين ويمسك بقدميه الأماميتين آلة ناي طويلة ينفخ فيها بضمه . وبتدقيق النظر في هذا الناي نجده من النوع الطويل وذا ثقوب متعددة تمكن العازف عليه من التحكم في حدة وغلظ النغمات .

● أما آلة الهارب ، وهي من الآلات الوترية الشهيرة في موسيقى مصر القديمة ، فقد مرت بعدد من مراحل التطور في صناعتها وتصميمها خلال العصر العتيق وعصر ما قبل الأسرات . ومن أقدم النقوش التي وصلت إلينا لصورة آلة الهارب المصرية وهي كاملة الصنع والتكوين ، نراها بأوتارها وصندوقها الصوتي . . وتدل هذه النقوش على أن هذه الآلة كانت ذات أحجام مختلفة ، منها الهارب ذات الحجم الكبير التي يبلغ طولها قامة الانسان ، ولذلك يقوم العازف باستخدامها وهو واقف ، ومنها آلة الهارب القصيرة ويعزف عليها العازف وهو جالس على الأرض . وقد ظلت هذه الآلة بهذا الشكل التقليدي خلال عصرى الدولتين القديمة والوسطى ، وكانت أوتارها لا تزيد عن أربعة أو خمسة أوتار ، وذلك قبل أن تتطور تطوراً هائلاً في عصر الدولة الحديثة .

● ومن الغريب أن آلة الهارب المصرية بشكلها البسيط مازالت منتشرة بين كثير من قبائل وشعوب غرب افريقيا . كما أن هناك آلة مثيلة لها مستعملة في بورما وبعض دول جنوب شرق آسيا .



فرقة من العارقات تقودهن عارفة على آلة الهارب



عارفة على الناي المزدوج على إيقاع
من التصفيق بالأيدي .

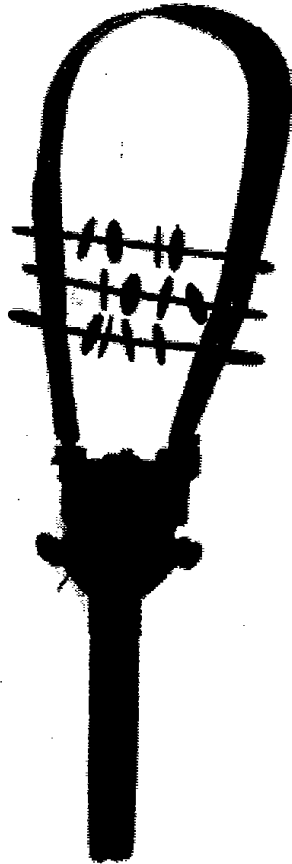
● أما آلة الناي فقد ظلت في عصر الدولة الوسطى بشكلها التقليدي منذ أن ابتدعها المصريون القدماء في عصور ما قبل التاريخ . وكان من الشائع أن يقوم عازف الناي باستخدام عدة « نايات » لتأدية مختلف أنواع الألحان ، تماماً مثل الطريقة التي يستخدمها عازفو الناي في العصر الحديث .

● وفي عصر الدولة الوسطى ظهرت نقوش أثرية تدل على أن العزف على الناي بمختلف أنواعه [الطويل والقصير] لم يعد قاصراً على العازفين الرجال كما كان شائعاً من قبل ، بل ظهرت نقوش عديدة تصور لنا عديداً من عازفات الناي من النساء والفتيات .

● كذلك فقد ظهرت نقوش أخرى لآلة موسيقية من آلات النفخ وهي « الزمارة المزدوجة » وهي عبارة عن قصبه من الخشب ذات بوق ينفخ فيه بالفم . وإلى جانب هذه النقوش تم العثور على زمارة مزدوجة أثرية يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى وهي محفوظة حالياً بالمتحف المصري ببرلين . . ومازالت الزمارة المزدوجة التي اخترعها المصريون القدماء مستعملة حتى الآن في قرى الريف المصري ويطلقون عليها اسم «الستاوية» إذا كان عدد ثقبها ستة ثقوب ، أو اسم « الربعاوية» إذا كانت ذات ثقبين أربعة .

● وقد حدد علماء ومؤرخو الموسيقى أنواع الآلات الإيقاعية التي كانت مستخدمة في مصر القديمة حتى عصر الدولة الوسطى في مجموعة من الآلات هي على وجه التحديد : القضبان المصفقة وكانت تصنع من الخشب . . والأذرع المصفقة وكانت تصنع من الخشب على شكل الأيدي الانسانية . . والأرجل المصفقة وكانت تصنع هي الأخرى من الخشب على شكل الأرجل الانسانية . . والألواح المصفقة وهي ألواح خشبية يبلغ طولها نحو ٤٠ سم . . والرؤوس المصفقة وكانت تستخدم أثناء الرقص وتصنع على شكل رؤوس إنسانية أو رؤوس غزلان وتنحت من المعدن أو العظام . . والأجراس والجلجل وكانت ذات أنواع متعددة وتصنع من المعدن . . والشخايل وتصنع من الخيزران المجدول وبداخلها قطع من الزجاج . . والطبول بأنواعها .

● ومن أهم الآلات الإيقاعية آلة مصرية صميمة كانت تسمى آلة « السستروم » أو الصلاصل ، وكانت تصنع من البرونز أو من الذهب الخالص ، ويقتصر استخدامها في الموسيقى الدينية التي كانت تعزف داخل المعابد ، وكان استخدامها قاصراً على النساء الكاهنات والملوك في كثير من الأحيان .



آلة السستروم أو الصلاصل وهي آلة إيقاعية تستخدم في الموسيقى الدينية .

كاهنة مصرية تعزف
على آلة السستروم .



الموسيقى المصرية .. في عصرالدولة الحديثة

في حوالى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد ، تمكن « أحس » [أول بطل تحرير في تاريخ العالم] من طرد الهكسوس الغزاة ، وأسس الأسرة الثامنة عشرة التى يعتبر بعض ملوكها من أشهر ملوك العالم القديم والعالم الحديث على حد سواء . . وبدأ بذلك عصر الدولة الحديثة حيث سيطرت الامبراطورية المصرية على معظم أنحاء العالم القديم فى أفريقيا وآسيا .

● ومما لاشك فيه أن تلك البلاد والمناطق التى فتحتها مصر ودخلت فى نطاق الامبراطورية المصرية كانت لها موسيقاها الخاصة وآلاتها الموسيقية التى تختلف فى قليل أو كثير عن الآلات الموسيقية التقليدية التى كانت معروفة فى مصر . وكما يقول علماء الحضارة ، إن حضارات الأمم والشعوب قابلة للامتزاج ببعضها طبقا لقانون الأخذ والعطاء . لذلك يمكن القول بأن الموسيقى المصرية قد تبادلت التأثير والتأثير مع موسيقى الشعوب والأمم التى دخلت فى نطاق الامبراطورية المصرية فى عصر الدولة الحديثة .

● وتدل مئات النقوش التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر على حدوث تطور هائل واسع المدى فى الموسيقى المصرية ، سواء من ناحية صناعة الآلات التقليدية ، أو صناعة آلات موسيقية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، أو من ناحية الأداء الموسيقى . ويظهر ذلك بوضوح فى النقوش التى تصور لنا الحفلات الموسيقية الغنائية والراقصة ، وموسيقى الولائم والحفلات الخاصة التى كانت تقام فى بيوت النبلاء ، والموسيقى التى كانت تعزف فى المعابد أو فى قصور الملوك .

● وبالدراسة الفاحصة المتأنية لهذه النقوش يمكن ملاحظة أن طابع الموسيقى

المصرية في عصر الدولة الحديثة قد اختلف تماماً عن طابعها في عصرى الدولتين القديمة والوسطى ، حيث كان عدد الآلات الموسيقية في هذين العصرين محدوداً ، كما كانت هذه الآلات بسيطة وذات أصوات هادئة منخفضة . ويظهر أثر ذلك في حركات الرقص التى أظهرتها النقوش التى يرجع تاريخها إلى هذين العصرين ، حيث تظهر حركات الراقصين والراقصات بطيئة هادئة تكاد أن تكون خالية من السرعة أو العنف .

● ويتميز طابع الموسيقى المصرية في عصر الدولة الحديثة بالحدة والصخب والأنغام السريعة المرتفعة . ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى تعدد أنواع الآلات الموسيقية بدخول آلات جديدة وتطور صناعة الآلات التقليدية القديمة . كما يتميز هذا الطابع أيضاً بأن الغالبية العظمى من عازقى الموسيقى كانوا من النساء والفتيات ، كما يتميز كذلك بتغير السلم الموسيقى من خماسى إلى سباعى ، وهو أمر نعرضه فيما بعد .

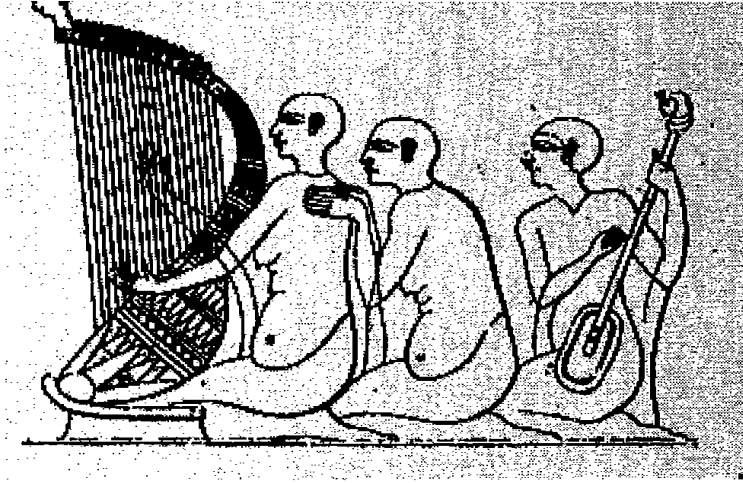
● ومن أهم الآلات الوترية التى ظهرت في عصر الدولة الحديثة آلة « العود » وكانت ذات نوعين : العود ذو الرقبة القصيرة وهو يشبه العود الشرقى المستعمل في مصر الآن إلى حد ما . . والعود ذو الرقبة الطويلة وهو يشبه آلتى الطنبور والبزق المستخدمتين في الموسيقى المعاصرة . . كذلك فقد ظهرت في نقوش الدولة الحديثة آلة موسيقية وترية تسمى « كنار » - بكسر الكاف وتشديد وفتح النون - حسب نطقها في اللغة المصرية القديمة ، وهى آلة تشبه آلة « السمسمية » المستخدمة حالياً في منطقة القناة .

● أما آلة الهارب فقد تطورت في عصر الدولة الحديثة تطوراً هائلاً ، حيث أصبحت تصنع من خشب الأبنوس وتزخرف وتحلى بالذهب والأحجار الكريمة ، كما تطور صندوقها الصوتى وأصبح يصمم بأشكال مختلفة ، وكبرت أحجام الآلة حتى أصبحت أكبر وأطول من قامة الانسان ، كذلك فقد ازداد عدد أوتارها كثيراً بالمقارنة بعدد أوتار آلات الهارب التى كانت مستخدمة في عصرى الدولتين القديمة والوسطى .

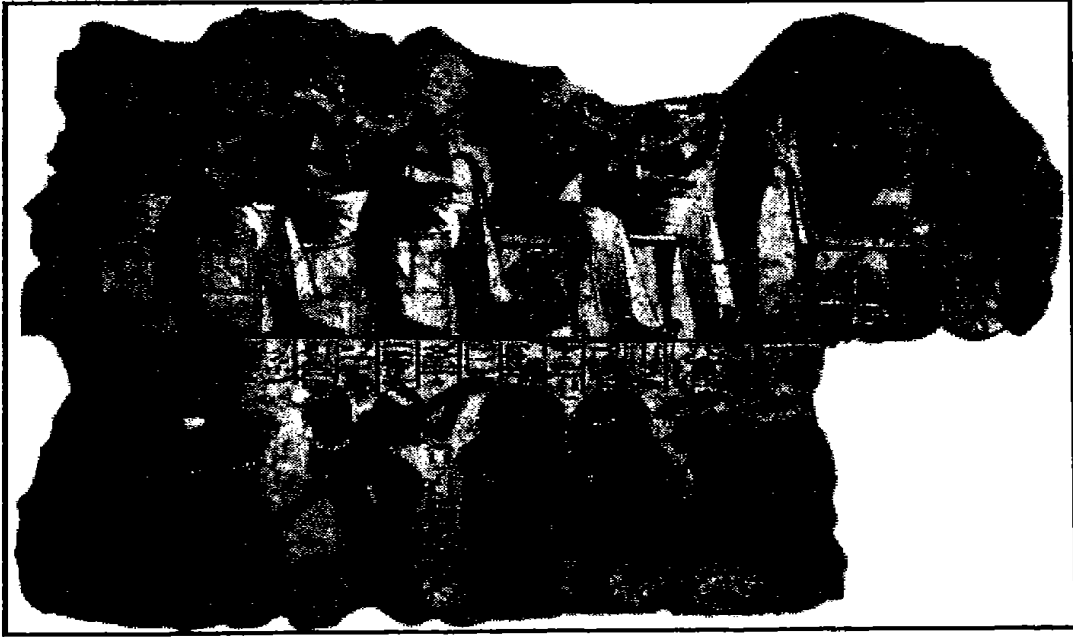
● ومن الملاحظ أن أى عازف - أو عازفة - على آلة الهارب كان يستخدم يديه الاثنتين في العزف على وترين مختلفين في نفس الوقت ، وبذلك كانت تخرج نغمتان متلازمتان هما « القرار والجواب » . ونتيجة لذلك يقول بعض علماء الموسيقى أن موسيقى قدماء

المصريين عرفت نوعاً خاصاً من تعدد الأصوات وتلازمها ، ووضعت بذلك الأساس الذى قام عليه « علم الهارمونى » فى الموسيقى الأوربية .

● ومن آلات النفخ الجديدة التى ظهرت بمصر فى عصر الدولة الحديثة آلة « النفير » أو « البوق » وكانت تصنع من المعدن ويصل طولها إلى نحو نصف متر أو أكثر قليلاً . وكان أغلب استعماله فى الأغراض العسكرية .



عزف على آلة الهارب وآلة الطنبور .



الموسيقى والرقص فى الولايم الفاخرة .

ارتباط الموسيقى المصرية القديمة بعلم الفلك

عانيت كثيراً في تحصيل المعلومات العلمية الخاصة بموضوعات فن الموسيقى عند قدماء المصريين ، فقد كانت هذه المعلومات عبارة عن شذرات وإشارات قصيرة متناثرة في عديد من الكتب والمراجع والمعاجم التي تتناول التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة . . إلا أنى أشير إلى كتاب صغير الحجم عظيم القيمة صدر سنة ١٩٣٦ بعنوان « موسيقى قدماء المصريين » للمؤرخ الموسيقى الكبير الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفنى رحمه الله وأكرم مثواه ، فقد تضمن هذا الكتاب القيم معلومات علمية وفنية وتاريخية جديرة بكل تقدير واحترام عن الموسيقى في مصر القديمة .

● ومن الموضوعات الملفتة للنظر مما ورد في هذا الكتاب ، موضوع يتناول منزلة الموسيقى المصرية القديمة بين العلوم والفنون التي عرفتتها الحضارة المصرية . . فقد كانت الموسيقى والديانة والفلك والهندسة والطب والفلسفة علوماً مقدسة . وكان الكهنة هم المشرفين على دراستها وتدريسها ، وذلك على أساس أن جميع العلوم المقدسة تتصل ببعضها وتهدف كلها إلى الرقى بالانسان والتسامى بالحياة الانسانية في إطار من الفضائل والمثل العليا .

● وفي جميع حقب التاريخ المصرى القديم ارتبط الشعر بالموسيقى ارتباطاً وثيقاً حتى أصبحاً فناً واحداً . وكان مفهوم الشعر في مصر القديمة واسع المدى ، تدخل في نطاقه أحكام الدين وأصول الحكمة والفلسفة والأمثال الشعبية ، ومعلومات التاريخ ، ومبادئ العلوم وقواعدها . وكانت له مهمة تعليمية بالدرجة الأولى تتعلق بفن الخطابة . وكانت معظم هذه القصائد الشعرية تلقى ملحنة في صحبة الموسيقى . وجرت العادة على أن يصطحب الخطيب عازفاً ليعزف له على آله الموسيقية - وغالباً ما تكون آلة الهارب - ويكون العزف هيناً خافتاً لطيفاً لا يشوش على صوت الخطيب وإنما

يعينه على إلقاء الخطبة بطريقة تجذب أسمع الحاضرين وتدمجهم في الموضوع بارتياح .

● وبطبيعة الحال فقد كانت الموسيقى قاسماً مشتركاً في التراتيل الدينية التي كانت تنشد في المعابد ، فقد كانت هذه التراتيل منغمة وذات ألحان خاصة تعزفها آلات إيقاعية أهمها آلات « السستروم » [الصلاصل المعدنية] والكاسات والصاجات وأنواع المصفقات الأخرى .

● وقد تم العثور على نص أدبي قديم يؤكد مدى الارتباط التام بين الموسيقى والدين في مصر القديمة . يقول النص : « عندما حكم أوزيريس أرض مصر . . رفع عنها الفقر والحياة المهمجية . . وأرشد الناس إلى روح الاجتماع وسر الحياة بما فرضه من قوانين . . وألزمهم بتعظيم الآلهة . . فهدب العالم كله . . وأدخل إليه المدنية والحضارة دون استعمال السلاح . . بل باستعمال أشرف الفنون وأحلاها . . وهي الموسيقى والشعر » .

● وقام بعض علماء ومؤرخي الموسيقى بدراسة مدى الارتباط بين الموسيقى المصرية القديمة وعلم الفلك ، فوجدوا هذا الارتباط وثيقاً وتدلل عليه الشواهد الأثرية بأقصى قدر من الوضوح . . وأثبتوا أن قدماء المصريين قد لاحظوا الشبه الكبير بين الأجرام السماوية في انتظام حركتها الفلكية وارتباطها ببعضها ، وبين النغمات الموسيقية التي تتألف منها الألحان ، وهي بدورها ذات نظام ثابت وتترابط مع بعضها في تآلف وانسجام .

● وفي عصرى الدولتين القديمة والوسطى عرف المصريون القدماء الكواكب الخمسة الشهيرة وهي : عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل . ولذلك فقد ابتدعوا السلم الموسيقى الخماسى . . وفي عصر الدولة الحديثة أضافوا الشمس والقمر إلى تلك الأجرام السماوية ، فغيروا السلم الخماسى وجعلوه سبع نغمات أساسية تتضمن جميع الألحان الموسيقية .

● وتدلل الشواهد الأثرية أيضاً على أن المصريين القدماء كانوا يرمزون إلى كل نغمة من النغمات السبع التي يتألف منها السلم الموسيقى برمز هيروجليفى هو نفس الرمز الذى يشيرون به إلى كل جرم من الأجرام السماوية السبعة .

● ويقول بعض المؤرخين وعلماء الحضارة إن هذه الفكرة التى ابتدعتها قدماء المصريين فى جعل السلم الموسيقى سباعياً ، كانت الأساس الذى أوحى إلى حضارات أخرى بفكرة تقسيم الأيام إلى أسابيع يتألف كل منها من سبعة أيام ، بل وباطلاق أسماء تلك الكواكب والأجرام السماوية السبعة على أيام الأسبوع .



آلة وترية وآلة إيقاعية



آلة وترية تحمل على الكتف

حركات يدي المايسترو .. ابتكار مصرى قديم

تدل النقوش الأثرية التى تصور لنا الحفلات الموسيقية والغنائية فى مصر القديمة على أن وظيفة المايسترو أو قيادة الفرقة الموسيقية كانت منوطة بالمغنى أو المنشد الذى كان يتولى رئاسة الفرقة ويوجه أداءها الموسيقى .

● وتصور لنا النقوش هذا القائد جالساً فى العادة وليس واقفاً فى مواجهة الفرقة كما هو معروف فى الموسيقى الحديثة . وكانت له طريقة تقليدية نمطية فى الجلوس جاثياً على إحدى ركبتيه ، بينما تكون ركبته الأخرى مرفوعة ومثنية .

● وفى معظم هذه النقوش نجده ملوحاً بيديه بحركات مختلفة يفهمها عازفو الآلات الموسيقية ويسترشدون بها فى عزف الأنغام المطلوبة وتنظيم الإيقاعات التى تصاحب الألحان المعزوفة . ولذلك نلاحظ أن جميع العازفين على مختلف الآلات الموسيقية سواء الآلات الإيقاعية أو الآلات الوترية أو آلات النفخ ، كانوا يواجهون المغنى [قائد الفرقة] وهم مستغرقون فى النظر إلى حركات يده لتأدية العزف المطلوب والارتفاع والانخفاض بالنغمات أو الإيقاعات طبقاً لمفهوم هذه الحركات .

● ونفهم من ذلك أن حركات يدي قائد الفرقة الموسيقية كانت على درجة كبيرة من الأهمية لضبط الإيقاعات والألحان . ولذلك فلم يكن غريباً أن قدماء المصريين كانوا يرسمون « ساعد اليد » للتعبير عن كلمة « الموسيقى » فى الكتابة الهيروغليفية .

● ويقول علماء الموسيقى ومؤرخوها الأجانب إن حركات اليد فى الغناء والموسيقى المصرية القديمة هى الأصل الذى تطور وأخذت عنه طريقة « تدوين النوتة الموسيقية » . ومن المعروف فى تاريخ الموسيقى - كما يقول الدكتور محمود الحفنى - أن الأوربيين عندما ابتدعوا فكرة تدوين الموسيقى ، لجأوا فى البداية إلى استعمال الطريقة

المسماة « نويمن » NEUMEN وهى تدوين الموسيقى برموز لا تظهر مقدار حدة كل نغمة بمفردها ، ولا تظهر مقدار زمنها ، بل تبين فقط اتجاه اللحن ومقدار ما بين النغمات من مسافات . ويقول مؤرخو الموسيقى الأوربيون إن هذه الطريقة فى التدوين هى نفسها الطريقة المصرية القديمة ، والفارق الوحيد بين الطريقتين أن المصريين القدماء كانوا يرسمون حركة اليدين فى الهواء ، فى حين أن الأوربيين استطاعوا تدوين مدلول هذه الحركة على الورق .

● ومن المعروف أن تدريس الموسيقى للأطفال - فى العصر الحديث - يستعمل « لغة اليد » فى تعليم الأطفال كيفية عزف النغمات والإيقاعات . وذلك على أساس أن كل نغمة من النغمات السبع الأساسية التى يتكون منها السلم الموسيقى لها حركة من حركات اليد تدل على هذه النغمة المطلوبة .

● ومن أغرب المعلومات التى يمكن استخلاصها من النقوش الأثرية المصرية التى صورت المغنى أو المنشد فى مختلف أوضاعه ، ان المغنى عندما كان يندمج فى الغناء ، كان يضع كف يده اليسرى على خده بحيث يكون الإبهام موضوعاً خلف الأذن . ولم تكن هذه الحركة حركة مظهرية ، وإنما كانت لازمة ضرورية لتمكين المغنى أو المنشد من تنعيم صوته طبقاً للحن الأساسى الذى يؤديه ، حيث يقوم المغنى بالضغط بإبهامه على مكان « قناة استاكوس » وهى القناة الهوائية الموصلة بين الأذن والأنف ، فيؤدى هذا الضغط إلى السيطرة على تموجات الهواء الموجودة بالقناة ، ويؤدى ذلك بالتالى إلى تنعيم الصوت وترخيمه طبقاً للموهبة الصوتية للمغنى وخبرته ومدى كفاءة قدرته على الأداء الغنائى .

● ولهذا يمكن القول بأن تأثير الموسيقى المصرية القديمة لم يكن قاصراً على موسيقى حضارات العالم القديم فى آسيا وإفريقيا ، بل امتد هذا التأثير إلى الموسيقى التى شاعت فى الحضارات الأوربية فى العصور القديمة . وأغلب الظن أن هذا التأثير كان عن طريق الموسيقى الإغريقية التى تأثرت إلى حد كبير بقواعد وقوانين الموسيقى المصرية القديمة .

آلة الأرغن .. اختراع مصرى قديم

منذ أن عرف المصريون القدماء فن الموسيقى ابتدعوا أنماطاً وأشكالاً من الآلات التي تؤدي الإيقاعات والنغمات المختلفة . وكانت تلك الآلات بدائية في بداية الأمر ، ثم قام المصريون بتطويرها عبر مراحل تاريخهم القديم وعلى مدى آلاف السنين .

● وبالنظر إلى المكانة الرفيعة التي احتلتها مصر في العالم القديم ، فقد اعتبرت هذه الآلات نماذج لصناعة الآلات الموسيقية التي عرفتها شعوب ودول العالم القديم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً . . وهكذا انتقلت الآلات الموسيقية المصرية وانتقلت معها موسيقاها إلى العالم القديم ، سواء في ذلك تلك الآلات الإيقاعية أو آلات النفخ أو الآلات الوترية .

● ويقول معظم المؤرخين أن الحضارة الإغريقية كانت الوارثة الحقيقية للحضارة المصرية القديمة ، وأن الإغريق كان لهم فضل تطوير ما ورثوه من الحضارة المصرية من فنون وعلوم ، أكثر من فضلهم في ابتداع علوم وفنون جديدة . ويعترف المؤرخون أيضاً بأن الإغريق القدماء كانوا الاساتذة الذين استرشدت بهم الحضارة الرومانية القديمة التي انتشرت بدورها في بقاع شاسعة من قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا وفي كل المناطق التي خضعت لسيادة الامبراطورية الرومانية .

● وعن طريق الإغريق والرومان والحضارة العربية في الأندلس ، تكونت الأسس التي قامت عليها الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، وانبثقت بالتالي حضارة «الرينيسانس» أو عصر النهضة في أوروبا ، والتي أدت بدورها إلى انبثاق الحضارات الأوروبية الحديثة .

● وإذا طبقنا هذا التتابع في تطور ونمو كل تلك الحضارات ، نجد أن جذورها تمتد في أعماق التاريخ حتى تصل إلى بذورها الأولى التي نبتت في مصر القديمة . وبالنسبة للموسيقى ، وهى فرع أكيد من فروع الحضارة ، نجد على سبيل المثال أن آلة الهارب التي تحتل الآن مكانة أساسية في بعض الأعمال الموسيقية التي تعزفها الأوركسترات السيمفونية الحديثة ، هى آلة يعترف الجميع بأنها آلة مصرية قديمة وصميمة ، مرت بمراحل عديدة من التطور سواء في العصور القديمة أو في العصر الحديث .

● ولا ينكر أحد من مؤرخى الموسيقى أن « آلة الأرغن » قد ارتبطت منذ نشأتها الأولى بالتراتيل الدينية ، حتى أصبحت الآن على رأس الآلات الموسيقية الشائعة في معظم الكنائس الأوربية وكنائس العالم الغربى بصفة عامة .

● وقد مرت آلة الأرغن - عبر تاريخ طويل - بعدة تطورات آلية وميكانيكية لعل أهمها ذلك التطور الهائل في حجم الآلة وطريقة تشغيلها والذي حدث في القرن الخامس عشر حيث تم صنع آلة أرغن ضخمة يقال أن صوتها كان يسمع على بعد ميل من مكان العزف عليها . وقد أدى هذا التطور إلى ظهور أنواع وأشكال وأحجام عدة من تلك الآلة على النحو الذى نعرفه الآن في العصر الحديث .

● والأرغن من الناحية الفنية عبارة عن آلة موسيقية أنبوبية تصدر منها الأنغام من داخل أنابيب مختلفة الأطوال ، فالأنابيب الأكثر طولاً تصدر منها الأصوات الغليظة ، وكلما قصرت الأنابيب فإن أصواتها تزداد حدة . وتصدر جميع الأصوات الحادة والغليظة بواسطة الضغط على مفاتيح تشبه مفاتيح آلة البيانو . وكانت الطرز القديمة من آلة الأرغن تعمل بضغط الهواء ، أما الآلات الحديثة فقد أصبحت تعمل الآن بواسطة أجهزة كهربائية وإلكترونية . وأغرب أنواع آلة الأرغن هى « الأرغن المائى » الذى كان يعمل بضغط الماء على الهواء . وهى أقدم آلة أرغن ظهرت في تاريخ الموسيقى ، وكان ظهورها على أرض مصر القديمة .

● ويقول الدكتور محمود الحفنى في كتابه « موسيقى قدماء المصريين » أن أول آلة « أرغن مائى » ظهرت في الاسكندرية خلال العصر البطلمى ، وعلى وجه التحديد نحو

عام ١٧٠ قبل الميلاد . . وكانت من اختراع شخص اسمه « كتيسيبيوس » كنوع من تطوير آلة موسيقى القرب ، وقد استعمل فيها الماء كوسيلة لضغط الهواء . وقد انتقلت صناعة تلك الآلة العجيبة من مصر وشاع استعمالها في معظم أرجاء الامبراطورية الرومانية وفي جميع بلدان أوربا ، بعد أن كتب المؤرخ « هيرون السكندري » آنذاك وصفاً تفصيلياً لتلك الآلة وطريقة صنعها وكيفية تشغيلها .

● ونستنتج من تلك المعلومة أيضاً أن موسيقى القرب كان شائعة في مصر القديمة حيث كانت تستعمل القرب المصنوعة من الجلد اللين في تخزين الهواء اللازم للنفخ في المزمار أو المزامير ذات الثقوب التي يعزف عليها العازف النغمات والألحان المطلوبة .



نموذج أثري مصنوع من الخشب
الملون لعازفة على آلة الهارب .

تأثير الموسيقى المصرية في حضارات العالم القديم

بعد مرور نحو ثلاثة آلاف سنة على بداية التاريخ المصرى القديم ، بدأ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، وضعفت الدولة والحكومة ، وتعرضت مصر لمحن الغزوات المتعاقبة من جانب الليبيين ، والأثيوبيين ، والأشوريين ، والفرس ، إلى أن وقعت فى نهاية الأمر فى أيدي المقدونيين بقيادة الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، ثم بدأ بعد ذلك ما يسمى بالعصر اليونانى الرومانى .

● وبالرغم من تعرض مصر لتلك الغزوات المتعاقبة ، إلا أن شعبها قد بذل كل ما فى وسعه من امكانية التمسك بأسس الحضارة العريقة التى أرسى قواعدها ومبادئها وخصائصها على مدى آلاف السنين السابقة على تلك الغزوات . . حافظ الشعب على تراثه من الموسيقى والأغاني . وكان كهنة المعابد بنفوذهم القوى وباعتبارهم الفئة التى كانت تمثل المثقفين الذين تولوا مبادرة التمسك بأهداب الحضارة المصرية التى توارثتها الأجيال ، هم الذين حرصوا كل الحرص على حث الشعب المصرى على المحافظة على تراثه والابتعاد عن أى تأثير أجنبى دخيل .

● ويقول المؤرخون فى ذلك أن الدولة المصرية قد شاخت كما دب الوهن فى قدرة مصر العسكرية ، ولم يعد لديها سوى ذكرى الجيوش الكبرى التى قادها الملوك والفرعنة المحاربون العظام الذين نشروا النفوذ المصرى والحضارة المصرية فى ربوع ومناطق شاسعة فى آسيا وأفريقيا . . ولذلك فقد وقعت مصر فريسة سهلة لتلك الأمم الافريقية والآسيوية الغازية التى كانت تملك جيوشاً فتيمة مسلحة بأقوى الأسلحة ، وتحدها رغبة عارمة فى غزو مصر والسيطرة عليها ، حيث شاعت شائعة بين تلك

الدول ، ان الدولة التي تستطيع أن تسيطر على مصر ، تستطيع بالتالى أن تسيطر على العالم القديم بأجمعه .

● ويقول منطق التاريخ أن الدول ذات الحضارة العظيمة الراسخة إذا غلبت على أمرها وتعرضت لغزو دولة أقل منها حضارة ، فمن المؤكد أن الدولة الغازية ستتأثر بنحو أو بآخر بحضارة الدولة المغلوبة . وهذا بالضبط ما حدث بالنسبة للموسيقى المصرية القديمة التي أثرت في موسيقى كل الأمم التي قامت بغزو مصر تباعاً في العصور القديمة . وإن كانت تنقصنا بعض الشواهد الأثرية أو التاريخية التي تدل على مدى تأثير تلك الأمم بالموسيقى المصرية القديمة ، فإن الشواهد التي تركتها لنا الحضارة اليونانية القديمة تدل دلالة قاطعة على مدى تأثير تلك الحضارة بالموسيقى المصرية .

● وعلى سبيل المثال يقول هيرودوت في حديثه عن مصر التي قام بزيارتها خلال القرن الخامس قبل الميلاد انه « سمع في اليونان عشرات من الأغاني الشعبية وكلها ذات إيقاعات وألحان مأخوذة من الموسيقى المصرية » . وإذا كانت الموسيقى اليونانية تعتبر أقدم موسيقى في أوروبا قامت على أسس وقواعد وقوانين علمية وضعها كبار الفلاسفة اليونانيين من أمثال فيثاغورس وأفلاطون ، فإن جميع هؤلاء الفلاسفة الكبار تعلموا في مصر وتأثروا بحضارتها ، وأدركوا أن الموسيقى المصرية القديمة لم تكن موسيقى جزافية ، وإنما كانت تقوم على أسس وقوانين رياضية ، وكل ما في الأمر أن هؤلاء الفلاسفة نقلوا تلك القوانين لتبنى على أساسها موسيقاهم المحلية .

● ويكفى أن نشير هنا إلى ما كتبه أفلاطون في كتاب « الجمهورية » حيث أوصى شعب الجمهورية بالاستماع والاستمتاع بالموسيقى المصرية وحدها ، باعتبارها أرقى موسيقى في العالم ، ولأنها أعظم نموذج يمكن أن تحتذيه أى موسيقى تنشأ التعبير عن الحقيقة والجمال وحلاوة النغم ، ولأنها أيضاً خير مثال لقدرة الفن الموسيقى على تهذيب العقول وترويح النفوس .

محاولات إحياء الموسيقى الفرعونية

من أغرب الحكايات التي تروى عن الآلات الموسيقية في مصر القديمة ، ما قيل عن تجربة النفخ في أحد المزامير التي عثر عليها في مقبرة توت عنخ آمون . . فقد قيل انه بالرغم من قدم هذه الآلة إلا أن النفخ فيها أصدر نغمة قصيرة تم تسجيلها ، وما أن أذيعت تلك النغمة في إذاعة بي بي سي البريطانية حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية في أوائل سبتمبر ١٩٣٩ بعد دقائق من تلك الإذاعة .

● وأعتقد أن هذه الحكاية تعتبر نوعاً من افتعال الأخبار المثيرة التي تنشر بين حين وآخر حول أعاجيب ما يسمى « لعنة الفراعنة » . وأغلب هذه الأخبار ملفقة ولا سند لها من العلم والحقيقة .

● غير أن هناك بحوثاً علمية كثيرة حاول العلماء إجراؤها لمعرفة نوعية النغمات والألحان التي كانت شائعة في مختلف العصور التاريخية لمصر القديمة . وذلك استناداً إلى ما تم العثور عليه من آلاف النقوش التي تظهر فيها صور الآلات الموسيقية التي كانت شائعة الاستعمال في مصر القديمة ، سواء في ذلك تلك الآلات الإيقاعية أو آلات النفخ أو الآلات الوترية ، بالإضافة إلى تلك القطع الأثرية النادرة التي تم العثور عليها مدفونة ببعض مقابر الملوك والنبلاء ، وبعض هذه الآلات الموسيقية معروضة الآن في بعض المتاحف العالمية مثل اللوفر وليدن وتورينو و متروبوليتان والمتحف البريطاني والمتحف المصري بالقاهرة .

● لقد كان من السهل الميسور العثور على عشرات بل ومئات من نصوص الأشعار الغنائية سواء بالنسبة للأغاني والأناشيد والتراتيل الدينية ، أو الأغاني التي كانت تنشد لثناء الموتى عند زيارة مقابرهم أو في أثناء تشييع الجنازات وعمليات الدفن ، أو الأغاني

التي تتضمن أشعار الحكمة والنصائح باتباع المثل العليا في الأخلاق والسلوكيات ، أو الأغاني الفلسفية التي تنادى بالتمتع بمسرات الحياة ولذائدها بشرط الابتعاد عن الشر أو الإثم أو إيذاء الآخرين ، أو الأغاني العاطفية بأشعارها الرقيقة التي تمجد الحب العذرى والعواطف النبيلة ، أو الأغاني المفرحة التي كانت تنشد في الولائم والحفلات الخاصة ببيوت النبلاء أو قصور الملوك ، أو أغاني العمل التي كان ينشدها العمال والفلاحون والحرفيون والصيادون والبحارة حين كانوا يبحرون بقواربهم ومراكبهم وسفنهم في النيل أو في أعالي البحار .

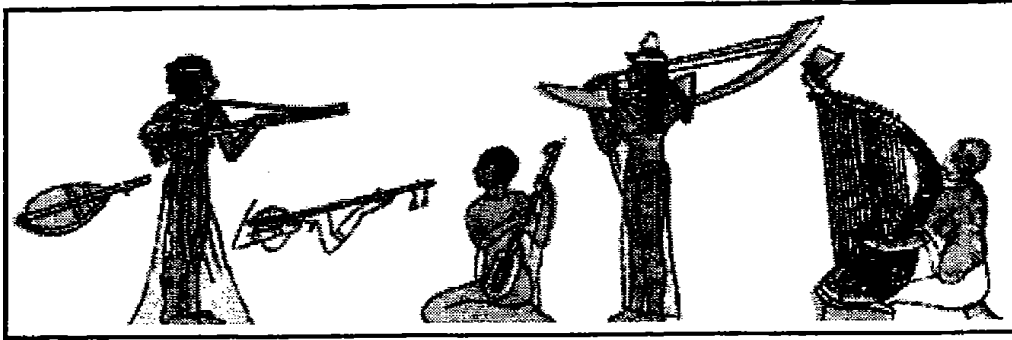
● ولكن كان من الصعب ، بل ومن المستحيل ، معرفة نوعية الإيقاعات والنغمات الموسيقية التي كانت تصاحب ألحان تلك الأغنيات . . فكيف يمكن استعادة الأصوات التي انطلقت من حناجر المغنين والمنشدين والمرتلين فأشجرت سامعيها وأمتعتهم بالأشعار التي اختلفت ألحانها وتنوعت؟! . . إن ذلك ضرب من ضروب المستحيل . . فلم تكن هناك أجهزة تسجيل تحفظ لنا تلك الألحان ، ولم تكن هناك طريقة لتدوين النوتة الموسيقية لتتعرف على طبيعة الألحان وكيفيةها .

● ومع ذلك فلم تنقطع محاولات علماء الآثار وعلماء الموسيقى – منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن – في معرفة طبيعة الأنغام التي كانت تصدرها الآلات الموسيقية التي عرفتھا مصر القديمة . . وأجريت تجارب عديدة على آلات النفخ والآلات الوترية ، إذ لم تكن هناك جدوى من إجراء التجارب على الآلات الإيقاعية من طبول ودفوف ومصفقات وصلاصل وشخاليل .

● قام هؤلاء العلماء بعمل دراسات علمية دقيقة مكنتهم من صنع نماذج « طبق الأصل » من آلات النفخ التي كان يستعملها قدماء المصريين ، بنفس المقاسات وبنفس السمك والطول وعدد ما فيها من ثقوب ومدى اتساعها للتحكم في النغمات المطلوبة ، ثم قام موسيقيون محترفون بالعزف على تلك الآلات للتعرف على طبيعة الأصوات التي تصدر منها .

● وتوصل العلماء بذلك إلى نتيجة علمية مؤداها أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى

القواعد الحسابية والرياضية للأنغام الموسيقية ، وعرفوا الأنغام الكاملة وأنصاف النغمات . واكتفى العلماء بتلك النتيجة العلمية ، ولكنهم لم يتوصلوا - ولن يتوصل أحد - إلى استعادة طبيعة ونوعية الألحان التي كانت تؤديها هذه الآلات أثناء العزف الموسيقى أو أثناء الغناء .



بعض أنواع الآلات الوترية المستخلصة
في عزف الموسيقى المصرية القديمة .

مصر القديمة .. كل أيامها أعياد

كان قدماء المصريين من أكثر شعوب العالم القديم احتفالاً بالأعياد . . كانت هناك أعياد دينية وأعياد رسمية وأعياد شعبية تغطي المناسبات الزراعية والمناسبات الخاصة بالحرف على اختلاف أنواعها .

● ويقول الدكتور سليم حسن : « إننا يمكن أن نستخلص من النقوش والمتون المصرية القديمة أن جميع أيام السنة كانت كلها أعياداً . . ولا أدل على ذلك من أن أيام الشهر كان كل واحد منها يقام فيه عيد له اسمه الخاص به . غير أننا للأسف لا نعرف شيئاً عن معظم هذه الأعياد غير أسمائها . ولا نزاع في أن هذه الأعياد جميعها ترجع في نشأتها الأولى إلى أقدم عصور التاريخ المصرى القديم ، إذ أنها ولدت مع العقائد الدينية المصرية العتيقة » .

● وبالدراسة المتأنية لآلاف النقوش المصرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم منذ عصور ما قبل الأسرات ومروراً بالعصر العتيق وعصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصر المتأخر والعصر اليونانى الرومانى [أى على مدى فترة زمنية تمتد نحو أربعة آلاف سنة] . . نجد الدلائل الواضحة التى تبين لنا كيفية احتفال المصريين القدماء بأعيادهم الدينية والرسمية والشعبية .

● وكانت الأعياد الدينية تقام فى مختلف الأقاليم والبلاد المصرية . وقد وصلت إلينا - لحسن الخط - عدة نقوش ونصوص مكتوبة تشرح لنا هذه الأعياد وما كان يجرى فيها من طقوس احتفالية . وبطبيعة الحال لا يتسع المجال هنا لعرض كل هذه الأعياد ، ويكفى أن نشير إلى أشهرها .

● عيد مسرحية آلام أوزيريس : وكان يقام سنوياً فى أبيدوس [حالياً العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج] . وكانت هذه المسرحية تتألف من ثمانية فصول يستغرق عرضها

أكثر من ثمانية أيام ، تمثل خلالها كل التفاصيل المساوية التي تعرض لها أوزيريس منذ كان يحكم مصر ويقيم العدل في ربوعها إلى أن قتل غيلة ، ثم عودته إلى الحياة في نهاية الأمر، تأكيداً لعقيدة البعث وعودة الحياة بعد الموت ، وهي العقيدة التي كانت تعتبر لب الديانات المصرية القديمة .

● ويقول الدكتور نجيب ميخائيل في بحثه القيم عن « الزراعة في مصر القديمة » إن أوزيريس كان يعتبر أيضاً للقمح عند قدماء المصريين ، ولذلك كانت الأعياد تقام في كافة المناطق والأقاليم المصرية في الوجهين البحري والقبلي بمناسبة بدء حصاد القمح . . وكانت أعياداً صاحبة تقدم فيها باكورة المحصول قرباناً للآلهة المحلية بتلك الأقاليم ، كما كانت تمثل فيها فصولاً من مسرحية آلام أوزيريس وبعثه إلى الحياة بعد الموت . ويقول كذلك إنه حضر احتفالاً حديثاً في إحدى قرى الصعيد بمصر الوسطى بمناسبة بدء حصاد محصول القمح . . وشاهد في هذا الاحتفال رقصة شعبية يقوم بها رجل وامرأة يرقصان على أنغام الموسيقى الشعبية المعروفة في صعيد مصر . وكانت الرقصة تعبيرية تؤدي بحركات رزينة فيها كثير من تعبيرات العزة والكبرياء . . وفجأة سقط الرجل على الأرض دون أن تصدر منه أية حركة ليبدو كما لو كان قد مات أو قتل . . وعندئذ اشتد رقص المرأة وهي تدور حوله في هياج وندب وعويل وبكاء . . ثم انحنت فوق الرجل الراقد على الأرض وقبلته « قبله الحياة » فإذا بالرجل ينهض حياً وسط تهليل المشاهدين وعلى أنغام موسيقية صاحبة تعبر عن أعلى مراحل السرور . ولا شك في أن هذه الرقصة تعتبر سلية الرقصات المماثلة التي كانت معروفة في مصر القديمة والتي كانت تؤدي في أعياد الحصاد ، وتعيد إلى أذهان من يعرف التاريخ المصري والعقائد المصرية القديمة ذكرى قبله الحياة التي أعطتها إيزيس لأوزيريس فعاد إلى الحياة من جديد .

● ومن الأعياد المصرية القديمة التي تظهر ملامحها في الأعياد الشعبية المصرية الحديثة عيد « الأوبت » الذي كان يحتفل فيه بخروج تمثال آمون من معبد الكرنك في موكب صاحبه حتى يصل إلى معبد الأقصر وتبدو ملامحه في الاحتفال الحديث بمولد

«أبو حجاج الأقرى» . . وكذلك عيد شم النسيم . . وعيد الغطاس . . وعيد وفاء النيل .

● ولا شك فى أن جميع هذه الأعياد الدينية والشعبية والرسمية [كأعياد تنويج الملوك] كانت أصلح فرصة للعروض الفنية من تمثيل وترتيل وإنشاد وموسيقى ورقص وغناء .



نساء من الطبقة العليا
فى أحد الاحفالات .

الرقص المصرى القديم .. فن محترم

يجمع علماء الحضارة والاجتماع والأنثروبولوجى [علم الانسان] على أن « الرقص » كان من أقدم وسائل التعبير عن المشاعر الانسانية لدى الانسان البدائى ، وأن الرقص منذ بدايته كان مرتبطاً بها كانت تعتقده المجتمعات الانسانية البدائية فى عالم السحر والمعتقدات الدينية . ويهمنى هنا أن نعرف موقع فنون الرقص فى مصر القديمة .

● ليس هناك جدال فى أن مصر القديمة قد عرفت الرقص منذ عصور ما قبل التاريخ . وقد تم العثور على العديد من الشواهد الأثرية التى تدل على أن الرقص فى تلك العصور كان مرتبطاً بالعقائد الدينية التى كانت سائدة فى تلك العصور ، وانه كان يؤدى لتحقيق أغراض سحرية .

● ولكن بعد أن دخلت مصر القديمة عصورها التاريخية [بعد توحيد الوجهين سنة ٣٢٠٠ ق م] بدأت الحضارة المصرية ترتقى سلم التطور لتبلغ قمة ما وصلت إليه من رقى فى عصر الدولة الحديثة [وعلى وجه الخصوص فى عصر الأسرات ١٨ ، ١٩] . وكما رأينا من قبل كيف وصلت الموسيقى المصرية القديمة إلى مستواها الرفيع فى ذلك العصر ، فقد كان من الطبيعى أن الرقص . . وهو فن مرتبط بالموسيقى والغناء أن يرقى إلى ذلك المستوى ويصبح فناً عريقاً راسخاً ذا قواعد ومناهج تحكمه فى كافة أنواعه وأشكاله .

● وقد أدى تطور الموسيقى إلى تطور حركات الرقص واتخاذها لأشكال لم تكن معروفة من قبل . كما أدى ارتباط الرقص بالموسيقى إلى مساعدة الراقصين الرجال أو الراقصات من النساء والفتيات على اتقان الحركات التعبيرية للرقص طبقاً للمدى تجاوبهم مع ما تعزفه الموسيقى من إيقاعات وألحان . وبالتالي فإن هذا الاتقان يزيد بهجة المشاهدين

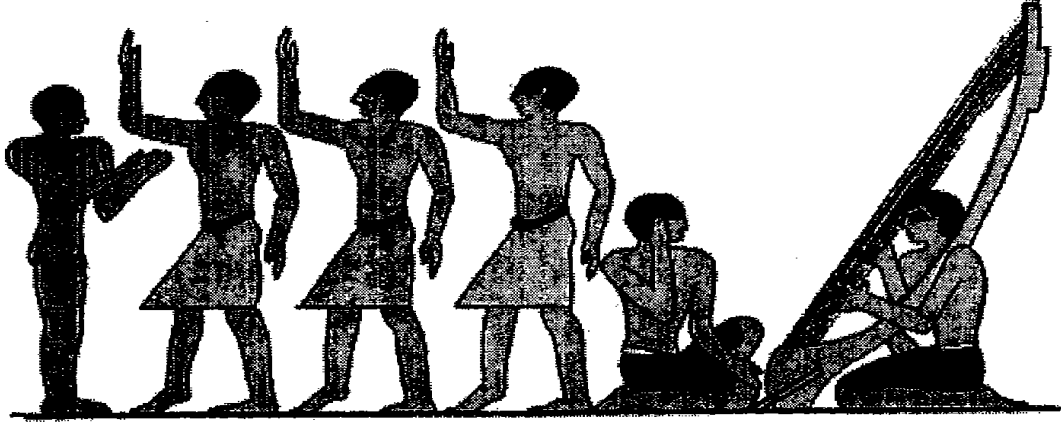
الذين أصبحوا يتمتعون متعة مزدوجة عن طريق النظر بالعين والسمع بالأذن . وتدل مئات النقوش الأثرية التي تصور لنا مشاهد الرقص في مختلف حقب التاريخ المصرى القديم على استخدام جميع أنواع الآلات الموسيقية من إيقاعية ونفخ ووترية أثناء أداء مختلف أنواع الرقصات ، وذلك إلى جانب مصاحبة الرقص في بعض المشاهد لإيقاعات من تصفيق الأيدي أو طرقة الأصابع .

● وقد قام كثيرون من المؤرخين وعلماء المصريات بدراسة تلك النقوش واستخلصوا منها فصولاً ودراسات قيمة ضمنوها في كتبهم العديدة عن التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة . غير أن هناك كتاباً فريداً تخصص في دراسة « الرقص المصرى القديم » للمؤلفة التشيكية « إيرينا لكسوفيا » تفضل بترجمته شيخ الأثرين المصريين الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار ، وراجع ترجمته الاستاذ الدكتور عبدالمنعم أبوبكر . رحمهما الله وأكرم مثواهما . وقد صدرت الطبعة العربية من هذا الكتاب في مصر عام ١٩٦١ .

● وبالدراسة المتأنية لهذا الكتاب القيم نلاحظ على الفور مدى الجهد العلمى الذى بذلته المؤلفة لتجميع مادتها العلمية والتاريخية عن موضوع الرقص عند قدماء المصريين ، حيث رجعت إلى (٥٢) مرجعاً علمياً من الكتب والدراسات التوثيقية التى قام بها المؤرخون وعلماء المصريات ومؤرخو الفنون منذ منتصف القرن ١٩ وحتى تاريخ إعداد هذا الكتاب ، وأغلب هذه المراجع مكتوب باللغة الألمانية إلى جانب اللغتين الفرنسية والانجليزية .

● وقد خلصت المؤلفة إلى تصنيف فن الرقص المصرى القديم في (١١) نوعاً من أنواع فنون الرقص طبقاً للنقوش الأثرية التى تم اكتشافها والعثور عليها مرسومة على جدران المعابد والمقابر أو مرسومة على البرديات . وبدأت بدراسة « الرقص الحركى الخالص » الذى كان بمثابة تصريف للطاقة الزائدة لإدخال المسرة على كل من الراقص والمشاهد . ثم « الرقص الرياضى » وكانت له أنواع مختلفة ، حركات بعضها في غاية الصعوبة ، كما يدخل فيه الرقص البهلوانى « الأكروباتيك » . ثم « رقص المحاكاة »

وكانت حركاته وخطواته محاكاة لحركات الحيوانات أو محاكاة تمايل النباتات أو محاكاة الظواهر الطبيعية الأخرى كهبوب النسيم والرياح . . ثم « الرقص الزوجى » الذى كان يقوم به رجلان أو امرأتان أو رجل وامرأة . . و« الرقص الجماعى » الذى كانت تقوم به فرقة كاملة . . و « الرقص الحربى » كوسيلة لتسلية القوات العسكرية ورفع معنوياتها . . و « الرقص التمثيلى » . . و « الرقص الجنائزى » سواء عند تشييع الجنازات أو عند زيارة المقابر . . وأخيراً « الرقص الدينى » الذى كان جزءاً لا يتجزأ من الخدمة الدينية .



ارتباط الرقص بالموسيقى والغناء .

فكرة الباليه ..نشأت في مصر القديمة

التعريف الفني للباليه انه رقص يقوم به شخص أو شخصان أوعدة أشخاص يروون فيه مسرحية أو حكاية على أنغام الموسيقى وبحركات محسوبة تعبر عن شخصيات الحكاية ومواقفها وأحداثها .

● وظهر الباليه لأول مرة في أوروبا في حفلات الطبقة الأرستقراطية خلال عصر النهضة خصوصاً في إيطاليا . ثم انتقل إلى فرنسا وتطور هناك ، وظل قاصراً على أعضاء الطبقة الارستقراطية والبلاط الملكي من الرجال والنساء الذين كانوا يقومون بالرقص طبقاً لخطوات وحركات مصممة سلفاً على أنغام الموسيقى ، وكانت تتخلل الرقص جمل حوارية وأشعار غنائية ، كما كانت العروض تتم داخل ديكورات معينة وبملابس خاصة تتناسب مع فكرة كل عرض وشخصياته . ومن المعروف أن الملك لويس الرابع عشر [١٦٣٨ - ١٧١٥ م] كان يشترك في الرقص بنفسه في بعض العروض ومن شدة ولعه واهتمامه بهذا الفن الرفيع أنشأ له « الأكاديمية الملكية لرقص الباليه » في باريس .

● وانتشر فن الباليه بين الطبقات الارستقراطية في كافة الممالك والامبراطوريات الأوروبية عبر القرون التالية حتى بلغ أعلى مراحل تطوره خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حيث أصبح فناً راقياً مستقلاً بذاته وألف له كبار الموسيقيين العالميين ، وخرج من نطاق الأرستقراطية وأصبح في متناول متذوقي الفنون الرفيعة من جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى .

● وإذا كان فن الباليه يقوم أساساً على فكرة التعبير بخطوات وحركات الجسم البشرى عن موقف تمثيلي معين تصحبه الموسيقى المناسبة ، فإن الباليه طبقاً لهذا المفهوم

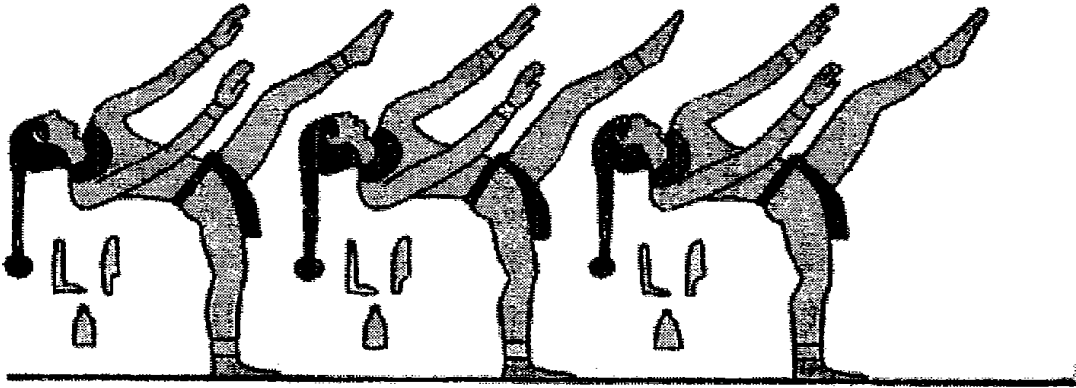
يكون قد نشأ أولاً في مصر القديمة ، حيث توجد عشرات ، بل مئات ، من النقوش التى تصور لنا رقصات فنية يشترك فيها الرجال والنساء ويعبرون بها عن مواقف تمثيلية وتعبيرية محددة . وقد حرص الفنانون الذين رسموا تلك النقوش على وضع « عناوين » للوحاتهم للإشارة إلى موضوع تلك الرقصات وتوضيح الحركات التى يقوم بها الراقصون والراقصات .

● وعلى سبل المثال : هناك نقوش تصور لنا مشاهد رقصة يقوم بها رجل وامرأة ، وضع الفنان الذى رسمها عناوين تختلف باختلاف الحركات التعبيرية التى يقوم بها الراقصات مثل : « الاشتياق » . . و « الانطلاق » . . و « الدوران المرح » . كما أن هناك نقوشاً أخرى تصور لنا مشاهد رقصة يشترك فيها رجلان وامرأة تحت عنوان « البحث عن حسناء » . . ورقصة أخرى عنوانها « الاختطاف السرى » . . الخ .

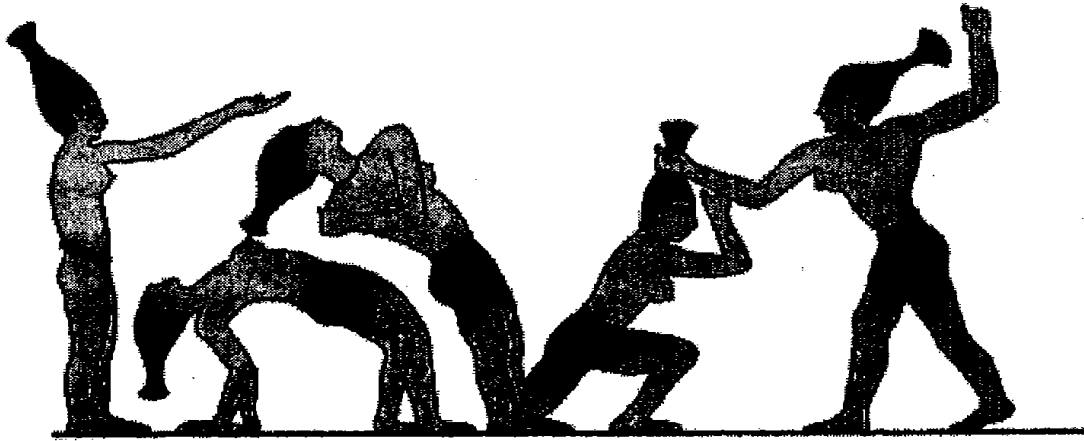
● ومن أهم المشاهد الراقصة التى سجلتها النقوش الأثرية المصرية القديمة والتى يمكن اعتبارها من الازهاصات الأولى لفن الباليه بمفهومه الواسع ، المشاهد التمثيلية الراقصة التى تصور لنا رقصة بعنوان « تحت قدميك » تقوم بها امرأتان تمثل إحداهما ملكا مصريةً منتصراً على ملك أو أمير من الأعداء ، حيث نرى المرأة التى تمثل دور الملك المصرى وهى تمسك بشعر المرأة التى تمثل دور العدو وتهم بضرب هذا العدو الجاثم تحت قدميها تعبيراً عن الاستسلام وطلباً للعفو والنجاة . ويصور لنا الفنان فى هذا المشهد الراقص مضمون تلك اللوحة التقليدية التى ظهرت فى بداية عصر الأسرة الأولى والتى تصور مشهد الملك مينا وهو يقبض على شعر عدو راكم تحت قدميه ويهم الملك بضرب هذا العدو على رأسه ، وهو المشهد الذى أصبح تقليدياً واستمر تصويره مئات المرات طوال حقبات التاريخ المصرى القديم .

● ونلاحظ فى هذا النقش الأثرى أن الفنان المصرى القديم الذى رسم هذه اللوحة قد اكتفى بتصوير النتيجة النهائية التى تنتهى بها الرقصة التمثيلية ، ولنا أن نتخيل تلك الرقصة منذ بدايتها ونرى الراقصة التى تمثل دور الملك وهى تطارد الراقصة التى تمثل

دور العدو ، كما تتخيل مشاهد المبارزة أو الصراع الذي نشب بينهما حتى ألقى العدو سلاحه وارتمى على الأرض مستسلماً تحت قدمى الملك المصرى المنتصر . أما الإيقاعات والألحان الموسيقية التى كانت تصاحب هذا الباليه المصرى القديم فإن تخيلها يعتبر ضرباً آمن المستحيل .



أصعب من حركات الباليه الحديث .



حركات راقصة تعبر عن مواقف درامية

الدراما الراقصة .. فى مصر القديمة

ذكرنا فىما سبق أن الرقص نشأ مع نشأة المجتمعات الانسانية القديمة فى مختلف أنحاء العالم باعتباره وسيلة فردية أو جماعية للتعبير عن مختلف المشاعر الانسانية من أفراح وأحزان ومخاوف واطمئنان . كما أن جميع هذه المجتمعات الانسانية القديمة قد اتخذت الرقص وسيلة للعبادة وممارسة السحر إلى غير ذلك من الممارسات الاجتماعية التى كانت تتناسب مع طبيعة العمل الأساسى لتلك المجتمعات كالزراعة أو الرعى أو الصيد .

● وبالرغم من تشعب سبل المجتمعات الانسانية القديمة فى تشكيل حضاراتها المختلفة ، إلا أن معظم هذه الحضارات خصصت للرقص والغناء والموسيقى مكانا رفيعا بين فنونها بل وفى صميم الطقوس والعبادات الخاصة بعقائدها الدينية .

● وقد حظيت الكثير من تلك الحضارات القديمة بميزة الرسوخ والاستمرار بفنونها وآدابها النابعة من بيئتها المحلية والمعبرة عن عقائدها الدينية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية . وابتدعت معظم تلك الحضارات لنفسها مجموعات من الأساطير والحكايات تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل ، وتظل لاصقة بضمير الجماعة ، معبرة عن أدق وأهم الخصائص التى تتميز بها كل حضارة عن غيرها من الحضارات الأخرى .

● وبطبيعة الحال اختلفت طرق هذه الحضارات القديمة فى كيفية تداول الأساطير وتوارثها والمحافظة على استمرارها وبقائها . وقد اتبعت كل حضارة ما يناسبها فى هذا السبيل ، مثل تدوين هذه الأساطير وكتابتها أو الحرص على حكايتها شفاهة وانتقالها بذلك من الآباء إلى الأبناء ، أو روايتها مرتلة فى المعابد بواسطة الكهنة ورجال الدين ،

أو تعليمها للتلاميذ في المدارس ، أو تمثيلها وعرضها داخل إطار من الموسيقى والغناء والرقص أثناء الاحتفالات بالمناسبات الدينية والشعبية .

● ومن العسير هنا أن نستعرض الموقف الذى اتخذته كل حضارة من حضارات العالم القديم حيال ارتباط أساطيرها بالرقص والغناء والموسيقى ، ويكفى أن نشير هنا إلى مثال ما زال حياً وموجوداً حتى الآن بالرغم من مرور آلاف السنين على نشأته الأولى . ونعنى به « الدراما الراقصة » التى تعتبر من الفنون العريقة الأصيلة لشعوب جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى .

● ويمكن تعريف هذه « الدراما الراقصة » بأنها نوع خاص من العروض المسرحية المحلية ، يدور حول محور من الأساطير الشعبية والدينية القديمة ، ويتلون بصفة أساسية بكل ألوان الأيديولوجية الصينية أو الأيديولوجية الهندية أو بألوانها الممتزجة معاً .

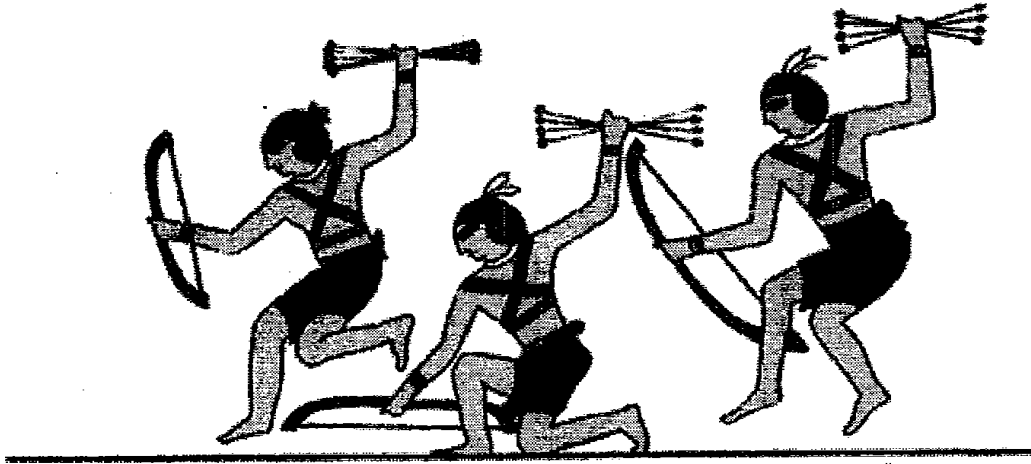
● ومهما اختلفت الموضوعات المحلية لتلك الأساطير بين دولة وأخرى أو بين شعب وآخر في منطقة الشرق الأقصى فإن أسلوب ومنهج هذه الأساطير عند عرضها مسرحياً يتلخص في تقديم حكايات وشخصيات وأحداث وحوارات تلك الأساطير في إطار من التمثيل والرقص والموسيقى . وعلى سبيل المثال فإن الهند ما زالت تقدم حتى الآن عروضاً درامية راقصة مثل « شاكونتالا » و« رمايانا » و« براتا يودها » وغيرها ، وذلك بالرغم من أن بعض هذه العروض يرجع تاريخها إلى عدة قرون قبل ميلاد السيد المسيح وتقوم هذه العروض جميعها على أساس مزيج بين تمثيل النصوص الأدبية لتلك الأساطير مع الرقص الهندى التقليدى والموسيقى الهندية التقليدية .

● ويهمننا هنا أن نشير إلى الشواهد التاريخية والأثرية المصرية التى تدل على وجود مثل هذه العروض الدرامية الراقصة في حضارة مصر القديمة . . فهناك نقوش تصور لنا عدداً من مشاهد أسطورة « إيزيس وأوزيريس » وشخصياتها المختلفة . ونشير أيضاً إلى ما ذكره « هيردت » - الذى زار مصر خلال القرن الخامس قبل الميلاد - من أنه شاهد تمثيل كل الفصول السرية التى كان يقوم الكهنة بتمثيلها داخل المعابد ، وكل الفصول

العلنية التي كانت تعرض على المشاهدين في ساحات المعابد أوفى خارجها .

● ونكتفى هنا بعرض موجز لما ذكره « هيرودوت » في وصف الصراع الذي دار بين أنصار « حورس » وأنصار « ست » الذي اشترك في تمثيله - على قرع عنيف من الطبول - عشرات من الممثلين يحملون عصياً وأسلحة رمزية ، وانهمكوا في الرقص الحربي العنيف [الذي يشبه رقصة التحطيب المعروفة الآن في مصر المعاصرة] . وهو رقص ظنه « هيرودوت » انه صراع حقيقي بين الطرفين سقط فيه كثيرون بين مصابين وقتلى ، رغم أن المصريين أكدوا له أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلاً متقناً لتأكيد انتصار الخير على الشر وفكرة تجدد الحياة إلى أبد الأبدين .

٢٥١



من حركات الرقص الحربي .

رقصة « الموت » الأوربية .. أصلها مصرى قديم

مؤرخو الفنون الأوربية يتتبعون المعلومات الشحيحة لرقصة أوربية قديمة تسمى «رقصة الموت» . وأرجعوا تاريخ هذه الرقصة إلى عصر الحضارة الاتروسكية التى سادت فى بعض مناطق إيطاليا خلال القرن الثامن قبل الميلاد سابقة للحضارة الرومانية ، حيث تم العثور على نقوش فى مقبرة اتروسكية تصور بعض مشاهد هذه الرقصة .

● ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين ان رقصة الموت كانت شائعة فى كثير من المناطق الأوربية فى العصور الوسطى ، وانها كانت فى الأصل مسرحية أخلاقية من المسرحيات الدينية التى ظهرت خلال القرنين ١٣ ، ١٤ تتضمن حواراً صوتياً وحركياً كما تتضمن تعبيرات إيائية [بانتوميم] بين شخص يرمز إلى الموت وممثلين يرمزون إلى جميع الطبقات الاجتماعية بدءاً من بابا روما إلى أقل الأشخاص قدراً فى طبقات السلم الاجتماعى .

● وكان الحوار الشعري فى هذه المسرحية مصحوباً بموسيقى مناسبة وحركات تناسب الموسيقى ومضمون الحوار ، وذلك للتعبير عن قوة الموت باعتباره قدراً محتوماً لا مفر منه .

● وخلال النصف الأول من القرن الخامس عشر بدأ التعبير عن رقصة الموت بالنقوش والرسوم على جدران المقابر والكنائس والكاتدرائيات الكبرى . مثل نقوش مدافن « الأبرياء » فى باريس ونقوش كاتدرائية سان بول فى لندن .

● ثم عادت رقصة الموت إلى الظهور مرة أخرى فى الأعمال الأدبية والموسيقية الأوربية خلال القرن ١٩ وحتى الآن . ومن أشهر هذه الأعمال القصيدة التى كتبها الشاعر

والمؤلف المسرحى والروائى الألمانى « يوهان فولفجانج فون جوته » [١٧٤٩ - ١٨٣٢] بعنوان « رقصة الموت » ، والعمل الموسيقى الرائع للمؤلف المجرى «فرانزليست» [١٨١١ - ١٨٨٦] والعمل الموسيقى الشهير للمؤلف الفرنسى « سان سانس » [١٨٣٥ - ١٩٢١] الذى زار مصر وألف هذا العمل الذى ذاعت شهرته بعنوان « رقصة الموت » . DANCE MACABRE .

● والذى يهمننا هنا هو الاشارة إلى أن « رقصة الموت » هذه ذات أصل مصرى قديم ، نبعث من تصنيف « الرقص الجنائزى » الذى كان شائعا فى مصر القديمة . وأغلب الظن أن الاتروسكيين الذين زحفوا فى العصور القديمة إلى بعض مناطق إيطاليا كانوا فى الأصل من سكان آسيا الصغرى . ومن المعروف أن هذه المنطقة كانت على علاقة بمصر القديمة وتأثرت بحضارتها .

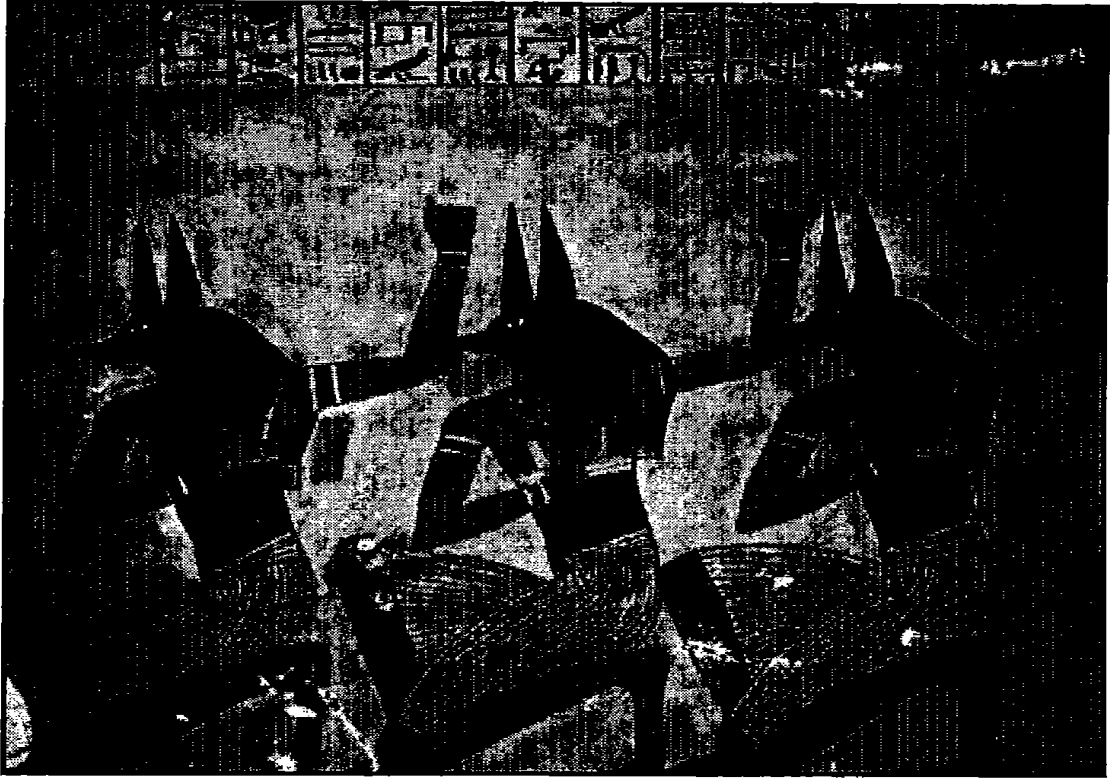
● وهناك مئات من النقوش الجدارية بالمقابر الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم تصور لنا نوعاً من الرقص الدينى وهو « الرقص الجنائزى » الذى كان من العادات والتقاليد الشائعة فى مصر القديمة . وتصور معظم هذه النقوش مجموعات من النساء متشحات بأردية طويلة ، يؤدين حركات راقصة على إيقاع الدفوف ، ويلوحن بأغصان الشجر . وهناك نقوش أخرى تصور اشتراك الرجال مع النساء فى أداء هذه الرقصات الجنائزية . سواء عند تشييع جنازة الميت إلى مثواه الأخير ، أو عند زيارة المقابر لإدخال السرور إلى أرواح الموتى وللاعتبار بذكر الموت كمصير حتمى لكل البشر .

● وكان الغرض من أداء الرقص الجنائزى فى مصر القديمة هو التعبير عن حزن الفراق ، وإدخال السرور إلى روح الميت ، وطرد وإبعاد الأرواح الشريرة التى قد تؤذى الميت فى حياته فى العالم الآخر .

● وتدل النقوش الأثرية التى تصور الرقصات الجنائزية فى مصر القديمة على أن حركات الرقص بالأيدى والأذرع والسيقان أو بالجسم البشرى كله كانت ذات طابع خاص يختلف تماماً عن حركات أنواع الرقص الأخرى التى عرفتتها مصر القديمة ، الأمر

الذى يؤكد أن حركات الرقص الجنائزى كانت نابعة من فكرة الموت للتعبير عن المشاعر الانسانية الخاصة بها .

● وحتى عهد قريب جداً ، كانت هناك عادة شعبية منتشرة فى القرى والأحياء الشعبية هى استئجار بعض « الندابات » طوال الأيام الثلاثة التالية لوفاة الميت ، ليقمن بضرب الدفوف وإقامة رقصات عصبية يمكن وصفها بالهستيرية ، على إيقاعات من التصفيق بالأيدى ولطم الخدود .



ثلاثة راقصين يؤدون رقصة الموت وهم يلبسون أقنعة الإله أنوبيس { إله الموت } .

إحتراف الرقص وفن تصميم الرقصات في مصر القديمة

من المشاهد الأثرية الملفتة للنظر تلك النقوش العديدة التي تصور لنا عديداً من الراقصات المصريات وهن يؤدين رقصاتهن ويعزفن - في الوقت نفسه - على آلات موسيقية مثل الطنابير والمزامير المفردة والمزدوجة ، وهي آلات قد تتعب الراقصات أثناء أدائهن للرقص ، كما قد تؤدي إلى ضعف العزف الموسيقى .

● ولاشك في أن أولئك الراقصات كن لا يستطعن تقديم مثل هذا العرض الموسيقي الراقص إلا بعد أن يجتزن تمرينات وتدريبات شاقة على أداء مثل تلك العروض ، الأمر الذي حدا ببعض مؤرخي الفنون إلى القول بأن مصر القديمة عرفت نظام الاحتراف ، وكانت هناك راقصات من النساء وراقصون من الرجال كانوا يتخذون الرقص مهنة وحرقة ، ويقدمون عروضهم في الحفلات والمناسبات لقاء أجر معلوم .

● ومن أطرف الأدلة الأثرية التي نستشف منها هذه النتيجة تلك المذكرات القديمة التي كتبها شاب من مدينة « سيراكيوز » بجزيرة صقلية كان قد زار مصر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ونزل ضيفاً على أحد أثرياء المصريين ، وكان المضيف قد أقام لضيوفه وليمة فاخرة تخللتها حفلة موسيقية راقصة ، وصفها الشاب السيراكيوزي وصفاً شيقاً ودقيقاً ، تناول فيه الفرقة الموسيقية الكاملة التي كانت تتكون من عازفين وعازفات على مختلف الآلات الموسيقية مثل الهارب والجنك والقيثارة والكنارة والمزمار المفرد والمزدوج والدفوف والصنوج والشخاليل وغيرها من آلات النفخ والآلات الوترية والإيقاعية .

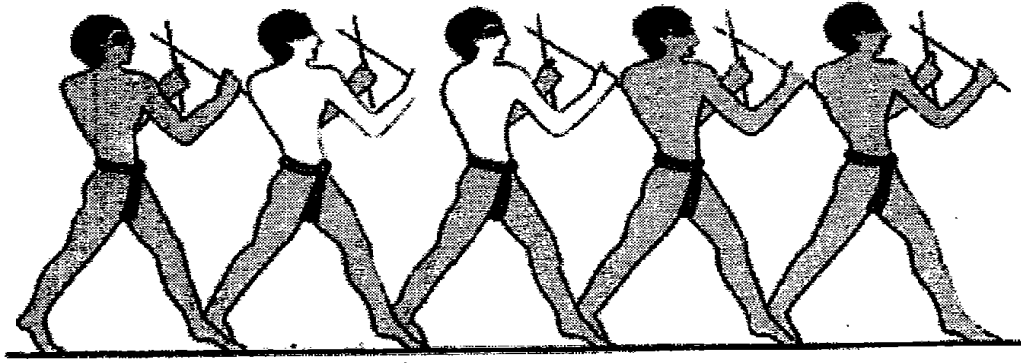
● كما وصف أيضاً ملابس الراقصين والراقصات وماكانوا يرتدونه من ملابس ومايتحلون به من أساور وأقراط وقلائد وأكاليل من الزهور لتزيين الصدور والرؤوس .

ثم وصف عرضاً للرقص « الأكروباتيك » قامت به فرقة من الراقصين الرجال كانوا يقفزون قفزات عالية رشيقة ، ويصعدون فوق أكتاف بعضهم مكونين تشكياً هرمياً . وبطبيعة الحال فإن تلك الحركات الأكروباتية الراقصة لا يمكن أن تقوم بها إلا فرقة رقص محترفة .

● وهناك شواهد أثرية أخرى تتجلى في النقوش التي تصور حركات « الرقص الجماعى » الذى تشترك فيه مجموعة من الراقصات النساء أو الراقصين الرجال أو منهما معاً . ونلاحظ فى معظم تلك النقوش أن هذا الرقص الجماعى متماثل الحركات ، بمعنى أن المشتركين فيه من الراقصين والراقصات يؤدون حركات متماثلة سواء بالأذرع أو بالسيقان أو بالأوضاع التى تتخذها أجزاء الجسم المختلفة أثناء الرقص . ولا يمكن تصور تقديم هذا العرض الراقص المنضبط والمتماثل فى حركاته وتعبيراته إلا بعد عمل «بروفات» وتدريبات فنية لتنظيم حركات الرقص وخطواته وكافة تشكيلاته ، وهو ما يعرف الآن بمصطلح « الكوريوجرافى » أى فن تأليف الحركات الراقصة سواء أكانت فردية أم ثنائية أم جماعية . وهو الفن الذى يعتمد عليه رقص الباليه والاستعراضات الجماعية الراقصة فى زماننا الحاضر .

● وإذا سلمنا جدلاً بوجود « فن تصميم الرقصات » فى مصر القديمة ، فسوف يكون من السهل علينا فهم وتذوق مئات المشاهد المنقوشة على جدران المقابر والمعابد الأثرية التى تصور أنواعاً متعددة من الرقص الفردى والثنائى والجماعى ، سواء أكان رقصاً رياضياً أم جنائزياً . وسوف يكون من السهل أيضاً أن نتفهم هذا التماثل الفنى الدقيق والمتناسق فى حركات وخطوات الرقص الجماعى المسجلة فى النقوش الأثرية المصرية القديمة .





هذا التماثل فى الحركات لابد أن يكون متفقا عليه عند تصميم هذه الرقصة الجماعية .



مشهد للرقص الجماعى مع استخدام الآلات الإيقاعية .

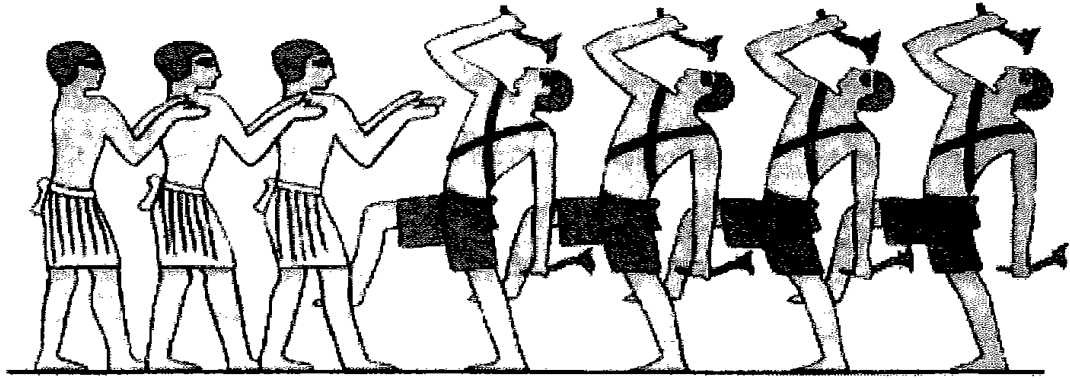
ملابس وإكسسوارات الرقص .. في مصر القديمة

لو تأملنا مئات النقوش الأثرية التى تصور فنون الرقص فى مصر القديمة ، لهالنا هذا التنوع الكثيف فى ملابس الراقصين والراقصات والإكسسوارات أو الأدوات التى يحملونها أو يستخدمونها أثناء الانهماك فى أداء الأنواع المختلفة من الرقصات التى عرفتها مصر القديمة .

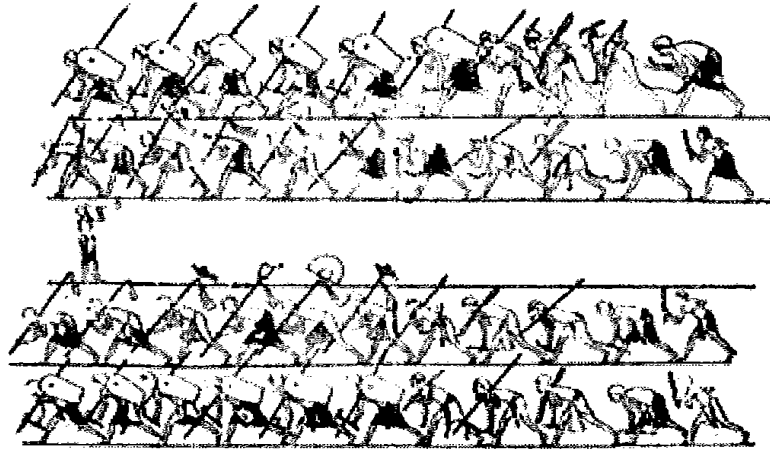
● هذا الاختلاف فى تصميم أشكال الملابس يرجع أساساً إلى عدة أسباب ، منها - طبعاً - اختلاف ملابس النساء عن ملابس الرجال ، واختلاف شكل الملابس التى كانت ترتديها الراقصات المصريات عن ملابس الراقصات الآسيويات أو الأفريقيات ، واختلاف أشكال وطرق تصميم الملابس لتتناسب مع نوعية الرقصات التى كان يؤديها الراقصون أو الراقصات للتعبير عن نوعية الرقصة التى كانوا يؤديونها .

● والملاحظ بصفة عامة أن ملابس الراقصات كانت تصمم بطريقة تتيح لهن حرية التعبير بحركات أجزاء الجسم . . . ولذلك فهى إما أن تكون قصيرة لإظهار حركة السيقان والأرجل ، أو تكون بلا أكمام لإظهار حركة الأذرع والأيدي . . أما إذا كانت الراقصات يرتدين ملابس طويلة ذات أكمام واسعة وتغطى أجسامهن بالكامل ، فإن هذه الملابس تكون فى العادة مصنوعة من قماش شفاف لا يحجب حركات أعضاء الجسم المستخدمة فى التعبير الراقص .

● ومن الخطأ القول بأن تلك الملابس القصيرة أو الملابس الشفافة التى كانت ترتديها الراقصات فى مصر القديمة ، كانت بقصد إثارة الغرائز باظهار مفاتن الجسم الانثوى . . فمن المعروف مثلاً أن ملابس راقصات الباليه فى العصر الحديث تكشف الكثير من أجزاء الجسم ، ومع ذلك فلا تسبب للمتفرج أية إثارة لغرائزه ، وذلك



مشهد من الرقص الجماعى واكسسواراته .



مشهد من الرقص الحريمى واكسسواراته .

لانصراف ذهن المتفرج إلى موضوع الباليه ، وإلى قدرة الراقصات على التعبير عن أحداث أو شخصيات هذا الموضوع ، وإلى تذوق الموسيقى الرفيعة المصاحبة للعرض ومدى تطابقها وانسجامها مع حركات الراقصات وخطواتهن والتشكيلات الفنية التي يؤدينها طبقاً للتصميم الذى وضعه مصمم الراقصات ومخرج العرض .

● ومع ذلك فقد حرص الفنانون القدماء الذين صوروا مشاهد الرقص على إظهار الراقصات فى كامل زينتهن المناسبة لنوعيات الراقصات التى كن يتحلين بها من أقراط وعقود وأساور وخلاخيل وأحزمة ، بالإضافة إلى ما كن يشبكهن فى شعورهن من دبابيس وأمشاط وورود وأزهار .

● وكانت طرق تصفيف الشعر تختلف حسب « الموضة » التى كانت تسود بين سيدات كل عصر ، أو حسب ما تراه الراقصة مناسباً لوجهها ومنظرها العام . . فهناك نقوش تصور راقصات ذوات شعر طويل منسدل ، أو ذوات شعر قصير مقصوص بطريقة « آلاجارسون » أو ملموم ومرفوع إلى أعلى الرأس ليأخذ شكل التاج ، أو ملموم إلى الخلف بطريقة الموضة المعروفة الآن باسم « شينواه » . كما أن هناك راقصات كثيرات كن يستعملن « الباروكات » ذات الأشكال المختلفة التى كانت سائدة فى مصر القديمة .

● أما الاكسسوارات التى كانت تستعملها الراقصات كجزء متمم للرقص فتختلف حسب طبيعة ونوعية الراقصات التى يعرضنها ، فهناك من يمسكن فى أيديهن آلات موسيقية يعزفن عليها أثناء الرقص ، ومن يمسكن بأغصان الشجر أو سعف النخيل أو زهور اللوتس ، ومن يحافظن على تنظيم الإيقاع وضبطه باستخدام الدفوف ذات الأشكال والأحجام المختلفة ، أو المصفقات الخشبية أو العاجية ، وكثير منها على شكل رؤوس غزلان .

● أما الاكسسوارات التى كان يستعملها الراقصون الرجال فتكاد تنحصر فى « الرقص الحربى » حيث يمسكون بالأقواس والسهام والحراب والدرع أو بعضى « البومورانج » وهى عصى ذات شكل تقليدى معقوف كانت تستعمل فى صيد الطيور فى مصر القديمة .

فن العرائس .. فى مصر القديمة

ارتبطت العرائس بخيال الانسان منذ فجر تاريخه الحضارى ، فهى نتاج خيال الانسان الأول ، وهى المحرك المثير الذى أوسع هذا الخيال وأخصبه ، وزاد من أفقه ومداركه .

● وفنون العرائس كانت معروفة لدى قدماء المصريين والفينيقيين والأشوريين والهنود والصينيين واليابانيين القدماء ، وعرفتها الحضارة اليونانية القديمة قبل أن تعرف المسرح الدرامى نفسه . . ولا عجب فى ذلك ، فالثابت تاريخياً أن العرائس كانت أسبق من الانسان فى التمثيل والتشخيص ، وأنها كانت الأولى فى طابور الفنون التعبيرية الأخرى .

● وحتى نتأكد من إثبات هذه الفرضية علينا أن نسترجع مشاهداتنا لأى طفل يلعب بعروسه أياً كان شكلها ، ولنتذكر انفعالات هذا الطفل وانطباعاته من تلك العلاقة المتخيلة بين هذا الطفل وعروسه التى يلعب بها . . إن الطفل يعامل عروسه وكأنها انسان حى ، فهو يتبادل معها الحوار ، ويصدر إليها الأوامر ، أو يتلطف معها ويرفع إليها الرجاء ، أو يعاقبها عندما يتخيل أنها فعلت أمراً يستحق العقاب . . وعادة يقوم الطفل بتهيئة عروسه للنوم ولا يتركها إلا عندما يتأكد لديه احساس فنى صادق بأن عروسه قد نامت فعلاً .

● إذن فنحن أمام عملية « تمثيل » يقوم بها الطفل بالاشتراك مع العروسة . وهذا التمثيل أو التشخيص هو الذى هيا العرائس لكى تؤدى الأدوار التى أبدعها الخيال الانسانى وضمنها الأساطير والقصص الخيالية التى تحفل بها الحضارات الانسانية القديمة فى مختلف بقاع الأرض .

● وانطلاقاً من هذا الفهم نستطيع أن نعرف الدور الذى كانت تقوم به عشرات الدمى والعرائس التى عثر عليها بين الآثار المصرية . . فقد تم العثور على عرائس يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ فى مصر . . بالإضافة إلى عرائس أثرية أخرى من نتاج العصور التاريخية المتعاقبة فى مصر القديمة .

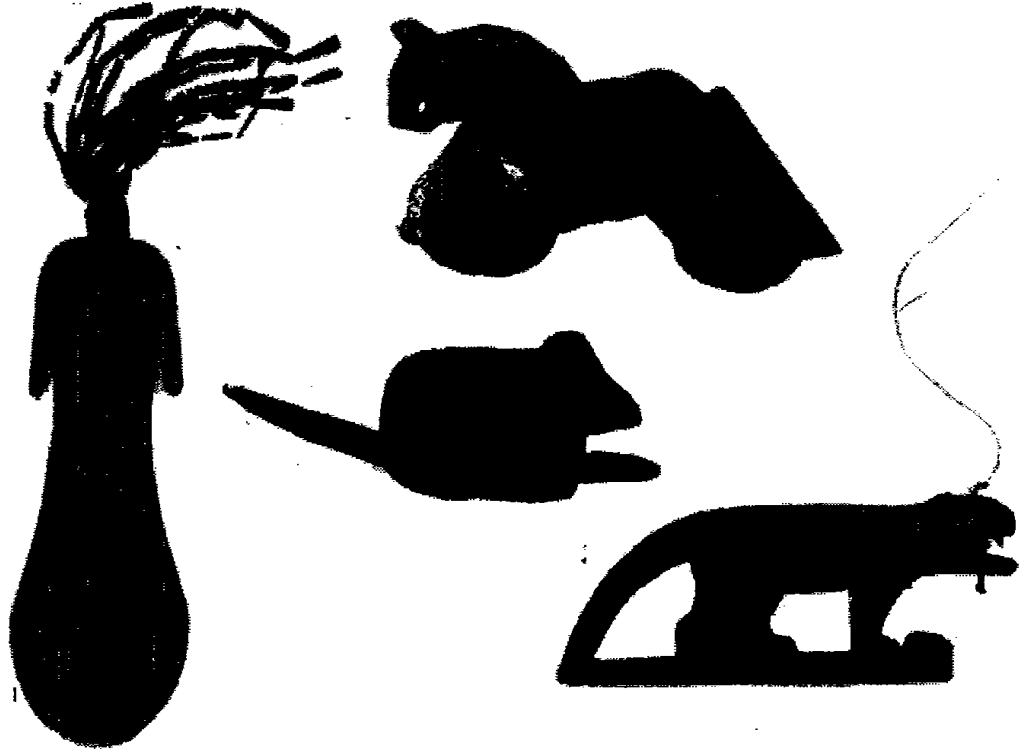
● وفى عام ١٩٠٤ عثر عالم الآثار الفرنسى « مسيو جاييه » على مجموعة من العرائس المصرية المصنوعة من الخشب وذات رؤوس مصنوعة من العاج وكلها قابلة للتحريك بواسطة خيوط تتحكم فى تحريك أجزائها وأطرافها . . كذلك توجد ضمن المقتنيات الأثرية المصرية المعروضة فى متحف اللوفر بباريس ، عروسة على شكل ذئب ولها فم تحركه الخيوط فتحة وغلقا .

● وبالنظر إلى سمعة مصر القديمة فى ممارسة فنون السحر ، فقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر كانت المهده الأول للسحر ، ومنها أخذته شعوب العالم القديم . . وثمة قصة قديمة مسجلة تحكى لنا حادثة ضبط بعض السحرة وبعض النساء من حريم الملك رمسيس الثالث [الأسرة العشرون] الذين ضبطوا متلبسين ومعهم عروسة مصنوعة من الشمع على هيئة الملك ، وكانوا يتلون عليها بعض التعاويذ السحرية قاصدين إيقاع الأذى بالفرعون . وتحكى لنا القصة وقائع التحقيق مع هؤلاء الجناة واجراءات محاكمتهم .

● ويحكى لنا هيرودوت فى حديثه عن مصر انه شاهد مراسم الاحتفال بعيد الإله أوزيريس ، ووصف لنا ما شاهده من ممارسات احتفالية دينية وشعبية تتعلق بهذا العيد، وذكر أيضا أن بعض النساء المصريات المصابات بالعقم ، كن يشتركن فى موكب الاحتفال وهن يحملن على رؤوسهن عرائس تتحرك بالخيوط ويمثلن بها أسطورة مصرية قديمة تتناول موضوع النسل والإنجاب .

● وورد بدائرة المعارف الفرنسية وصف لعرض عرائس من مصر القديمة لتمثيل قصة إيزيس وأوزيريس . وكان هذا العرض مقسماً إلى عدة مناظر وفصول ، وكان الكهنة ينشدون أشعاراً للتعليق على الأحداث وتوضيحها . ويتضمن المنظر الأول

عرضاً تقوم فيه إيزيس بالبكاء والنحيب على زوجها بعد مقتله . وفي المنظر الثاني تقوم إيزيس بجهودها في البحث على جثة زوجها التي ألقيت في النيل . وفي المنظر الثالث تعود إيزيس إلى النحيب على جثة زوجها بعد أن عثرت عليها . ويتضمن المنظر الرابع والأخير المشهد العاطفي المؤثر حين تقوم إيزيس بتقبيل أوزيريس قبلة الحياة فتعود إليه الروح وتبدأ دورة الخصب والحياة من جديد . . وفي آخر العرض العرائسى تظهر بعض الراقصات ليؤدين رقصة تعبر بالغناء أيضا عن عودة الخصب والنماء إلى الأرض وكل ما عليها من كائنات .



أنواع من الدمى والعرائس المصرية القديمة ، وبعضها متحرك .

● أولاً : المراجع العربية :

- ١ - العهارة في مصر القديمة
٢ - حضارة مصر والشرق القديم
٣ - الحضارة المصرية
٤ - الماضى الحى
٥ - الرمز والاسطورة في مصر القديمة
٦ - تاريخ مصر القديمة [جزءان]
٧ - فن الرسم عند قدماء المصريين
٨ - تاريخ العهارة المصرية القديمة
٩ - هردوت يتحدث عن مصر
١٠ - نمو الحضارة
١١ - علماء الآثار
١٢ - فن التصوير المصرى القديم
١٣ - أهرام مصر
١٤ - أسرار الهرم الأكبر
١٥ - المواد والصناعات عند قدماء المصريين
١٦ - في رحاب المعبود توت
١٧ - مصر الفراعنة
١٨ - عندما حكمت مصر الشرق
١٩ - آثار الأقصر
٢٠ - الآثار المصرية في وادى النيل
- تأليف : د . محمد أنور شكرى
تأليف : الدكاترة : إبراهيم رزقانه
محمد أنور شكرى ، عبد المنعم أبو بكر
حسن محمود ، عبد النعيم حسنين
تأليف جون ولسون
تأليف : إيفار ليسنر
تأليف : رندل كلارك
تأليف : د . رمضان السيد
تأليف : وليم بيك
تأليف : د . اسكندر بدوى
تأليف : هرودت
تأليف : و . ج . برى
تأليف : تشارلز مايكل دورتى
تأليف : نينا ديفز
تأليف : I . I . س . إدواردز
تأليف : محمد العزب موسى
تأليف : ألفريد لوكاس
تأليف : د سامى جبره
تأليف : سير ألن جاردنر
تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سبيل
تأليف : د . محمد عبد القادر محمد
تأليف : جيمس بايكنى
- ترجمة : د أحمد فخرى
ترجمة : شاكرا إبراهيم سعيد
ترجمة : أحمد صيلحة
ترجمة : مختار السويفى
ترجمة : د . محمد صقر خفاجة
ترجمة : لويس اسكندر
ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم
ترجمة : د . حسن صبحى بكرى ،
وعبد الغنى الشال
ترجمة مصطفى عثمان
ترجمة : د . زكى اسكندر
ومحمد زكريا غنيم
ترجمة : عبد العاطى جلال
ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم
ترجمة : محمد العزب موسى
ترجمة : لبيب حبشى ، وشفيق فريد

- ٢١- وادى الملوك تأليف : عزيز مرقص منصور
- ٢٢ - الفن المصرى [جزءان] تأليف : د . ثروت عكاشة .
- ٢٣ - مصر فى عيون الغرباء [جزءان] تأليف : د . ثروت عكاشة .
- ٢٤ - مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية تأليف : مختار السويفى .
- ٢٥ - المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية
- ٢٦ - نقرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد
- ٢٧ - سرقة ملك مصر
- ٢٨ - مجوهرات الفراعنة
- ٢٩ - المجمع فى تاريخ مصر
- ٣٠ - على هامش التاريخ المصرى
- ٣١ - الموسوعة الأثرية العالمية
- ٣٢ - تاريخ الحضارة المصرية [العصر الفرعونى]
- ٣٣ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى
- ٣٤ - فى موكب الشمس [جزءان]
- ٣٥ - موسوعة الفراعنة
- ٣٦ - الأدب الثورى عبر التاريخ
- ٣٧ - مصر القديمة [١٦ جزءاً]
- ٣٨ - الأدب المصرى القديم [جزءان]
- ٣٩ - معجم الحضارة المصرية القديمة
- ٤٠ - الحضارة المصرية
- ٤١ - حتشبسوت : الملكة الفرعون
- ٤٢ - رمسيس الثانى : فرعون المجد والانتصار
- ٤٣ - الفن المصرى القديم
- ٤٤ - [يمحوتب : إله الطب والهندسة
- ٤٥ - خطوات الإنسان الأول على أرض مصر
- تأليف : د . أحمد قدرى [بالانجليزية]
- ترجمة : مختار السويفى
ومحمد العزب موسى
- تأليف : جوليا سامسون
- ترجمة : مختار السويفى
- تأليف : محسن محمد
- ترجمة : مختار السويفى
- تأليف : سيريل ألدريد
- ترجمة : مختار السويفى
- تأليف : د . ناصر الأنصارى
- تأليف : عبد القادر حمزة
- تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب
- ترجمة : محمد عبد القادر محمد ود . زكى اسكندر
- تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين
- ترجمة : د . حسن كمال
- تأليف : جيمس هنرى برستيد
- ترجمة : د . أحمد بدوى
- تأليف : باسكال فيرنوى ، وجان يويوت
- ترجمة : د . محمود ماهر طه
- تأليف : محمد مفيد الشوباشى
- تأليف : د . سليم حسن
- تأليف : د . سليم حسن
- تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب
- ترجمة : أمين سلامة
- تأليف : سيريل ألدريد
- ترجمة : مختار السويفى
- تأليف : سوزان راتيه
- ترجمة : فاطمة عبد الله محمود
- مراجعة : د . محمود ماهر طه
- تأليف : كنت كتشن
- ترجمة : د . أحمد زهير أمين
- مراجعة : محمود ماهر طه
- تأليف : سيريل ألدريد
- ترجمة : د . أحمد زهير أمين
- تأليف : ج . هارى
- ترجمة : محمد العزب موسى
- تأليف : عزت السعدنى

- ٤٦ - المدخل إلى علم التاريخ
 ٤٧ - أعمال الحضر الأثرى
 ٤٨ - انتصار الحضارة
 ٤٩ - مصر القديمة : دراسات في التاريخ والآثار
 ٥٠ - الحياة اليومية في مصر
 ٥١ - مرحلة التعليم العالى في مصر القديمة
 ٥٢ - الأسرة المصرية في عصورها القديمة
 ٥٣ - أيبديوس
 ٥٤ - آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية
 ٥٥ - الطب المصرى القديم
 ٥٦ - تاريخ الصيدلة والعقاقير
 ٥٧ - التداوى بالأعشاب في مصر القديمة
 ٥٨ - قدماء المصريين والاغريق
 ٥٩ - في المعرفة التاريخية
 ٦٠ - العادات المصرية بين الأمس واليوم
 ٦١ - فن النحت
 ٦٢ - المسرح المصرى القديم
 ٦٣ - الرقص المصرى القديم
 ٦٤ - المرأة الفرعونية
 ٦٥ - فجر التاريخ
 ٦٦ - دور المرأة في المجتمع المصرى القديم
- تأليف : د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ
 تأليف : ليونارد وولى
 تأليف : جيمس هنرى برستيد
 تأليف : مختار السويفى
 تأليف : بيبير مونتيه
 تأليف : سمير أديب
 تأليف : د . عبد العزيز صالح
 تأليف : د . عبد الحميد زايد
 تأليف : تأليف : محرم كمال
 تأليف : د . حسن كمال
 تأليف : الأب ج . شحاتة فنواتى
 تأليف : ليز مانكه
 تأليف : جان فركرتيه
 تأليف : أرنست كاسيرر
 تأليف : وليم نظير
 تأليف : صبحى الشارونى
 تأليف : اتيين دريوتون
 تأليف : إيرينا لكسوفاف
 تأليف : كريستيان نوبلكور
 تأليف : ج . ل . مايرز
 تأليف : د . عبد الحليم نور الدين
- ترجمة : د . حسن الباشا
 ترجمة : د . أحمد فخرى
 ترجمة : عزيز مرقس منصور
 ترجمة : د . أحمد زهير أمين
 مراجعة : د . محمود ماهر طه
 ترجمة : د . كمال الدسوقى
 ومحمد على كمال الدين
 مراجعة : د . محمد صقر خفاجة
 ترجمة : أحمد حمدى محمود
 مراجعة : على أدهم
 تقديم : د . ثروت عكاشة
 ترجمة : د . ثروت عكاشة
 مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
 ترجمة : د . محمد جمال الدين مختار
 مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
 ترجمة : فاطمة عبد الله محمود
 مراجعة : د . محمود ماهر طه
 ترجمة : على عزت الأنصارى
 مراجعة : د . عبد العزيز كامل

- ٦٧- الدور السياسي للمملكات في مصر القديمة
تأليف : د . محمد على سعد الله
تقديم : د . محمد جمال الدين مختار
ترجمة كمال الخناوى
- ٦٨- أساطير فرعونية
٦٩- أبو الهول
تأليف : د . سليم حسن [بالانجليزية]
- ٧٠- الديانة المصرية القديمة
تأليف : ياروسلاف تشرنى
ترجمة : د . أحمد قدرى
مراجعة : د . محمود ماهر طه
- ٧١- معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية
تأليف : د . سيد توفيق
- ٧٢- الموتى وعالمهم في مصر القديمة
تأليف : أ . ج . سبنسر
ترجمة : أحمد صليحة
- ٧٣- حديث الفنون
تأليف : أحمد شفيق زاهر وآخرين
- ٧٤- في الأدب المصرى القديم
تأليف : د . أحمد عبد الحميد يوسف
- ٧٥- نهاية مدينة فرعونية
تأليف : الحسينى صالح
- ٧٦- التاريخ والسير
تأليف : د . حسين فوزى النجار
- ٧٧- أساطير مصرية
تأليف : د . عبد المنعم أبو بكر
- ٧٨- الآلات الحجرية
تأليف : د . على على السكرى
- ٧٩- الثروة الحيوانية
عند قدماء المصريين
تأليف : وليم نظير
- ٨٠- الأزياء في مصر القديمة
تأليف : د . محمد جمال الدين مختار
ومحمد عبد اللطيف الطنبولى
مراجعة : د . أحمد بدوى
تقديم : د . ضياء أبو غازى

● ثانياً المراجع الأجنبية :

- 81 - GREATPYRAMID
BY : PETER TOMPKINS .
- 82 - THE EGYPTIANS.
BY : CYRIL ALDRED.
- 83 - EGYPT TO THE END OF THE OLD KINGDOM.
BY : CYRIL ALDRED.
- 84 - THE EGYPT OF THE PHARAOHS - AT THE CAIRO MUSEUM.
BY : JEAN - FRANCOIS GOUT.
PREFACE BY JEANLECLANT. TRANSLATED BY ANTHONY ROBERTS
- 85 - IN THE SHADOW OF THE PYRAMIDS.
BY : JAROMIR MALEK.
- 86 - ANCIENT EGYPT .
BY : GEORGE HART .
- 87 - SUNRISE OF POWER .
BY : JOYCE MIL TON .
- 88 - EGYPT DRAWINGS .
BY : DAVID ROBERTS (1839) .
- 89 - VALLEY OF THE KINGS .
BY : JOHN ROMER .
- 90 - ATLAS OF ANCIENT EGYPT .
BY : JOHN BAINES & JAROMIR MALEK .
- 91 - THE TOMBS OF THE NOBLES ATLUXOR .
BY : LISE MANNICHE .
- 92 - WARRIOR PHARAOHS .
BY : P.H. NEWBY .
- 93 - DEATH IN ANCIENT EGYPT .
BY : A.J. SPENCER .
- 94 - ARCHAIC EGYPT .
BY : W . B. EMERY .
- 95 - THE ANCIENT EGYPTIANS .
BY : JILL KAMIL .

● ثالثاً: من مصادر الصور والأشكال الداخلية :

٩٦ - متحف الأقصر للفن المصرى القديم [كاتالوج] - إصدار : مركز البحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة : عبد العزيز صادق .

٩٧ - الماضى يبعث حيا - تأليف : إدنا مجوير . ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد .

٩٨ - مجلة « شل » [١١ عددا] .

٩٩ - المتحف المصرى - موجز فى وصف الآثار الهامة - إصدار ١٩٥٤ .

100 - EGYPT - 1900 : SHELL COMPANIES IN EGYPT .

101 - ART THROUGH THE AGES .

102 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON ' S DESCRIPTION DE L ' EGYPT

BY : ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY .

103 - THE SPLENDERS OF EGYPT .

BY : MICHAEL DAVISON .

104 - WONDERS OF TUTANKHAMUN .

BY : DAVID P. SIL VERMAN .

105 - UPPER EGYPT .

BY : DINO SASSI .

106 - DAS ALTE REICH - Ä GYPTEN IM ZEITAL TER DER PYRAMIDEN . [KATALOG].

107 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE] .

108 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE] .

109 - EGYPT [CATALOGUE] .

BY : A.BBAS CHALABY .

المؤلف

● وكيل الوزارة بقطاع النقل البحري سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس في القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال في القانون البحري ١٩٧٥ .

● محاضر في الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولي في مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته و مترجماته في علوم النقل البحري من الكتب الرائدة غير المسبوقة باللغة العربية .

● كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصري القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتلفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

● نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن في مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتلفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التي تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة في مجلات الهلال والعربي والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا وإدارة الأعمال ، وجرائد الأهالي والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

كتب للمؤلف

● في الاقتصاد والعلوم البحرية :

- ١ - اقتصاديات النقل البحري .
- ٢ - أساسيات النقل البحري والتجارة الخارجية
- ٣ - المصطلحات الفنية البحرية .
- ٤ - المصطلحات التجارية الدولية .
- ٥ - دراسة تحليلية عن عقد البيع البحري « فوب » [محاضرات] .
- ٦ - عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [محاضرات] .
- ٧ - عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [محاضرات] .
- ٨ - عمليات الموانئ وعمليات الشحن والتفريغ [محاضرات] .
- ٩ - سند الشحن « دراسة تحليلية » [محاضرات] .
- ١٠ - قطاع النقل البحري في مصر .
- ١١ - محاضرات في البيوع البحرية .
- ١٢ - القانون البحري « ترجمة » - تأليف : إيمانويل دفورسكى .
- ١٣ - تأجير السفن « ترجمة » - تأليف : بيرجر نوسوم
- ١٤ - انتاجية الرصيف « ترجمة » - تأليف : دى مونييه .
- ١٥ - الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تأليف : ج سيمونديز .
- ١٦ - سفن الحاويات والموانئ المعدة لاستقبالها « ترجمة » - تأليف : أ . إيفانس .
- ١٧ - مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحري وأنواع النقل الدولي الأخرى .
- ١٨ - حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [في عمليات شحن وتفريغ السفن] -
تحت الطبع .

في الأدب والفن :

- ١٩- ألوان من النشاط المسرحي في العالم .
 - ٢٠- خيال الظل والعرائس في العالم .
 - ٢١- الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .
 - ٢٢- زرع النوى « رواية أدبية » .
 - ٢٣- مساخر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .
 - ٢٤- عذراء سرايوم « مجموعة قصصية » - تحت الطبع .
 - ٢٥- الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .
 - ٢٦- الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .
 - ٢٧- الضحك علينا « من الأدب الساخر » - تحت الطبع .
 - ٢٨- روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الأول .
 - ٢٩- روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الثاني .
 - ٣٠- روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الثالث .
 - ٣١- روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الرابع .
- روايات ومسرحيات مترجمة :
- ٣٢- أوليفر تويست - تأليف : تشارلس ديكنز .
 - ٣٣- الآمال الكبرى - تأليف : تشارلس ديكنز .
 - ٣٤- ثورة على السفينة بونتي - تأليف : وليم بلاي .
 - ٣٥- نوم سوير - تأليف : مارك توين .
 - ٣٦- مغامرات هكلبري فين - تأليف : مارك توين .
 - ٣٧- رجال عظام ونساء عظيما - تأليف : ليزلى ليفيت .
 - ٣٨- دافيد كوبر فيلد ، - تأليف : تشارلس ديكنز .
 - ٣٩- جزيرة الكنز - تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .
 - ٤٠- دكتور جيكل ومستر هايد - تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .
 - ٤١- كنوز الملك سليمان - تأليف : سير هنري رايدر هاجارد .

٤٢ - نجمة الصباح - تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٣ - مون فليت - تأليف : ميد فوكنر .

٤٤ - المفتش العام - تأليف : نيكولاى جوجول

٤٥ - روبنسون كروزو - تأليف : دانييل ديفو .

● في الآثار والتاريخ المصرى القديم :

٤٦ - المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور

أحمد قدرى [بالانجليزية] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار - نشرته

هيئة الآثار المصرية .

٤٧ - فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة :

الدكتور أحمد قدرى - نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٨ - مصر والنيل [فى أربعة كتب عالمية] - نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٤٩ - مراكب خوفو [حقائق لا أكاذيب] - نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٠ - الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة « مترجم »

- تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى - نشرته الدار

المصرية اللبنانية .

٥١ - نقرتتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » -

تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار - نشرته

الدار المصرية اللبنانية .

٥٢ - مجوهرات الفراعنة « مترجم » - تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور

أحمد قدرى - نشرته الدار الشرقية .

٥٣ - صفحات من تاريخ الاسكندرية - تحت الطبع .

٥٤ - كليوباترا - تحت الطبع .

٥٥ - مصر القديمة - دراسات فى التاريخ والآثار

٥٦ - أم الحضارات - الجزء الأول .

الفهرس

٥	● الاهداء
٩	● تقديم : بقلم الاستاذ الدكتور جاب الله على جاب الله
١٣	١- مصر من مليون سنة
١٦	٢- مع الانسان المصرى الأول
١٩	٣- المصريون الأوائل : من أين جاءوا . . وكيف عاشوا؟
٢٢	٤- القرى المصرية فى عصور ما قبل التاريخ
٢٦	٥- فضل المرأة المصرية فى اكتشاف معدن النحاس
٢٩	٦- فى قرية صعيدية . . منذ ٦٥٠٠ سنة
٣٢	٧- الصعايدة الأوائل . . أقدم المعدنين فى مصر
٣٥	٨- الصعايدة الأوائل . . وحياء أكثر تقدماً وحضارة
٣٨	٩- فى الوجه القبلى . . قبل مينا بألف سنة
٤١	١٠- فى الوجه البحرى . . قبل مينا بألف سنة
٤٤	١١- وحدة مصر . . قبل مينا بألف سنة
٤٧	١٢- تجربة وحدة مصر . . فى عصور ما قبل التاريخ
٥٠	١٣- عين شمس . . عاصمة مصر الأولى
٥٢	١٤- أمجاد مصرية . . فى عين شمس القديمة
٥٥	١٥- عين شمس . . وأقدم تقويم شمسى فى العالم

- ٥٨ -١٦- مصر علمت العالم حساب الأيام والسنين
- ٦١ -١٧- التقويم القبطى . . عمره الحقيقى ٦٣٠٠ سنة
- ٦٥ -١٨- البحرية المصرية فى عصور ما قبل التاريخ
- ٦٨ -١٩- حين خرج المصريين الأوائل إلى البحر
- ٧١ -٢٠- هل وصل قدماء المصريين إلى أمريكا ؟
- ٧٤ -٢١- أول أسطول تجارى فى تاريخ العالم
- ٧٧ -٢٢- أول سفن ناقلات للجنود فى تاريخ العالم
- ٨٠ -٢٣- زيارة لأقدم مركب عثر عليه الانسان
- ٨٣ -٢٤- أول سيدة بحار فى تاريخ العالم
- ٨٦ -٢٥- دور السفن المصرية فى طرد الهكسوس
- ٨٨ -٢٦- أول أبطال التحرير فى تاريخ العالم
- ٩٠ -٢٧- العصر الذهبى للبحرية المصرية القديمة
- ٩٣ -٢٨- أشهر أسرة ملكية فى تاريخ العالم
- ٩٦ -٢٩- أول رحلة بحرية كشفية فى تاريخ العالم
- ٩٩ -٣٠- تحوتمس الثالث . . واللورد اللبى . . ومنتجورى
- ١٠٢ -٣١- حين أصبحت مصر قمة الحضارة فى العالم القديم
- ١٠٤ -٣٢- أخناتون . . وديانة التوحيد بالله
- ١٠٧ -٣٣- نفرتيتى . . الجميلة التى حكمت مصر
- ١١٠ -٣٤- أعظم كنز أثرى عثر عليه الانسان
- ١١٣ -٣٥- نهاية الأسرة ١٨ . . وحكم ضباط الجيش

- ١١٦ - ٣٦- الأسرة ١٩ . . وعودة الروح العسكرية
- ١١٨ - ٣٧- الضابط العظيم . . سيتى الأول
- ١٢١ - ٣٨- الامبراطورية المصرية . . تستعيد شبابها
- ١٢٤ - ٣٩- رمسيس الأكبر . . سيد العالم
- ١٢٧ - ٤٠- الدبلوماسية والمعاهدات الدولية . . اختراع مصرى
- ١٣٠ - ٤١- سيد البنائين . . وازدهار الفنون والآداب
- ١٣٣ - ٤٢- رمسيس الثانى . . والخديوى توفيق
- ١٣٦ - ٤٣- هكذا يحترمون حضارتنا
- ١٣٨ - ٤٤- كيف عاجلوا رمسيس فى باريس
- ١٤١ - ٤٥- أول مرة يذكر فيها اسم اسرائيل فى مصر
- ١٤٤ - ٤٦- آخر الفراعنة العظام
- ١٤٧ - ٤٧- سيناريو أول معركة بحرية فى تاريخ العالم
- ١٥٠ - ٤٨- أول اضراب عمالى فى تاريخ العالم
- ١٥٢ - ٤٩- أول محضر تحقيق بوليسى فى تاريخ العالم
- ١٥٤ - ٥٠- المصريون القدماء . . أول المشرعين فى العالم
- ١٥٧ - ٥١- أول من عرفوا الهندسة والحساب والعلوم الرياضية
- ١٦٠ - ٥٢- ازدهار الملوك والسخرية بالحكام فى مصر القديمة
- ١٦٣ - ٥٣- فن الكاريكاتير . . اختراع مصرى قديم
- ١٦٦ - ٥٤- الأدب المصرى . . أقدم آداب العالم
- ١٦٨ - ٥٥- الأدب السياسى . . فى مصر القديمة

- ١٧٠ - ٥٦- حرية الفكر والقول في مصر القديمة
- ١٧٢ - ٥٧- أثر الأدب المصرى القديم فى الآداب العالمية
- ١٧٤ - ٥٨- الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران . . أصلهما مصرى قديم
- ١٧٧ - ٥٩- سندريللا . . فى الأدب المصرى القديم .
- ١٨٠ - ٦٠- عصر البلطجة والبلطجية فى مصر القديمة
- ١٨٣ - ٦١- أول انقلاب طبقى فى تاريخ العالم
- ١٨٥ - ٦٢- فكرة العدل أساس الملك
- ١٨٨ - ٦٣- قبل أن تحكم . . تعلم كيف تحكم
- ١٩٠ - ٦٤- نصائح . . للمواطن الصالح
- ١٩٢ - ٦٥- وعلموا الناس مبادئ الأخلاق والسلوكيات الطيبة
- ١٩٤ - ٦٦- آداب الحديث . . وآداب المائدة وزيارة البيوت
- ١٩٦ - ٦٧- الدراما المصرية . . أسبق من الدراما الإغريقية
- ١٩٨ - ٦٨- بردية الرمسيوم المسرحية
- ٢٠٠ - ٦٩- أول شعراء العالم
- ٢٠٣ - ٧٠- حين طالب الشعب بحقه فى الخلود
- ٢٠٥ - ٧١- غزل المصريين القدماء فى نهر النيل
- ٢٠٨ - ٧٢- أغانى الحب والغزل فى مصر القديمة
- ٢١٠ - ٧٣- نماذج من أشعار الحب والغزل
- ٢١٢ - ٧٤- أغانى العمل والمناسبات السعيدة
- ٢١٤ - ٧٥- الموسيقى . . والانسان الأول

٢١٦	٧٦- الموسيقى المصرية . . في عصور ما قبل التاريخ
٢١٨	٧٧- الموسيقى المصرية . . في عصر الدولة القديمة
٢٢٠	٧٨- الموسيقى المصرية . . في عصر الدولة الوسطى
٢٢٤	٧٩- الموسيقى المصرية . . في عصر الدولة الحديثة
٢٢٧	٨٠- ارتباط الموسيقى المصرية القديمة بعلم الفلك
٢٣٠	٨١- حركات يد الماسترو . . ابتكار مصرى قديم
٢٣٢	٨٢- آلة الأرغن . . اختراع مصرى قديم
٢٣٥	٨٣- تأثير الموسيقى المصرية في حضارات العالم القديم
٢٣٧	٨٤- محاولات إحياء الموسيقى الفرعونية
٢٤٠	٨٥- مصر القديمة . . كل أيامها أعياد
٢٤٣	٨٦- الرقص المصرى القديم . . فن محترم
٢٤٦	٨٧- فكرة الباليه . . نشأت في مصر القديمة
٢٤٩	٨٨- الدراما الراقصة . . في مصر القديمة
٢٥٢	٨٩- رقصة الموت الأوربية . . أصلها مصرى قديم
٢٥٥	٩٠- احتراف الرقص . . وفن تصميم الرقصات في مصر القديمة
٢٥٨	٩١- ملابس وإكسسوارات الرقص . . في مصر القديمة
٢٦١	٩٢- فن العرائس . . في مصر القديمة
٢٦٤	● المراجع
٢٧٠	● المؤلف . . وكتب للمؤلف

أمم الحضارة

سبحان الله الذي وهب مصر عبقرية الموقع والمكان ، وجعلها تاجًا على رأس التاريخ والزمان .

هى بلد يمتد عمقها فى الطرف الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا . . وتطل على البحر المتوسط ومن ثم على أوروبا . . ولها باب فى سيناء يفتح أمامها قارة آسيا . . ويجرى فى ربوعها من الجنوب إلى الشمال نهر من أعظم وأكرم أنهار العالم . . يعيش على ضفافه شعب من أعرق شعوب الدنيا وأسبقها فى سبل الحضارة وصنع التاريخ .

وهذا كتاب حرص مؤلفه « الكاتب الكبير الاستاذ مختار السويفى » على تغطية كل معالم الحضارة الانسانية التى صنعها قدماء المصريين فى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية والعمراية والاجتماعية والطبية والفكرية والثقافية .

ويقول « الاستاذ الدكتور جاب الله على جاب الله - الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار المصرية » فى تقديمه وترجييه بهذا الكتاب : إن مؤلفه - كما هو معروف عنه - عاشق لتراب وطنه ، ترجم عشقه إلى قراءة تاريخه والغوص فى أعماق حضارته ، فوجد فى ذلك متعة ملأت عليه كيانه . . ولأنه يدرك تمامًا مدى أهمية التاريخ فى تنمية الوجدان والحس الوطنى ، فإنه يتحف المكتبة العربية بين حين وآخر بعدد من الكتب المؤلفة والمترجمة ، أفرغ فيها كل ما يحصل عليه من معلومات ، وكل ما يتوصل إليه من بحوث وآراء واستنتاجات ، بعد قراءة عشرات الموسوعات والمراجع العلمية فى تاريخ وحضارة مصر القديمة .

Bibliotheca Alexandrina



0261117

دار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الخالق تورت - تلفون : ٣٩٢٣٥٢٥

٣٩٢٦٧٤٣ - فاكس : ٣٩١٩٦١٨ - ص ٢٠٣٢ - برقا دار الشادو - القاهرة

To: www.al-mostafa.com